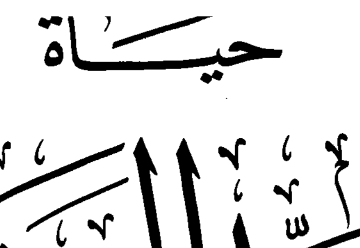
حياة



سيد العرب صلى الله عليه وسلم

وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية

تأليف

حسين عبد الله باسلامة

عضو مجلس الشورى بمكة

حقق هذا الكتاب وعلق عليه

الشيخ زكريا بن عبد الله بيلا

عضو مجلس إدارة الحرم المكي

الجزء الأول

دار القبلة للثقافة الاسلامية
جدة

مؤسسة علوم القرآن
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

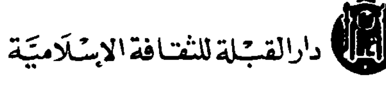
حياة

سيد العرب ﷺ

وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ-١٩٩٢م



المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب : ١٠٩٣٢ - الرمز : ٢١٤٤٣ - ت : ٦٦٥٢٤٠٦ / ٦٦٥٩٩٥١/ فاكس : ٦٦٥٩٤٧٦

مؤسسة علوم القرآن

دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب : ٤٦٢٠ - ت : ٢٢٤٩٠٠ - بيروت - ص.ب : ١١٣/٥٢٨١

كلمة المحقق

إن الشعوب العربية تجتاز في هذه الأونة مرحلة انتقالية خطيرة، هي مرحلة البعث الجديد. ملقية بأوضار العصور المظلمة التي مرت بها في مراحلها التاريخية الماضية خلف ظهرها. تلك الأوضاع التي أفسدت عليها حياتها، وباعدت بينها وبين مثلا العالية، ومفهومها الصحيح، متجهة بكل قوتها إلى تحقيق المبادىء السامية، والمثل الشريفة العالية، لتحقق لنفسها حياة أفضل، ومستوى أمثل، في كل مجال. لتتبوأ ـ بين الشعوب المتقدمة ـ مكانها الذي يتناسب مع تراثها الحافل بالأمجاد، ولتشترك مع الشعوب العاملة لخير الإنسان، من أي دين، ومن أي لون، ومن أي جنس. حتى يستمتع كل إنسان بكرامته وعزته ورخائه وأمنه وسلامه.

ولا شك أن ذلك ما تدعو إليه كل الأديان وكل الفلسفات المثالية المنبثقة عن العقل الإنسانيّ الخيِّر. وفي تراث الأمة العربية، أعظم دعوة إنسانية، تلك هي دعوة الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، ورسالته الخالدة. وجدير بها أن تستلهم في بعثها الجديد ـ في هذه الأونة ـ من روح تلك الرسالة المحمدية وسيرة صاحبها ما يسدد خطاها، ويسير بها إلى غايتها السامية وأهدافها النبيلة، ويحول بينها وبين الانحراف عن الطريق القويم، وذلك بإحياء تراثها وربط حديثها بقديمها، واتباع ما شرعه الله لها، وتفهم المعاني القرآنية بعقلية نيرة، مبرأة من التقليد الأعمى منزهة من التقيد بأقوال متوارثة من عهود الظلمة والتأخر والجمود. متأسية بالرسول

ﷺ، وبأصحابه الذين آمنوا به. واحتملوا المشاق، والتشريد، وأنواع العذاب والاضطهاد، مصرين على الإيمان بعقيدتهم، مؤكدين عزيمتهم على الحفاظ والاحتفاظ بمبادئهم. وتبلغيها للآخرين. مضحين بأرواحهم، وأموالهم في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، حتى كتب الله النصر لهم، وكتب الخلود لدينه الحق. . .

وإن هذا الكتاب الذي تشرفت بتحقيقه أحد مؤلفات رجل من رجالاتنا هو المرحوم الشيخ حسين عبد الله باسلامة، كان رحمه الله مخلصاً لدينه ولعروبته، بذل ما وسعه الجهد في خدمة أمته العربية، وأبناء ملته الإسلامية فأخرج عدة مؤلفات. تدور كلها حول مقدسات المسلمين ـ كما هو موضح في ترجمته. وقد وفق الله الأخ الكريم الأستاذ عمر عبد الجبار ووجهه وجهة الخير، فاعتزم إحياء هذه المؤلفات بتحقيقها، وطبعها على نفقته، بمناسبة البعث الجديد الذي تحياه الأمة العربية في مرحلتها التاريخية الحاسمة. إسهاماً منه في بناء الحياة الجديدة الجادة للعرب وللمسلمين. ولكنه لتواضعه يقول: إسهاماً من بلادي ومشاركة من موطني «الحجاز» في النهوض بأمتنا العربية الخالدة لئلا يوصم الحجاز المهد الأول للإسلام والعروبة بالتخلف عن هذا المضمار. فجزاه الله عن موطنه وأبناء وطنه جزاء المخلصين لدينهم ولعروبتهم. وحيا الله العاملين لمجد الأمة العربية وإحياء تراثها في كل مكان. والله لا يضيع أجر العاملين، ولو كان مثقال ذرة. . وإني أشكر الصديق الأستاذ عمر عبد الجبار إذ أتاح لي بتحقيق هذا الكتاب لذة روحية لم أحس بجانبها بمشقة التحقيق وعنائه. وإني أرجو أن ينال رضاء القارئين. كما أرجو التجاوز عما يجدونه من بعض الهفوات التي يحرص كل محقق أو مؤلف أن لا تكون. ولكن الكمال لم يدركه انسان مهما جهد، وحسبي أنني بذلت جهد المخلص، والله ولي المخلصين.

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الخلق، فاختار منهم العرب، واختار من العرب مُضَر، واختار من مُضَر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختار من بني هاشم سيد العرب محمداً ﷺ رسولاً، ونبياً، إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً لقوم يفقهون. صلى الله عليه وآله وصحبه، الذين اهتدوا بهديه، واستضاءوا بنوره، وسمَوا بإرشاده، وسلم تسليماً كثيراً، ما تداول الجديدان، وتعاقب النيِّران.

أما بعد، فقد رأيت كثيراً من علماء العصر، قد دونوا سير بعض مشاهير الإسلام، على أسلوب رائق، سهل التناول، يتسنى لناشئة العصر أن يقتطفوا من ثمارها، ويجنوا من حكمها، ما يفيدهم في معترك الحياة، ولم أرَ من تصدى لتدوين حياة سيد العرب ﷺ، التي عليها مدار الرابطة الإسلامية، والتي هي نبراس التقدم، ودستور النهوض، وغذاء أرواح الأمم الراقية، على ذلك الأسلوب العصري، غير بعض مختصرات، أشبه بفهرسة للحوادث والغزوات خالية من ضالة القارىء المنشودة[1] حيث إنّ

---

(١) لقد تناول كثير، من مشاهير الكتاب، والأدباء العرب، سيرة النبي ﷺ. وسيرة أصحابه الكرام، بأساليبهم الشائقة الرائعة، وفي مقدمتهم عملاق الأدب العربي الأستاذ عباس محمود العقاد، في عبقرياته المشهورة. وعميد الأدب العربي، الدكتور طه حسين، في كتابه على هامش السيرة، والأستاذ توفيق الحكيم في كتابه «محمد» ﷺ. والمرحوم الدكتور حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) ﷺ، وغير

الغرض من دراسة كتب التاريخ والسير والتراجم، وما في معني ذلك، هو الوقوف على ما وقع في غابر الأجيال، من تقدم، ورقي، ونهوض، من مباراة الأبطال، ومسابقة الأمم، الذين خطوا خطوات واسعة، في سبيل التقدم، والرقي. وكيف سادوا العالم، وتقدمت بمساعيهم أمتهم على سائر الأمم، حتى علا منارهم، وسما ذكرهم، وتشيد مجدهم، وتضخم بنيانهم، وصاروا المثل الأعلى في الرقي والتقدم.

وكذلك الوقوف على أطوار طغاة العالم، وبغاتهم، وغطرسة المتغطرسين فيهم، وهوس المتهوسين منهم، وكيف حفروا عن حتفهم بظلمهم، حتى اندك صرحهم، وتلاشى مجدهم، وتدهورت عروشهم، فشقيت بهم أمتهم، واحترقت قلوبهم بشررهم، وصاروا عظة لكل متعظ.

فبدراسة ذلك يتنور[1] القارىء فيكون خبيراً بما كان، بصيراً بما سيكون، فمن تصفح سيرة سيد العرب ﷺ، وتأملها تأمل المسترشد، عرف كيف تكون الدعوة إلى الإصلاح، وكيف ترتبط الأمة برابطة الإخاء الصحيح، وكيف تكون الثقة بالنفس، والإعتماد على الله، ثم الاعتماد على الأمة، وكيف ينبغي أن يكون الفرد في الأمة، طاهر الذيل، شريف النفس، عالي الهمة، متمتعاً بحرية الضمير، لا تأخذه في الحق لومة لائم، لا يتخلى عن نصرة الضعيف، ولا يتأخر عن الواجب، متخلقاً بمكارم الأخلاق التي، منها الشفقة، والرحمة، والنصح لكل مستنصح، والإرشاد لكل مسترشد، والذب عن دينه، وأمته وقومه وعشيرته.

حيث أن سيرة سيد العرب ﷺ، تحتوي على حياته التي هي أساس

= هؤلاء كثير. ومن كتابنا الوطنيين، الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي، في كتابه (رجالات الحجاز).

(١) التنور: الطلاء بالنورة وليس هذا ما أراده المؤلف بل أراد الإستنارة.. فالصحيح إذا يستنير القارىء.

النهضة الإسلامية، فيرى القارىء، كيف نشأ ﷺ، وكيف كابد من المشاقة في التفاهم مع أمته، وقومه، وعشيرته، وكيف توصل إلى نشر دعوته، وكيف ثابر على الدعوة، حتى وصل إلى التفاهم مع قومه، وتمكن من نشل أمته، من حضيض جهلها، إلى سماء رقيها، التي وصلت إليه، وكيف قادها بحكمته، وسلك بها سبيل الرشاد، حتى أصبحت بفضله الأمة العربية كتلة واحدة، إذا اشتكى منها عضو تداعت له الأمة بأجمعها، وصارت بتعاليمه وإرشاده، أعظم الأمم قيادة، وعلماً، ورابطة، ومدنية، وعمراناً، ومجداً، وسؤدداً، وفخراً، سداها الإسلام، ولحمتها الإيمان.

فلذلك اعتمدت على الله تعالى، وقمت بتدوين حياة سيد العرب ﷺ، ولخصتها من كتب التفسير، والحديث، والسير، والتاريخ، والأنساب والتراجم، ولم آل جهداً عن تصفح ما وقع في يدي من الكتب المتعلقة بهذا الموضوع، فما رأيت روايتين متعارضتين، إلا أخذت أصحهما، ولا عبارتين مترادفتين، إلا أثبت أرجحهما. وقد أسندت بعض الحوادث، إلى مخرجيها ورواتها، التي اقتضت الضرورة إسنادها، كي يروق بال القارىء، ويعلم شدة حرصي على التثبت في صحة النقل، كما أني قد بذلت قصارى جهدي، في تحرير نسب العرب، حيث أن الروايات في الأنساب كثيرة جداً، ومن أصعب الصعاب الوصول إلى نسب للعرب متفق عليه، غير نسب النبي ﷺ.

وإنما اعتمدت على أصح ما ظهر لي في ذلك، وما وافق الحديث النبوي الشريف، المذكور في محله. وكذلك اجتهدت كثيراً في الوصول إلى معرفة أسماء أول من أسلم من الصحابة، قبل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقبل دخول دار الأرقم[1] حتى أحصيتهم فرداً، فرداً، فبلغوا

---

(١) دار الأرقم بن الأرقم، هي الدار التي كان يجتمع فيها رسول الله ﷺ بأصحابه السباقين للإيمان بدعوته، وكانوا يعبدون الله فيها سراً ـ خوفاً من قريش ـ وهي =

اثنيـن وتسعين صحابياً، لأن أكثر أصحاب السيـر، والتاريـخ، والتراجم، يذكرون، أن عمر رضي الله عنه، لما أسلم، كان تمـام الأربعين، فظهـر بـالإحصاء غيـر ذلك. وكـذلـك تتبعت من تسمى في عصـر النبي ﷺ. محمداً، لأجل النبوة، وأحصيتهم ستة عشر، حيث إن بعض المتأخرين ذكر في تاريخه، أن هذا الاسم لم يكن شائعاً، ومعروفـاً، عند العـرب قبل الإسلام، ولذلك لم يتسمَّ به أحد غير النبي ﷺ. وأيضاً أحصيت أسماء من هاجر الهجرتين إلى الحبشة، وأسماء الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ في العقبة الأولى[(1)]، والثانية، والثالثة، وأسماء من حضر وقعة بدر[(2)] الكبرى، ومن استشهد بها، وكذلك من استشهد بأحد[(3)] وغيرها. ولاحظت على كل اعتـراض جـاء من بعض المستشـرقين، والمبشـرين، والإلحـاديين، والماديين، والمشككين، في صحة كتب الإسلام، وتاريخ العرب، والطعن في سيـرة سيد العـرب، ونبي الإسلام، والاعتـراض على التنبؤ، ونزول الوحي، وسلام الجمادات، على النبي ﷺ، والمعراج، والحكم على بني

= بمكة المكرمة بجوار الصفا إلى يمين الذاهب إلى المروة أي بأسفـل جبل أبي قبيس. وقد أزيلت هذه الدار.

(1) العقبة الأولى: هي ربوة صخرية تقع في مدخـل منى من ناحيـة مكة المكـرمة وعندها ترمي جمار العقبة.

(2) بدر: من المناهل المعروفة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد اشتهر هذا المنهل شهرة تاريخية عظيمة لحدوث الواقعة الفاصلة بين المسلمين والمشركين، وفي هذه الواقعة انتصر الإسلام على الكفر، والحق على الضلال، فشرف هذا المكان وخلد ذكره.

(3) أحد بضم أوله وثانيه، وهو جبل يقع شمالي المدينة المنورة، وعنده حدثت معركة أحد المشهورة التي انهزم فيها المسلمون، بسبب مخالفتهم لأمر القيادة النبـوية العليا.

قريظة، وغير ذلك مما وقفت عليه في بعض الجرائد والمجلات السيارة، وكذلك حررت الغزوات، ورتبتها، وبينت كل مـا جرى فيهـا، ولاحظت عليها، بما يقتضي بيانه وغير ذلك، مما لا يستغني عنه القارىء، وصغته بحمد الله تعالى، وسطاً بين التطويل الممل، والاختصار المخل، وسميته (حياة سيد العرب ـ وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية)، فأسأله تعالى، أن ينجح مقاصد المؤمنين، ويعلي منار الموحـدين، ويلم شعث المسلمين، ويجمع كلمتهم، ويصلح فساد قلوبهم، ويهديهم إلى صراطه المستقيم، إنه بالإجابة جدير، ولما يشاء قدير.



مقـدمــة
في أصل العرب ومساكنهم

كتب كثير، من علماء الأنساب، والتاريخ، في أصل العرب، وقد كثرت الأقوال، وتضاربت الآراء، خصوصاً بين القديم والحديث، فالاعتماد عند المتقدمين، على الكتب المدونة، وعند بعض العصريين، على الآثار القديمة التي نقب عنها في جوف الأرض، وحيث إن أمر التنقيب، عقيم في جزيرة العرب، وبالأخص لم يجر حتى اليوم، في الربع الخالي، مع صحراء الأحقاف فأصبح الاعتماد فيما يتعلق بشئون العرب، حتمـاً على الكتب المدونة، لأنه لم يكن أمامنا ما ينفي صحتها. غير أن كتب التاريخ، والأنساب، المتعلقة بأصل العرب، وتقسيمهم، تحتوي على أقوال كثيرة، فقد لخصت منها ما يأتي، بعد جهد كبير، وفحص دقيق.

يرجع أصل العرب، إلى سام بن نوح، عليه السلام، وكان مسكنهم قبل أن يسكنوا الجزيرة، جهات العراق ثم نزح فريق منهم إلى الجزيرة التي يكون موقعها بالنسبة للعراق غرب جنوبي، فسمى بنو سام النازحين منهم، إليها (عرباً) أي الغربيين، لأن حرف الغين المعجمة كان مفقوداً من اللغة السامية، فكانوا ينطقون بالعين المهملة عوضاً عن الغين المعجمة، ويضعونها موضعها. ومن ذلك الحين، أطلق على من نزح من بني سام إلى الجزيرة العربية اسم العرب، ثم سميت الجزيرة باسمهم.

والذي نزح إلى الجزيرة هم (عاد)، ومسكنهم الأحقاف، المسماة

الآن بصحراء الأحقاف الواقعة في القسم الجنوبي من الجزيرة. و(ثمود) ومسكنهم الحِجر، ووادي القُرى، بين الحجاز والشام المسمى الآن بمدائن صالح، الواقع في القسم الشمالي، من الجزيرة. و(طسم)، و(جديس)، ومسكنهما اليمامة، الواقعة في قلب الجزيرة، والبحرين المسماة الآن بالأحساء، الواقعة في القسم الشرقي، من الجزيرة على الخليج العربي. و(عمليق)، ومسكنهم عمان، الواقع في القسم الشرقي بجنوب من الجزيرة.

قال الجرجاني: إن بني عمليق ملكوا مصر، ومنهم فرعون ابراهيم، وفرعون يوسف، وفرعون موسى. و(أميم) ومسكنهم رمل عالج، بين اليمامة، والشُحر، وهو المسمى الآن بالربع الخالي. و(عبيل)، ومسكنهم الجحفة بقرب المدينة. و(عبد ضخيم)، ومسكنهم الطائف. و(حضورا) ومسكنهم الرسّ[1]، وأما الكلدانيون، قال ابن خلدون في تاريخه: إنهم من

---

(١) الرس: اختلف المحددون لمواقع الرس، وذكر هذا الاختلاف ياقوت الحموي في معجمه ج ٣ ص ٤٣ وما بعدها، ط، دار بيروت، ودار صادر، للطباعة والنشر. ونقل الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد ما قاله ياقوت. ـ راجع (صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من آثار ج ٤). ولكنه في الجزء الأول من صحيح الأخبار، يقول: وادي الرس: البلد المعروف بهذا الاسم إلى هذا العهد، في أعلى القصيم، على ضفة وادي الرمة الجنوبية، وقد أكثر الشعراءمن ذكره ـ زهير وغيره ـ وبقاؤه بهذا الاسم يغني عن ذكر الشواهد. وهو بلد عامر كثير النخل، والقصور، والمزارع. قالت ابنة مالك بن بدر الفزاري:

فلله عَيناً مَن رأى مثلَ مالكٍ. عقيرة قومٍ إن جرىٰ فَرسانِ
فليتهما لم يشربا قط شربة وليتهما لمْ يرسلا لرهان
أحل به أمس جنيدب نذره فأين قتيل كان في غطفان
إذا سجعت بالرقمتين حمامة أو الرس تبكي فارس الكتفان

انظر إلى الرقمتين اللتين تقدم ذكرهما، أوردتهما هذه المرأة، وقرنتهما بالرس، فكلها متقاربة كما تقدم» إنتهى ما قاله الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد. =

الطبقة التي قبل نوح عليه السلام، فهم من بني آدم، ولم يكونوا من بني سام بن نوح.

ويحد الجزيرة العربية شرقاً بحر الهند والخليج العربي المسمى بالخليج الفارسي - لأن العرب استعمرته وبنت فيه ملاحتها قبل الفرس - وبعض العراق إلى الكوفة. وغرباً البحر الأحمر، إلى أيلة وهي العقبة[1]، ثم إلى البلقاء المسماة (الأردن)، وبعض بادية الشام وفلسطين، وشمالاً من الكوفة والفرات بالعراق، إلى عانة، وبالس، من الجزيرة الفراتية، إلى سلمية[2] وإلى مشارف غوطة دمشق، إلى مشارف حوران، إلى البلقاء، من برية الشام وبعض فلسطين. وجنوباً بحر الهند.

وتنقسم الجزيرة إلى خمسة أقسام كبيرة:

الأول: القسم الشرقي، وهو يشتمل على عمان وقطر والإحساء والكويت وما حاذى ذلك من مدن وقرى، من الجهة الشمالية إلى الكوفة.

الثاني: القسم الغربي، وهو يشتمل على اليمن وتهامة وعسير والحجاز إلى أيلة وما حاذاها من جهة الشمال إلى البلقاء.

= لذلك اعتمدنا ما قاله - ابن بليهد - لأنه شاهد ذلك ورآه بعينيه، وهو من أبناء الجزيرة العربية، وأهل مكة أدرى بشعابها، كما يقول المثل القديم.

(١) العقبة: ويقال لها: عقبة أيلة. وهي آخر الحجاز، داخلة في حدوده، وقد كانت في أيدي أهالي الحجاز، إلى آخر عهد الحكم الهاشمي في الحجاز، ثم ألحقت بالأردن.

(٢) عانة، وبالس: عانة: بلدة مشرفة على الفرات، وبالس: بلدة بين حلب والرقة، وهي مشرفة على الفرات أيضاً، وكلا البلدتين تابع للشام. والسلمية بفتح مشدد على السين، وفتحة مخففة على اللام: بلدة صغيرة تابعة لحماة، من الأراضي الشامية.

الثالث: القسم الشمالي، وهو يشتمل على كل ما وقع ما بين الكوفة وحوران والبلقاء إلى أيلة من قرى وبادية.

الرابع: القسم الجنوبي، وهو يشتمل على حضرموت.

الخامس: قلب الجزيرة، وهو يشتمل على عموم نجد، بما فيه اليمامة، والقصيم وشمر وجبلي سلمى، وأجا، وما جاور ذلك مع الربع الخالي بصحراء الأحقاف ونجران.

ملوك العرب

كان ملك العرب في ثماني قبائل، سبع من قحـطان، وواحدة من عدنان، أما السبع الذين هم من قحطان، فهم: (١) حمير، (٢) همدان، (٣) كندة، (٤) لخم، (٥) دوس، (٦) (جفنة) (٧) بنو الصوار، وأما القبيلة التي من العدنانيين، فهم بنو (قنص).

فكان ملوك بني الصوار، هم أهل البأس، والشرف القديم، والعز التليد، والملك الوطيد، والمجد الأثيـل، فقد فتحـوا البلدان، وأخضعوا الممالك، وقهروا الأقران، وتركوا الآثار العظيمة، التي لا يزال المنقبون يعثرون على بعضها في كثير من الأقاليم، ولا يزال التاريخ يحدثنا بأخبارهم العظيمة، التي سادوا بها على الأمم الأخرى في تلك العصور. ومن هؤلاء الملوك، يعرب بن قحطان، وسبأ بن يشجب، والحارث الرائشي، وأبرهة ذو المنار، وعمرو ذو الأذعار، وأفريقس باني أفريقية، وسمر يرعش باني سمرقند، وتبع الأكبر، وتبع الأوسط، واسمه أسعد ويكنى أبا كرب، وتبع الأصغر، واسمه عمرو بن حسان بن أبي كرب.

وأما بنو قنص، فهم الملوك العدنانيون، وهم بنو قنص، بن معد، بن عدنان، فقد ملكوا العراق، والجزيرة الفراتية، ولهم غارات على الروم، والفرس.

وسائر العرب، بعد الملوك، طبقتان، كسائر الأمم، أهل مدر، وأهل وبر، فأما أهل المدر، فهم الحضر سكان المدن والقرى، فكانوا أصحاب زرع، من نخيل، وكرم، وأهل الوبر، هم قطان الصحاري وعمار الفلوات، معيشتهم من ألبان الإبل، ولحومها، وفي زمان النجعة ووقت التبدي يرعون ماشيتهم، جهات إيماض البرق ومنشأ السحاب، وجلجلة الرعد، فيؤمون منتجعين لمنابت الكلأ، مرتادين لمواقع القطر. وهذه حالتهم قديماً وحديثاً حتى اليوم.

فمن حضرموت (الحضارم) وهم سكان جنوب الجزيرة إلى اليوم، وسميت القطعة التي سكنوها بإسم جدهم حضرموت، ومنهم ملوك (كندة) قال ابن خلدون في تاريخه: أول من ملك منهم عمرو الأشنب بن ربيعة بن برام، بن حضرموت.

ومن ملوكهم ذوعيل بن ذوقيعان قد غزا الصين، وقتل ملكها، وأخذ سيفه.

كذلك سنان ذو ألم غزا الصين، والروم، ثم من ملوكهم حماد بن بدعيل، قد غزا فارس، في عهد سابور ذي الأكتاف، وهو أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم.

ومن ملوكهم يشرح ذو الملك، بن ودب، فكان أول من رتب الرواتب، وأقام الحرس والروابط. وتوارث ملكهم إلى البعثة النبوية.

وكان ملكهم في ذلك العصر (وائل بن حجر) رضي الله عنه، وقد وفد على لنبي ﷺ بنفسه فأكرمه، وأحسن منزله، وأيده في ملكه، وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وله معه قصة، تأتي في الوفود.

ومن يعرب اليمانيون وهم سكان القسم الغربي الجنوبي من الجزيرة إلى اليوم، وهو القسم الواقع بين حضرموت وعسير.

ومنهم ملوك سبأ والتبابعة، وقد توارث ملكهم إلى زمن البعثة، ولأحد ملوكهم (سيف بن ذي يزن الحميري) قصة مع عبد المطلب جد النبي ﷺ تتعلق بمبعث النبي ﷺ، ستأتي في هذا الجزء. وأمّا جرهم، فكان مسكنهم الحجاز، ثم اضمحلوا، واندمجوا في العدنانيين من قبل البعثة النبوية. وأما (السلف) فقد اندمجوا في اليمانيين، قال ابن خلدون: وأهل التوراة لا يعرفون شيئاً من أخبار عاد وثمود، لأنهم لم يقع لهم ذكر في التوراة، ولا لهود ولا لصالح عليهما السلام بل ولا لأحد من العرب

العاربة، لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم، إنما هو لمن كان في عمود النسب، ما بين موسى وآدم، صلوات الله عليهما، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب فلم يذكروا فيها.

وعليه فليهدأ بال الملاحدة، في قولهم: إن النبي ﷺ أخذ أخبار الأمم السالفة من التوراة، فظهر أن هؤلاء العرب العرباء لم يكن لهم ذكر في التوراة، وقد جاء في القرآن المجيد جمل من أخبارهم لم يكن لها نظير في التوراة، فلم يبقَ لمفترياتهم محل.

وأما بنو (فالغ) بن هود، عليه السلام، فنزحوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها، وأقاموا بين بابل والجزيرة الفراتية وسورية وفلسطين، وتناسلوا فيها، واقتبسوا شيئاً من لغة تلك البلاد الأشورية والسريانية، واختلطت مع لغتهم العربية، فتولدت منها لغة سمِيت (بالعبرانية) نسبة إلى جدهم هود عليه السلام، المسمى عندهم (عابر)، فصار يطلق على تلك اللغة (العبرانية). ومن بني فالغ بن هود عليه السلام، نبي الله (ابراهيم) ﷺ، وهو ابراهيم بن تارح، المسمى آزر، بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن فالغ بن عابر، وهو نبي الله هود عليه السلام، ثم إنّ ابراهيم ﷺ رحل بهاجر أم ولده اسماعيل، معَ ابنها اسماعيل عليه السلام، من فلسطين إلى مكة، وتركهما بها، وعاد إلى فلسطين، فنشأ إسماعيل عليه السلام بمكة وصاهر بني جرهم، وتكلم اللغة العربية، من أصل نشأته.

ومن ولد اسماعيل عليه السلام (عدنان)، ومن عدنان (معد)، ومن ولد معد (نزار).

ومن ولد نزار (أنمار)، وقد اضمحل بنو أنمار، أو اندمجوا في بَجيلة، وخثعم.

ومن ولد نزار أيضاً (إياد)، وقد اندمج بعض ولده في مُضر، ومن ولد

إياد (قس بن ساعدة الإيادي)، الذي يضرب به المثل في البلاغة، وهو أول من أظهر التوحيد بمكة، مع ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نُفيل.

ومن ولد نزار أيضاً (ربيعة)، ومسكن بنيه بين اليمامة والبحرين، والعراق.

ومن بني نزار أيضاً (مضر)، ومن مضر قريش.

فبنو عدنان، هم سكان نجد إلا قريشاً، فهم سكان مكة وضواحيها، ولا يشارك بني عدنان من العرب في أرض نجد من القحطانيين إلا (طي) من كهلان، فيما بين جبلي (سلمى) و (أجا)، ثم تفرق بنو عدنان في تهامة والحجاز والعراق والجزيرة وسورية وبعد الإسلام تفرقوا في عموم الأقطار.

فحاصل ما تقدم أن العدنانيين، والقحطانيين، يرجعون في النسب إلى أصل واحد وأب واحد ومسكن واحد ولغة واحدة وجد واحد وهو هود عليه السلام، وهود من بني عاد، كما تقدم.

وأما من قال: إن العدنانيين هم العرب المستعربة، فذلك لأن ابراهيم ﷺ كان من سكان فلسطين وكانت لغته المستعارة للعبرانية، كما تقدم، ثم لما نشأ ولده اسماعيل عليه السلام بمكة، وتكلم العربية التي اقتبسها من جرهم، عدّه المؤرخون، أعجمياً واستعرب، وسموا بنيه العرب المستعربة، والصحيح أنه من أصل عربي، وجده الخامس هود عليه السلام، فإذا كان سلفه نزحوا من جنوب الجزيرة إلى شمالها، وتغيرت بسبب ذلك لغتهم العربية باللغة العبرانية، فهل يخرجهم ذلك من أصلهم العربي بناء على تغير اللغة؟ ما أظن أن هذه القاعدة صحيحة، عند علماء النسب حيث أن تغير اللغة لا يغير الأصل.

وأما قول المؤرخين: إن العرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام بائدة، وعاربة، ومستعربة، فهذا اصطلاح جرى عليه المؤرخون، ولا يكون حجة

يستند عليها في أصل العرب، والصحيح، أن بني عاد لم ينقطع نسلهم، وذلك أنه لما هلك بنو عاد، وهم قوم هود عليه السلام، بقي هود ومن آمن معه من بني عاد، وذلك بنص القرآن المجيد، ثم تناسلوا.

ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: ليس في العرب قبيلة، إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ مضرها وربيعتها ويمانيها. رواه عبد بن حميد، وابن أبي أسامة، وابن المنذر.

ولم يفرق ابن عباس بين مضر وربيعة واليمانيين، بل سماهم العرب، فلم يقل في ربيعة ومضر: العرب المستعربة. وكذلك ما رُوى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم». رواه الطبراني، والحاكم والبيهقي وأبو نعيم.

فهذا قول سيد العرب ﷺ الذي قوله المرجع في كل شيء يقول: «واختار من العرب مضر» ومن المعلوم أن مضر من ولد عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل، عليه السلام، وعليه فيكون إسماعيل من أصل عربي، يرجع إلى هود بن عاد، المتفرع منه الفرعان، العدناني والقحطاني.

فمضر بقول سيد العرب، من أخيار العرب ولا يكون الخيار إلا من الأصل المختار منه مضر، هم العربا العرباء، الحقيقيون.

فلو كان اسماعيل من أصل أعجمي واستعرب، لما انطبق عليه هذا الاختيار، ومن كان أصله عربياً وتغيرت لغته بأسباب التغرب، فلا يجزم باستعجامه، وإذا تعلم بنوه لغتهم الأصلية العربية وتكلموا بها بعد استعجام

لسانهم، فلا يقال لهم المستعربة، حيث إن هذه القاعدة هي المعروفة، والمتبعة عند علماء الأنساب، ولو أن كل من تغيرت لغته بلغة أخرى وجب انتسابه إلى الأمة التي اقتبس لغتها لضاعت الأنساب، وأصبح كل شخص ابن نفسه، وابن لغته التي يتكلم بها، وهذا ليس بصحيح ولا حدث به التاريخ ولا قال به أحد من علماء النسب بل حدثنا التاريخ، عن الأمم التي دخلت في الإسلام، وتكلمت بلغته، وصار بضعهم من علماء الإسلام، لا يزال نسبهم الأصلي محفوظاً لهم. ومن أولئك الأعلام محمد بن إسماعيل البخاري، والنيسابوري، والأصفهاني، والمارديني، والخراساني، والفيروز أبادي، وغيرهم[1]. وحتى الآن موجود من أبناء العرب في عموم أقطار الدنيا مثل الهند وجاوا وتركيا وغيرها، وقد تغيرت لغتهم العربية بلغة تلك البلاد الأعجمية. ولم تزل أنسابهم محفوظة، ولا يزالون عرباً، وهم لا يعرفون كلمة واحدة من اللغة العربية. فمن ذلك تبين أن العدنانيين والقحطانيين من أبناء هود بن عاد. وقد وجدت في (سبائك الذهب في أنساب العرب) للشيخ محمد أمين البغدادي السويدي، أنه جمع الفرعين، العدناني والقحطاني، إلى هود بن عاد، ووجدت في كتب الأنساب ما يؤيد ذلك، وعندما يرفعون نسب إسماعيل، إلى سام بن نوح نجد في وسط النسب اسم (عابر)، وهو هود عليه السلام.

(١) قد يصح قول المؤلف. إذا أردنا الرجوع في البحث عن النسب أو العرق. ولكن الإنسان ابن لغته التي نشأ عليها، وتعلم بها، وكان محصوله الثقافي والحضاري من نتاجها. ولذلك كان كل هؤلاء الأعلام الذين ذكرهم كالبخاري والنيسابوري وخلافهم عرباً، لأن محصولهم الثقافي لم يكن إلا باللغة العربية. ولولاها لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والإجلال بين سائر الأمم.

قريش

قريش هم بنو فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان. وسكان الحرم من قريش، سبعة بطون، ويقال لهم: قريش البواطن، وهم قصي، وأسد، وتيم، ومخزوم، وعدي، وجمح، وسهم، وسكان الظواهر منهم: خمسة بطون، ويقال لهم أيضاً: قريش الظواهر، وهم بنو الحارث بن فهر، وبنو محارب بن فهر، وبنو عامر بن لؤى، وبنو زُهرة بن كلاب، وبنو تيم الأدرم. فمن قصى، عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى، وعدي، ومن عبد مناف نوفل، والمطلب، وعبد شمس، وهاشم ومن هاشم، عبد المطلب، ومن عبد المطلب، سيد العرب محمد ﷺ.

حضارة العرب

حضارة العرب، قديمة جداً، ومشهورة عند الأمم[1]، وهم معروفون بالعزة والمنعة والفخار. وقد أثبت علماء التاريخ، حتى في العصر

---

(١) إن الحضارة العربية أقدم بكثير مما يصورها المؤرخون. وليس أدل على ذلك من اللغة العربية. فاللغة العربية منذ الزمن الجاهلي كانت غنية بمفرداتها واشتقاقاتها ومترادفاتها. وهذه المترادفات لم تأت عفواً، ولكنها تدلنا على الأطوار الحضارية التي مرت بها حتى استطاعت كل كلمة من المترادفات تدل على حالة خاصة مثال ذلك: النوم، والرقاد، والهجوع، والهجود، والسِّنة، والوسن. فكل كلمة من هذه الكلمات تدل على حالة خاصة من النوم، تختلف عن الحالة الأخرى، وقل مثل ذلك في كل المترادفات.

ولا يتسنى ذلك لأمة بدائية، لأن الأمة البدائية محدودة الحياة فهي لذلك محدودة الكلمات. ولننظر مثلاً للضمائر وحركاتها فلخطاب المؤنث حركة تدل عليه خلاف =

الحاضر، أن العرب، هم أول من صنع السفن، وبنَوا ملاحتهم في الخليج العربي ـ المسمى حديثاً بالخليج الفارسي[1] ـ وقد جابوا البحار، وطرقوا سواحل الخليج العربي والمحيط الهندي مع سواحل الهند، واخترقوا المحيط الأعظم، إلى أن بلغوا الصين، وكذلك طرقوا ساحل إفريقية الشرقي، إلى أن بلغوا رأس الرجاء الصالح منتهى إفريقية الجنوبية، وبعض سواحل إفريقية الغربي، قبل أن يؤسس الفينيقيون ملاحتهم، في البحر الأبيض المتوسط.

وقال بعض الباحثين من العصريين: إنهم أول من اكتشف أمريكا قبل (خرستاف كلمبوس)، وأن اكتشافهم وقع صدفة، وهو أنه لما تغلب عليهم الأسبانيول، والبرتغال في الأندلس، وخرجوا من ذلك الإقليم، يمم بعضهم جهة الغرب حتى بلغوا أمريكا.

وقال بعض الباحثين من العصريين أيضاً: إن أصل الفينيقيين من العرب، وإنهم نزحوا إلى ساحل سورية، وهو الحد الشمالي لجزيرة العرب وأسسوا ملاحتهم على البحر الأبيض المتوسط، وهذا معقول ولا يبعد عن الحقيقة لأن سورية وجزيرة العرب شيء واحد، وهم لا يزالون عرباً إلى اليوم وإلى ما شاء الله.

= حركة الخطاب مع المذكر، وللجمع ضمير، وللمثنىٰ ضمير، وللمفرد ضمير، وللحاضر ضمير، وللغائب ضمير، ولن تجد هذه العلامات المميزة بين المتخاطبين في لغات أخرى، حتى عند الأمم المتحضرة حديثاً. ذلك لأن الأطوار الحضارية، التي مرت بها الأمة العربية عميقة الجذور في التاريخ، وسيكشف المستقبل كثيراً من الآثار التي تنبئنا النبأ اليقين عن عراقة العرب، في الحضارات القديمة. وهم إذ ينشئون الحضارة الحديثة فإنما هم يستندون على تراث حضاري ضخم. ويبنون على دعائم قوية راسخة.

(١) تسمية الخليج العربي بالخليج الفارسي: تسمية مفتئتة على الحقيقة والتاريخ.

علـومهـــم

كانت علوم العرب، التي يفـاخرون بهـا غيرهم، قـديماً هي علم لسـانهم، وأحكـام لغتهم، ونـظم الأشعـار، التي هي سجـل تـاريخم، ومجدهم، وتأليف الخطب، وعلم الأخبار، والتاريخ، والنسب، والفلك، بما اشتمل عليه من سير الكواكب، وأرصاد النجوم، وعلم القيافة، ولهم معرفة بقص الأثر في الرمال حتى يعلموا الجهة التي ذهب إليها صاحب الأثر، وهو ضرب من القيافة، ولست تجد أمة من الأمم تحفظ نسبها منذ الخليقة إلى اليوم غير العرب.

ومن الأسف أنه يوجد في هذا العصر، من سموا أنفسهم (دكـاترة الأدب) أو سماهم من على شاكلتهم، يزيفون هذا العلم، ويعدونه من لزوم ما لا يلزم، والظاهر: أنهم يجهلون أو أنهم من طبقة مجهولة أو منحطة، أو من قبيل: (والناس أعداء لما جهلوا).

وكانت العرب تجوب البلاد للتجارة، حتى سماهم بعض المؤرخين العصـــريين فينيقيي الشـرق، ومـــع أن التـــاريـــخ أثبت أنهم أقـــدم من الفينيقيين[1]، في الملاحة والتجارة. فكانوا إذا دخلوا بلداً للتجارة، يتعرفون أخبار الناس وأحوالهم، وما هم عليه من علم، وأخلاق، وصناعة، وأدب، فمنهم من دخـل مصر، فـاقتبس من علم أهلها، ومنهم من دخـل بـلاد

---

(١) إن الفينيقيين عرب. كانوا على شاطىء فلسطين إلى الشمال والجنوب من مدينة صور، والفينيقيون، نسبة إلى فينيقية وهذا اسم لبلاد النخل. وبلاد النخل، هي بلاد العرب ويكثر النخيل في الشمال وفي الشرق وفي الجنوب. «راجع كتاب، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين» للأستاذ عباس محمود العقاد. من كتب المكتبة الثقافية ط. . دار القلم بالقاهرة.

فارس، فاقتبس من الفرس حكمهم، وأخبارهم، ومنهم من دخل الشام، واقتبس من علم الآشوريين والفينيقيين، والرومان وعلم أخبارهم: ووقف على فلسفة اليونان وتاريخهم؛ وعلم الإسرائيليين وتاريهم، ومنهم من دخل الهند، والسند، وأحاط بشيء من أخلاقهم، وعاداتهم؛ وذلك على حسب مدارك الرواد، بقدر استعداد كل شخص منهم، في عقليته ونفسيته، وفرط ذكائه، وقوة عنايته، وطول تجاربه.

وكان من تلك العلوم التي اختص بها العرب في القديم، وكانت لهم السابقية فيه على غيرهم من الأمم، علم الفلك، وتقويم البلدان، وطرق البحار، وبذلك توصلوا إلى أقصى الصين ومنتهى أفريقية وأسسوا لهم مراكز تجارية في معظم المرافىء التي رادوها، وتمكنوا من استعمارها، استعماراً تجارياً.

ديانة العرب

كانت ديانة العرب في غابر الأجيال، مختلفة، فمنهم من كان يعبد الشمس (كحمير)، ومنهم من يعبد القمر (ككنانة)، وكانت تميم تعبد (الدبران)، ولخم، وجذام، تعبدان (المشتري)، وقيس تعبد (الشعرى العبور)، وأسد تعبد (عطارد)، ومنهم من كان يعبد الأصنام، كثقيف؛ وأياد، كانتا تعبدان (اللات) في نخلة[1] من جهة الطائف ـ وهي بعلو السيل الكبير ـ وبنو كلب تعبد (ود)، بدومة الجندل، وهي الجوف، وهذيل تعبد (سواع)، ومذحج، وبعض قبائل اليمن تعبد (يغوث).

(١) واديان يطلق عليهما نخلة. أحدهما نخلة الشامية، والثاني نخلة اليمانية. وكلاهما يجتمعان بمر الظهران ويكوِّنان وادياً واحداً. ونخلة التي كانت بها «اللات» هي: الشامية.

وهمـدان تعبد (يعـوق)، وذو الكلاع، بـأرض حمير تعبـد (نسـرا) والأوس، والخزرج تعبدان (مناة)، وقريش، وبنو كنانـة تعبدان (العـزي) وأعظم أصنامهم (هبـل)، وكان منصـوباً على ظهـر الكعبة، و(أسـاف، ونائلة)، كانا منصوبين على الصفا والمروة؛ وكان لحنيفة صنم يعبدونه من (حيس)، والحيس هو تمر يخلط بسمن، واقط، فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه، فقال بعض الشعراء في ذلك:

أكـلـت حـنـيـفـة ربـهـا   على التقحم والمـجـاعـة
لـم يـحـذروا مـن ربـهـم   سـوق العـواقب والتبـاعـة

وجميع عبدة الأوثان من العرب، كانت تعترف لله تعلاى بالربوبية، وإنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التدين بدين الصائبة في تعظيم الكواكب والأصنـام، الممثلة بها في الهيـاكل، لا على مـا يعتقـده بعض الجهـال بديانات الأمم، وآراء الفرق، من أن العرب، كانت تعتقد في الأوثان أنها الإله الخالق للعالم، بل ذلك لا يتصوره عاقل، وقد قال تعـالى حكايـة عنهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾. وإنما كانوا ينكرون البعث والنشور والمعاد والجزاء في اليوم الآخر، ويرون أن العالم لا يخرب ولا يفنى.

ولما بعث الله سبحانـه، وتعالى، نبينـا محمداً ﷺ بـالهدى، ودين الحق، وأظهره على الدين كله، توحد دين العرب بالإسلام، وانسلخوا من الجهالة والهمجية، وأصبحوا قادة الأمم في كل شيء، ومرجعاً في العلوم والمعارف والحضارة والعمران بفضل تعاليم القرآن وإرشاده.

التشريع عند العرب

كان للعرب أحكام وشرائع يدينون بها، منها: (الحج)، فكانوا يحجون البيت، ويعتمرون، ويحرمون، ويطوفون، ويسعون، ويقفون الموقف، ويرمون الجمرات، ومنها الغسل من الجنابة، والمضمضة والإستنشاق ومسح الرأس والسواك والإستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الأبط ولا ينكحون الأمهات ولا البنات، فجاء الإسلام بإبقاء ذلك على وجه مخصوص. وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه، ويقطعون يد السارق اليمنى، وكانوا يجمعون بين الأختين، فجاء الإسلام يمنع ذلك.

وكانوا يعدون الظهار طلاقاً، وتعتد المرأة عن الوفاة بحول.

وكانوا إذ التبس عليهم أمر ردوه إلى كهنتهم، وهم الذين لهم أتباع من الجن يخدمونهم.

وكانوا يعولون على عيافة الطير وزجره في حركاتهم ومقاصدهم، وهم أن يعتبره عند قصده بما يراه من الطير: تارة بإسمه وتارة بطيرانه يميناً، أو شمالاً، وتارة بصوته ومقدار ما يصوت، وتارة بمسقطه الذي يسقط فيه، وجاءت الشريعة بإبطال ذلك.

وظهر للعرب، بعد دخولهم الإسلام أن الشريعة المحمدية هي أشرف وأطهر وأعدل وأصلح لمبادىء عموم البشر، من عرب، وعجم، وقد بنى عليها تشريع أعظم الأمم المتمدنة، في هذا العصر، ومن ينكر ذلك فليرنا مبدأ تشريع الأمم قبل الإسلام ان استطاع لذلك سبيلاً، حتى يجري تطبيقها على تشريعهم اليوم، وتظهر الحقيقة.

ولم أقصد بأن الأمم المتمدنة قد طبقت تشريعها على الشريعة المحمدية، حرفاً بحرف، وإنما القصد أنهم لم يكونوا قبل الإسلام على

شيء من أحكام التشريع، ولما اطلعوا على التشريع الإسلامي نظموا لأنفسهم تشريعاً خاصاً، بنوا قواعده على قواعد التشريع الإسلامي، وليس منه في شيء.

والذي يوجب الأسف، أنه يوجد في بعض من يدعي الإسلام من ينكر التشريع الإسلامي، لأنه لم يجده منظماً، على نسق قوانين أوروبا القضائية، فلو رزق شيئاً من العقل، لأدرك معنى التشريع، ولكن الإلحاد جعله لا يعقل، ولا يفهم، وغاية ما وصل إليه من العلم أنه قال: ليس في الإسلام تشريع منظم[1]، كما هو موجود عند الأمم الراقية، وهو يجهل أن مبنى تشريع الأمم الراقية على قوله: كان على التشريع الإسلامي، ولكن بشكل آخر غير الشكل الموجود عند المسلمين.

---

(١) ملاحظة: إن بعض المسلمين ـ في العصر الحديث ـ يقفون في وجه تنظيم التشريع الإسلامي ولا يسمحون بصياغة الأحكام الشرعية صياغة قانونية، تتمشى مع التنظيمات التشريعية الحديثة، مع أن المسلمين في العصور الأولى للإسلام. نظموا الشريعة الإسلامية بما يتفق مع حياتهم. فالموطأ للإمام مالك، والأم للإمام الشافعي، وكتاب الخراج للإمام أبي يوسف الحنفي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وغير هذه المؤلفات، إنما هي تنظيم للشريعة، بما يتفق مع الحياة التي كان يحياها الناس في عهد أولئك الأئمة الأعلام. رحمهم الله ورضي عنهم. فماذا على المسلمين، إذا تأسوا بأولئك الأئمة من أسلافنا ووضعوا لهم دستوراً منظماً يستمد مواده من الشرع الإسلامي الحنيف. يحدد عمل الحاكم مع المحكوم، وينظم الصلات والمعاملات بينهما، كما ينظم صلات الناس بعضهم مع بعض، ليعرف كل فرد ـ سواء كان حاكماً أو محكوماً ـ واجباته حيال الآخرين كما تقضي روح العصر الذي نعيش فيه؟ هل الإسلام يكره التنظيم؟ أو هل الشريعة الإسلامية تحرم ذلك؟ نسأل الله الهداية إلى طريق الرشاد والسداد، ونسأله أن يلهم الحاكمين والمحكومين السير في الطريق القويم.

أيام العرب وحروبها

أيام العرب هي حروبها المشهورة، وكانت تسمى الحادثة العظيمة التي تقع فيها مجزرة كبرى يوم كذا، وهذه الأيام كثيرة، وقد لخصت منها ما يأتي، (يوم البسوس): وهو أعظم أيامها، كان بين بكر بن وائل، وتغلب بن وائل، وكان للبسوس، خالة جساس، ناقة فرآها كليب بن وائل، وقد كسرت بيض حمام في حماه، كان قد أجاره، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جساس على كليب فقتله، فهاجت الحروب بسبب ذلك، ودامت بين الفريقين أربعين سنة.

يوم داجس: كان لقيس على فزارة.

يوم النسار: كان بين ضبة وتميم.

أيام الفجار بين بكر بن وائل وبني تميم، وكان في الأربعة الأيام الأول بين كنانة ونصر بن معاوية، وبين قريش وهوازن.

ويوم ذي قار: كان من أعظم أيام العرب، وكان لبني شيبان، وكان كسرى أبرويز، قد غزاهم بجيش فظفر فيه بنو سنان، وهو اليوم الذي انتصرت فيه العرب على العجم.

يوم الرحرحان: كان بين دارم، وعامر بن صعصعة، والثاني بين تميم وعامر.

يوم الفلج: وكان فيه وقعتان، الأولى لبني عامر على بني حنيفة، والأخرى لبني حنيفة، على بني عامر وأهل اليمامة.

يوم لهابة: كان بين بني كعب وعبد شمس.

يوم طخفة: وكان لبني يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء.

يوم مروت: كان بين غنم وبني قشير.

يوم الشقيقة: كان على بني شيبان.

يوم أراب: كان لتغلب على بني يربوع.

يوم ذي أراطة: كان بين بني حنيفة وجعدة.

يوم عاقل: كان بين جشم وحنظلة.

يوم درني: كان لبني طهية على تيم اللات.

يوم العضالي: كان بين بكر بن وائل، وتميم، وهو آخر أيامهم.

يوم الغبيط: كان لبني يربوع، دون مجاشع.

يوم الكفافة: كان بين فزارة وبني عمرو، وبني تميم.

يوم القرين: كان بين خثعم وكنانة.

يوم بسيان: كان لبني فزراة على تميم.

يوم قراقد: كان لمجاشع على بكر بن وائل.

يوم الحسي: كان لبكر على تغلب.

يوم السربات: كان بين عبس، وحنظلة.

يوم الستار: كان بين الغوث وجديلة.

يوم فيف الريح: كان بين خثعم وبني عامر.

يوم أوراة: كان بين بني عامر وبني هند وبني تميم.

يوم البيداء: وكان بين حمير وكلب.

يوم غول: كان لضبة على كلاب.

يوم السلام: كان لربيعة، على مذحج.

يوم ذرحرح: كان بين سعد وغسان.

يوم التحالق: كان بين بكر وتغلب حلق فيه أحد الفريقين رؤوسهم، ليكون علامة لهم.

يوم الصليب: كان بين بكر بن وائل وبين عمرو بن تميم.

يوم ظهر: كان بين عمرو بن تميم وبين ضبة.

يوم الدئيفة: كان لبني مازن.

يوم ذات الحرمل: كان لبني عمرو، على بني عبس.

يوم القرعاء: كان بين بني مالك ويربوع.

يوم ملهم: كان بين تميم وحنيفة.

يوم داب: كان لبني يربوع، على كلاب.

يوم زرود: كان بين بني تغلب وبين يربوع.

يوم الرقم: كان بين بني فزارة، وبني عامر.

يوم طوالة: كان بين بني عامر وغطفان.

يوم بعاث: كان بين الأوس والخزرج ـ وله ذكر في صحيح البخاري ـ.

يوم النباح: كان لبني تميم على شيبان.

يوم الدرك: كان بين الأوس والخزرج.

يوم الوقد: كان لبني علي بن عامر بن صعصعة.

يوم الهرير: كان بين بني تميم.

يوم الهباة: كان لعبس على فزارة.

يوم نجران: كان لبني تميم على بني الحارث بن كعب.

يوم الواردات: كان بين بكر وتغلب. .

يوم ذي الأثل: كان لتغلب على لخم وعمرو بن هند.

يوم الذنائب: كان لغسان على لخم ونجران.

يوم سفوان: كان لجعدة وقتير على النعمان بن المنذر ولخم.

يوم قباء: كان بين الأوس والخزرج.

يوم الغضبية: ويقال العصبية، كان لعمرو بن هند على تميم.

يوم سنجار: كان لتغلب على قيس.

يوم دارة باسل: كان لضبة على كلاب.

يوم النصيح: كان لقيس على أهل اليمن.

يوم الزويرين: كان لشيبان على تميم.

يوم مرفق: كان لقيس على سعد.

يوم الزخيخ: كان لقيس على أهل اليمن.

هذه بعض أيام العرب التي اشتعلت فيها نيران الحرب بينهم، ولكل يوم من هذه الأيام تفصيل في كتب التاريخ والأدب، وهي تمثل شجاعتهم وحميتهم وشدة بأسهم ومنعتهم وحماقتهم وطغيانهم وتوغلهم في سفك الدماء. فلما جاء الإسلام بنوره أطفأ هذه النار المشتعلة في جزيرة العرب، بحكمته الباهرة وهدايته الرشيدة، وأزال التشاحن والبغضاء التي كانت كامنة في قلوبهم لبعضهم البعض، وجعلهم جسماً واحداً، إذا اشتكى منه عضو

تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، ولا زالت العرب بخير، ما بقيت متمسكة بدينها وشريعتها.

أسواق العرب

كان للعرب أسواق في الجاهلية، يقيمونها في شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلى بعض، ويحضرها كل قبائل العـرب، من بُعد منهم ومن قرب، فكانوا ينزلون «دومة الجندل»، وهو المسمى اليوم بالجـوف، وهو واقع شمال الجزيرة قريب من الشام[1]. أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، فيقوم بعشائهم رؤساء آل بدر، في دومة الجندل، وإذا غلب على السوق بنو كلب، يقوم بعض رؤساء كلب بعشائهم، فتقوم أسواقهم إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق (حجة)[2] وهو المشهور في ربيع الآخر فتقوم أسواقهم بهـا، وكان يقـوم بطعـامهم المنذر بن سلوى، أحد بني عبد الله بن دارم، ثم يرتحلون نحوه عمان[3]،

(١) الجوف أو دومة الجندل: ما بين حائل والشام وهي أرض منخفضة وفي غربها عين ثجاجة ترتوي منها المزارع، وهي التي اجتمع فيها عمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري للتحكيم بين الإمام علي كرم الله وجهه ومعاوية بن أبي سفيان. والقصة مشهورة في كتب التاريخ.
ويقول محمد بن بليهد في كتابه صحيح الأخبار: وهي ـ أي دومة الجندل ـ ثلاثة قرى عظام دومة، والقارة، وسكاك، واسمها القديم سكاكة.

(٢) حجة بفتح أوله: جبل مشهور وقد سميت بلدة حجة بإسمه. وهي في جنوب الجزيرة العربية.

(٣) عمان بضم العين وفتحة مخففة على الميم وهي إقليم عربي مشهور من أقاليم الجزيرة العربية وتقع سلطنة مسقط بينه وبين الخليج المسمى بإسم عمان، وإقليم عمان له إمامة مستقلة عن سلطنة مسقط. ويخوض الشعب العماني في هذه الأيام معركة حامية الوطيس مع الاستعمار الانجليزي وعملائه. لاعتداء الانجليز على هذه البلاد الآمنة طمعاً في ثرواتها ومن أهمها البترول الذي يؤمل وجوده فيها بغزارة.

بالبحرين، فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون فينزلون إرَم وقرى الشِّحر[1]، فتقوم أسواقهم بها أياماً، ثم يرتحلون فينزلون (عدن)، من اليمن، فيشترون منها (اللطائم)، وهي الأقمشة، وأنواع الطيب، ثم يرتحلون فينزلون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها إلى صنعاء، ثم تقوم أسواقهم بها ويجلبون منها الخرز والأدم والبرد، وكانت تجلب إليها من معافر، ثم يرتحلون إلى عكاظ[2] في أول شهر شوال، فتقوم أسواقهم بعكاظ.

= وسينتصر الشعب العماني المجاهد وسينعم بخيرات بلاده ويستمتع بحريته واستقلاله إن شاء الله.

(١) ارِمَ وقُرى الشِّحر على ساحل بحر العرب في جنوب الجزيرة العربية.

(٢) عكاظ قال الأصمعي: عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب، بموضع منه يقال له: (الاثيداء) وقال ابن دريد: وكانت تجتمع فيه قبائل العرب فيتعاكظون، (أي يتفاخرون ويتناشدون، وفي لمصباح المنير: عكاظ، على وزن غراب، سوق من أعظم أسواق الجاهلية، وراء قرن المنازل. بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن. وأصح الأخبار في ذلك والذي ينطبق على الواقع، هو قول أبي عبيد: (هي صحراء مستوية، لا جبل فيها، ولا علم، وهي بين نجد والطائف). وهذا الموضع الذي تحدد بقول الأصمعي: إن بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليالٍ، والذي تبين شكل موضعه بقول أبي عبيد: هي صحراء مستوية لا جبل بها، ولا عَلَم، وهي بين نجد والطائف يدل دلالة قطعية، أنها (ركبة) وتبتدىء ركبة، من عشيرة غرباً وتنتهي بحرة مران شرقاً، ومن عشيرة إلى الطائف ليلة بحساب سير الإبل، وبينها وبين مكة ثلاث ليال. وهذه ركبة هي الصحراء التي لا جبل بها ولا عَلَم، وهي بين نجد والطائف، وهي التي تسع جموع قبائل العرب قاطبة.

ومن عادة العرب أنهم لا يختلطون في المناهل، والمنازل كاختلاط الحجاج بعرفة، بل كل قبيلة تنحاز عن الأخرى في مكان منفرد متباين عن القبائل الآخرين. وذلك لما بين القبائل في الجاهلية مع بعضها البعض من الدماء، والثارات. وطالما وقعت بينهما الحروب بسوق عكاظ، ولذلك لا يوجد مكان بهذه الصفة، غير ركبة، لأنها هي المكان الفسيح الواسع الذي يمكن اجتماع عموم قبائل العرب فيه. وأما من قال: باحتمال أن يكون (السيل) الكبير، فهو لا ينطبق عليه الوصف، لأنه أولاً، لم

ويتناشدون الأشعار، ويتحاجون، ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تيم، وكان أحدهم الأقرع بن حابس، ثم ينتقلون منها في نهاية شهر شوال، فينزلون مر الظهران، وهو (وادي فاطمة)، في أول ذي القعدة، فتقوم أسواقهم فيه طيلة الشهر؛ وهذا الوادي، واقع شمال مكة، ويبعد عنها من ٢٥ ميلاً إلى ٣٠ ميلاً، وهو وادٍ خصب، كان به في الأزمان السالفة، نحو ثلاثمائة عين ماء، فلعدم وجود الأيدي العاملة، دمرت ولم يبقَ منها الآن سوى أربع وأربعين عين ماء بخيوفها، وهي:

(١) الزيمة، (٢) سولة، (٣) المضيق، (٤) الجديدة، (٥) الأنبارك، (٦) الربان، (٧) الكرابة، (٨) القرية، (٩) الخفيج، (١٠) الطرفاء، (١١) القشاشية، (١٢) الفائجة، (١٣) الدبة، (١٤) أم الغطاة، (١٥) الخلص، (١٦) أبو حصباني، (١٧) الدخان، (١٨) الطندب، (١٩) المخيف، (٢٠) الروضة، (٢١) البرقة، ، (٢٢) الحمراء، ، (٢٣) أبو عروة، (٢٤) الحسينية، (٢٥) الهنية، (٢٦) الجموم، (٢٧) الخضراء، (٢٨) أبو شعيب، (٢٩) المدرة، (٣٠) الفيض، (٣١) الهرامز، (٣٢) النقية، (٣٣) الشماسي، (٣٤) البقيرية، (٣٥) الغريس، (٣٦) البحرين، (٣٧) البرار، (٣٨) الجديدة، (٣٩) المرشدية، (٤٠) المقوع، (٤١) الركاني، (٤٢) صروعة، (٤٣) المشرقات، ، (٤٤) حداء.

وهذه الخيوف تبتدىء من علو الوادي شرقاً من الزيمة، وتنتهي غرباً بحداء، وكثيراً ما يوجد بهذا الوادي أدبلة العيون المدمرة، وممكن

= يكن فيه سعة تتحمل عشر تلك القبائل، وثانياً، المسافة التي بينه وبين مكة ليلتان. فهذا ما ظهر لي بعد البحث، والتنقيب في التاريخ، والأمكنة المذكورة.

تعميرها، وإنما تحتاج إلى المال والأيدي العاملة، ويبلغ طول وادي مر الظهران، من الشرق إلى الغرب نحو خمسين ميلاً.

ثم يرتحلون إلى الحج، والوقوف بعرفة، فإذا قضوا مناسكهم نزلوا مكة للطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، فكانت قريش تقوم بضيافتهم بمكة حتى يرتحلوا.

وكان سوق عكاظ بمثابة المؤتمر العام، والمعرض العام، لعموم قبائل العرب قاطبة، فكان يجتمع فيه فحول الشعراء والخطباء، والملوك، والأمراء. وكانت تجري بينهم مسابقة في الشعر، والخطابة، والشجاعة، وغير ذلك.

وكانت لقريش اليد الطولي في التجارة، فكانت لهم رحلتان: رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف، وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، فإذا جاء الشتاء ذهبوا إلى اليمن ببضائع الحجاز، وما يتبقى من بضائع الشام، فيبيعونها، ثم يشترون من اليمن الأقمشة اليمانية، وأنواع الطيب، ويأتون بها إلى مكة. ثم يرتحلون في الصيف إلى الشام ببعض أدم الحجاز، وبضائع اليمن، وبعد تصريفها يشترون من الشام ما يصلح لأسواقهم، من البضائع، ويأتون بها إلى مكة.

وكان فيهم من أصحاب رؤوس الأموال العظيمة، مثل أمية بن خلف، وعبد الله بن جدعان، وخديجة بنت خويلد، والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حرب، وغيرهم، وكان منهم من يستطيع أن يحمل من التجارة، على ألف بعير لشخصه برأس ماله، فكانت تنفق هذه البضائع في أسواقهم، عكاظ، ومر الظهران، وذي المجاز[1]، وبمكة، ومنى، وغيرها.

---

(١) ذو المجاز: بين منى وعرفات.

وكـانت قـريش لا تعـرف الأسفـار إلى الشـام قبـل هـاشم بن عبد مناف، بن قصي، جـد النبي ﷺ، فكان هـاشم هو الـذي أخذ لهم (الأيلاف) من قبل قيصر، ملك الروم بالشام، ومن عموم القبائل القاطنة بين الشام، ومكة، وذلك أنه لما سافر من مكة إلى الشام، وتعرف بقيصر ملك الروم وجد نفسه قادراً على التكلم معه، فقال له: أيها الملك، إن لي قـوماً وهم تجـار العرب، فـإن رأيت أن تكتب لي كتابـاً تؤمنهم، وتؤمن تجارتهم، فيقدموا عليك بما يستظرف من أدم الحجاز، وثيابها، فيمكنوا من بيعه عندكم، فهو أرخص عليكم.

فكتب له كتاباً، فيه أمان لمن أتى منهم، فأقبـل هاشم بـالكتاب، فجعل كلما يمر بحي من العرب، على طريق الشام، أخذ من أشرافهم (أيلافاً)، والأيلاف هو أن يـأمنوا عنـدهم، وفي طريقهم، وأرضهم بغيـر حلف، وإنمـا هو أمن الـطريق. فأخـذ هاشم الأيـلاف فيمن بينه، وبين الشام، حتى قدم مكة، فأعطاهم الكتاب.

فكان ذلك، أعظم بركة على قريش في تجارتهم، فخرج تجار قريش بتجارة عظيمة، ومعهم هاشم، يحوزهم فلم يبرح يجمع بين قومه، وبين العرب، ويؤيد أيلافهم، حتى ورد الشام، فباعت قريش تجارتها، واشترت من الشام بضائع شتى وعادت إلى مكة. ومنها صارت في كل صيف ترحل

إلى الشام، وأخذ لهم عبد شمس (حبلاً) من النجاشي الأكبر، فـارتحلوا بسبب ذلك إلى أرض الحبشة. والحبل: هو العهد والأمان. وأخـذ لهم نوفل، حبلاً من الأكاسـرة ملوك فارس، فـارتحلوا للتجارة إلى العـراق، وأرض فـارس. وأخـذ لهم المـطلب، حبـلاً من ملوك اليمن (حميـر)، فارتحلوا بسبب ذلك رحلة الشتاء إلى اليمن.

وكان من تجار قريش في العصر النبوي، من يملك الملايين، روى

الحافظ الذهبي في تاريخه: أن ثروة الزبير بن العوام رضي الله عنه، قدرت بعد وفاته بأربعين ألف ألف درهم، أي أربعون مليون درهم، وكـان كل عشرة دراهم تقدر بدينار، وقدرت ثروة طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، بثلاثين ألف ألف درهم، أي ثلاثون مليون درهم.

وكذلك قـدرت ثروة عبـد الرحمن بن عـوف، رضي الله عنه ـ بعـد وفاته ـ فكانت أعظم من ثروتي الزبير، وطلحة، وأيضاً صفوان بن أميـة، رضي الله عنه تقدر ثـروته مثلهم، أو يفـوق عنهم[1] ولم يكن أحد هؤلاء اكتسب درهماً واحداً، من غير طريق التجارة، لأنه لم يحدثنا التاريخ أن أحداً من هؤلاء تقلد إمارة، أو قاد جيشاً، في الفتوحات الإسلامية، أو صار خليفة للمؤمنين، بل حدثنا التاريخ بضد ذلك: إن قواد الجيوش وأمـراء المؤمنين في الصدر الأول من الخلافة، ماتوا فقراء، لم يورثوا درهماً، ولا ديناراً، بل لما حضرت أبا بكر الصديق رضي الله عنه الوفاة، جـاءته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقالت له: يا أبتـاه، إنك كنت ذا مـال وتجارة، فدلنا على مالك، فأجابها: أني كنت ذا مال، وتجارة، وقد أنفقت مالي على رسول الله ﷺ، في سبيل الله، فإذا أنـا مت، فاطـوي فراشي هذا، وأودعيه بيت مال المسلمين.

---

(١) نصيحتنا للقارىء الكريم أن يقدر المبالغة الجسيمة في هذه الأرقام الضخمة التي حددت بها ثروات الصحابة رضوان الله عليهم لأن الصحابة الذين ذكرت ثرواتهم هنا بهذه الضخامة غير المعقولة قد هاجروا إلى المدينة المنورة فقراء لا يملكون شيئا. والإسلام يحرم امتلاك الأموال عن الطرق التي كانت تتبع في الجاهلية فليس في الإسلام ربا ولا احتكار ولا استغلال للنوفذ. ومثل هذه الثروات لا تتكون إلا من طرق غير مشروعة. فالمبالغة واضحة في هذا التقدير.

وكذلك عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي رضي الله عنهم، مثل سلفهم، وكذلك سعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وأبو عبيدة رضي الله عنهم، فإنهم أعظم القواد الذين فتحوا فارس والروم، في عصر الخليفتين، لم يحدثنا التاريخ عن عظم ثروتهم، بل ماتوا فقراء. ولو أن طلحة، والزبير وعبد الرحمن بن عوف، تأمروا على قيادة الجيش، أو صاروا من أمراء المؤمنين، لأصبحوا فقراء مثل اخوانهم، حيث لم تأت ثروتهم إلا عن طريق التجارة، فلو اشتغلوا بالأمارة لكانوا مثلهم.

فهكذا كانت قريش، أغنى العرب، بواسطة التجارة.

أخلاق العرب

كانت العرب في الجاهلية على أخلاق عظيمة، لا نجدها في غيرهم من الأمم المعاصرة لهم، فمن خصالهم الشجاعة والعفة والشهامة والنجدة والحمية وعلو الهمة وحفظ العهد والوفاء بالوعد والمحافظة على الأعراض والمدافعة عن الجار وحفظ الجوار والكرم والسخاء والضيافة لكل وافد عرفوه، أم لم يعرفوه. وكانوا مثال الحرية في أقوالهم وأعمالهم وعاداتهم، من غير تكلف، لأنها سجية فيهم. ويتفاخرون بشدة البأس وعزة النفس وإباء الضيم والحلم والفصاحة وحفظ الشرف ومكارم الأخلاق وسرعة الخاطر بالبديهيات وغير ذلك، مما امتازت به العرب على غيرها من الأمم، والتاريخ شاهد على ذلك.

سيد العرب

أما سيد العرب، وموقعه في الهيئة الاجتماعية، فهو ﷺ من سلالة آباء كرام عربي أبطحي حرمي قرشي هاشمي نخبة بني هاشم، المختار والمنتخب من خير بطون العرب، أعرقهم نسباً، وأشرفهم حسباً، وأنضرهم عوداً، وأطولهم عموداً، وأطيبهم أرومة، وأعزهم جرثومة، وأفصحهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأرجحهم إيماناً، وأعزهم نفراً، وأكرمهم معشراً، من قبل أبيه وأمه، كما ورد في صحيح مسلم، عن واثلة بن الأسقع، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

نسبه الشريف من جهة أبيه

هو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، والمرسلين، البشير النذير الذي جاء بالحكمة وفصل الخطاب، وهدى ورحمة لقوم يفقهون. ابن:

(١) عبد الله

وهو الولد العاشر لعبد المطلب، وكان والـده عبد المـطلب، حينما أراد حفر زمزم، عارضه ابن عمه عدي بن نوفل بن عبد مناف، وعيره بقلة عياله، فنذر: إن آتاه الله تعالى عشرة من الولد ذكوراً، لينحرن أحدهم عند الكعبة قرباناً لله تعالى؛ فلما آتاه الله تعالى عشرة من الولد ذكوراً، وكان العاشر مولداً عبد الله، فقرع - بين أولاده - عبد المطلب، فأصابت القرعة عبد الله وكررها عشراً، فافتداه بمائة نـاقة. وكـان عبد الله أنهـد فتى في قريش، وأصبحهم خَلقاً، وأحسنهم خُلقـاً، ولم يلد له من الـولد، غيـر رسول الله ﷺ.

وأم عبد الله فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية، وهو ابن:

(٢) عبد المطلب

واسمـه شيبة الحمـد، وسمِّي بذلـك لأنه ولـد وفي رأسه الشيب، وسبب تسميته عبد المطلب، هو أن والده هاشم، تزوج بيثرب (المـدينة المنورة)، في بني عدي بن النجار، فولدت له شيبة، وتركه هاشم عندها حتى صار غلاماً، فمات هاشم، فخرج أخوه المطلب بن عبد مناف إليـه فاستلمه من أمه بعد عناء شديد، فاحتمله، وأردفه على بعيره، ودخل مكة، فقالت قريش: هذا عبد ابتاعه المطلب، فسمي بعد ذلك بعبد المطلب. وكان عبد المطلب جسيماً، أبيض وسيماً طوالاً فصيحاً، ما رآه أحـد إلا أحبـه لحسن خلقـه، وكـان قـاضي العـرب وسيـد قـريش وشـريفهـا وحليمها، وكان على ملة ابراهيم ﷺ، ويعتقد بالبعث والنشور والجزاء في اليوم الآخر، خلافاً لما كانت عليه العرب، وكان يتعبد في حراء، (وهو جبل بأعلى مكة)، فكان إذا دخـل شهر رمضـان، صعد الجبـل (حراء)

وأطعم المساكين جميع الشهر. وقد حرم الخمر، ونكاح المحارم، والزنا، ومنع وأد البنات، أو دفنهن أحياء، وأمر بقطع يد السارق، وكان يأمر أولاده بترك الظلم، والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق. وكن يقال له: الفياض لجوده وكرمه. ومن عادته يرفع من مائدته للطير والوحش في رؤوس الجبال.

وقد هداه الله تعالى إلى موضع بئر زمزم، بعلامات وإشارات رآها في منامه، فحفرها وأخرج منها الغزالين الذهب، والأسياف والدروع، التي دفنتها فيها جرهم، وصار بعد ذلك يسقي الحاج منها، بعد أن كان يؤتى بالماء العذب من الآبار البعيدة لسقاية الحاج.

عاش عبد المطلب مائة وأربعين سنة، وهو أول من ذهب حلية الكعبة.

وأم عبد المطلب، سلمى بنت عمر النجارية، الخزرجية، وهو ابن:

(٣) هاشم

واسمه عبد العلاء، سمي بذلك لعلو مرتبته بين قومه، ويقال له: سيد البطحاء. وكان يهشم الثريد لقومه في الجدب، ويضع الطعام للحاج. ولم تزل مائدته منصوبة في السراء والضراء. وكان يحث قريشاً على مكارم الأخلاق، فكان إذا أهل هلال ذي الحجة، قام صبيحة ذلك اليوم، وأسند ظهره إلى الكعبة من جهة بابها، وخطب في قريش قائلاً: يا معشر قريش! إنكم سادة العرب، أحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً، وأوسط العرب أنساباً، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً، يا معشر قريش، إنكم جيران بيت الله تعالى، أكرمكم الله تعالى بولايته، وخصكم بجواره، دون بني إسماعيل، وأنه يأتيكم زوار الله، يعظمون بيته، فهم أضيافه، وأنتم أحق

من أكرم ضيوفه، وزوار بيته، فورب هذه البَنيّة، لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه، وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله، ما لم يُقطع فيه رحم، ولا يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هـذا البيت، أن لا يخرج رجـل منكم من مالـه، لكرامة زوار بيت الله، وتقويتهم، إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً.

فكانوا يجتهدون في ذلك، ويخرجونه من أموالهم، فيضعونه في دار الندوة. وكان يحمل الماء على الإبل من آبار بعيدة، عذبة، ويملأ بهـا الأحـواض المنصوبـة حول الكعبـة، لسقايـة الحاج، ويضـع فيها التمـر والزبيب.

وكان هاشم، هو أول من أخذ الأيلاف لقريش، من ملوك الشام، والروم، وغسان. وكانت قريش إذا هلك مـال أحدهم، أخـذ من يعولـه وخرج بهم إلى البر، وضرب على نفسه، وعليهم الأخبية، ثم يتناوبون فيها حتى يموتون، فلما نشأ هاشم، وعظم قـدره في قومـه، قال: يـا معشر قريش، إن العزم مع كثرة العدد، فقد أصبحتم أكثر العرب أولاداً، وأعزهم نفراً، وإن هذا الاحتقاد قد أتى على كثير منكم، وقد رأيت رأياً، قالوا: رأيك رشيد، فمرنا نأتمر، قال: رأيت أن أخلط فقراءكم، بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غني، فأضم إليـه نفراً عـدده بعدد عيـاله، فيكـون يوازره في الرحلتين، فما كان من مال الغني من فضل، عاش الفقير وعياله، في ظله، وكان ذلك قطعاً للإحتقاد.

فقـالوا: نعم مـا رأيت. فألف بين النـاس[1]. ولم يكن لهاشم من

(١) ألا يحق لنا أن نقول أن كرم الشيم العربية تتصل جذورها بما كان قد سنه هاشم لقومه، منذ العهد الجاهلي، في مكة المكرمة.. وفي المدينة المنورة، منذ ذلك

الولد، غير عبد المطلب، ولما أدركته الوفاة أوصى على ولده عبد المطلب أخاه (المطلب)، ومات بغزة من أرض فلسطين وعمره عشرون سنة، وأمه عاتكة، بنت مرة، بن سلم المضرية. وهو ابن:

(٤) عبد مناف

واسمه المغيرة، وكان يقال له: قمر البطحاء، لحسنه، وجماله، وكان شريفاً في قومه قريش، وسيدهم، وذهب شرفه فيهم كل مذهب، في حياة أبيه (قصي) وكان في يده لواء نزار، وقوس إسماعيل عليه السلام، ثم تولى سلطان قريش وولاية مكة، بعد أبيه، وورث من أبيه قصي، من مواد الشرف القيادة، ودار الندوة، والسقاية، وهذه أعظم مفاخر قريش.

وقد أوصى قريشاً بتقوى الله تعالى، وصلة الرحم. خلف من الولد أربعة، وهم (هاشم) الذي تقدم، و(عبد شمس) وهو جد الأمويين، ومنهم عثمان بن عفان، وأبو سفيان بن حرب، وابناه معاوية، ويزيد، وعبد الله بن عامر، بن كريز، فاتح خراسان وما وراء النهر، في خلافة عثمان رضي الله عنهم، وهو أول من أجرى العيون بعرفة وزرع بها البساتين، في خلافة عثمان بن عفان، من ماله الخاص. و(المطلب) ومنه المطلبيون، ومنهم السائب وشافع جد الإمام الشافعي رضي الله عنهم. و(نوفل)، ومنه النوفليون، ومنهم جبير بن مطعم، ونافع بن ظريب، الذي كتب

= الزمن، أيضاً حيث كان الأوس والخزرج، يخلطون فقيرهم بغنيهم. وقد قال شاعر حجازي يصف عدالة قومه ويميزهم بهذه الصفة عن سواهم:

الخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

وقد جاء الإسلام، وأقر هذه العدالة وزاد عليها بتشريعاته العظيمة. لأنها من مكارم الأخلاق.

المصحف، لعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وأم عبد مناف (حبي) بنت حليل الخزاعي، وهو ابن:

(٥) قصي

واسمه زيد، ويقال له: مجمع، لأنه جمع قبائل قريش بعد تفرقها، وهي إثنا عشر قبيلة، كما سيأتي بيانها، وأنزلها بمكة ونواحيها، بطاحها، وظواهرها. ولد قصي بمكة، ثم لما تزوجت أمه فاطمة، بنت سعد، بن سيل الأزدية، اليمانية، على ربيعة بن حزام القضاعي، احتملها مع قصي إلى بلاده، من أرض بني عذرة، من أشراف الشام، لصغره، وترك أخاه زهرة، في قومه قريش، بمكة، لأنه قد كبر. وشب قصي في حجر ربيعة، ولا يعلم لنفسه أباً غير ربيعة، ولا يدعي إلا له.

فلما صار غلاماً يفعه، سابه رجل من قضاعة، فعيره بالدعوة، وقال له: لست منا، وإنما أنت فينا ملصق، فدخل على أمه، وقد وجم لذلك، فقالت له أمه: يا بني، صدق، إنك لست منهم، ولكن رهطك خير من رهطه، وآباؤك أشرف من آبائه، وإنما أنت قرشي، وأخوك، وبنو عمك بمكة، وهم جيران بيت الله الحرام، فأجمع قصي على الخروج إلى قومه، واللحوق بهم، فقالت له أمه: يا بني، لا تعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام، فتخرج في حاج العرب، فإني أخشى عليك أن يصيبك بعض البأس.

فبقي حتى خرج حاج قضاعة، فخرج معهم، حتى قدم مكة، فلما فرغ من الحج، أقام بها. وكان رجلاً، جليلاً، نسيباً، فعرفت قريش قدره، وفضله، وعظمته، وأقرت له بالرياسة، والسؤدد. وكان أبعدها رأياً، وأصدقها لهجة، وأوسعها بذلاً، وأبينها عفافاً.

وكانت ولاية البيت الحرام أولًا، بيد مضـاض بن عمرو الجـرهمي الأكبر. وثانياً بيد خزاعة، وكـان مضاض الجـرهمي ولي أمر البيت بعـد ثابت بن اسماعيل، عليه السلام، لأنه كان جداً لثابت، وغيره، من أولاد إسماعيل لأمهم، واستمرت جرهم ولاة البيت الحرام بمكة، لا ينـازعهم أحد من ولد إسماعيل في ذلك. ثم أن جرهما طغوا، وبغوا، وظلموا، من يدخل مكة من العرب، من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة، الذي كان يهدى لها.

فاجتمعت خزاعة لحربهم. قال القاضي عياض: إن خزاعة من بني (مضر) بن نزار، وأيده السهيلي. وكانت منازلهم بمكة، ومر الظهران[1] وما بينهما، وكانوا حلفاء لقريش، وكان رئيس خـزاعة، عمـرو بن لحي، بن قمة، بن الياس بن مضر، فبلغ عمرو بن لحي في العرب، من الشرف، والتقـدم، والزعـامة، مـا لم يبلغه عـربي قبله، ولا بعده، في خـزاعة، فأخرجت خزاعة بني جرهم من مكة، واستولى عمرو بن لحي على مكة، وهـو أول من أطعم الحاج بمكـة سدائف الإبـل، (وهـو شحم السنـام) ولحمانها، على الثريد، وذهب شرفه في العرب كل مذهب، حتى صار قوله ديناً متبعاً، لا يخالفه فيه كبير، ولا صغير.

فكان يطعم الناس، ويكسوهم، حتى أنه بلغ ما ينحره للحاج في الموسم عشرة آلاف بدنة، ويكسوهم بعشرات الآلاف الحلة[2]. وهو أول من غير ملة ابراهيم الخليل ﷺ، في العرب، وشرع لهم عبادة الأصنام، ونصبها لهم حول الكعبة، وأتى بالصنم (هبل) من أرض الشام، ونصبه في بـطن الكعبة، وبقي أمـر البيت في بنيه خمسمـائة سنـة، وكان آخـرهم

---

(١) مر الظهران: تقدم ذكره، وهو الذي يعرفه الحجازيون بإسم وادي فاطمة.

(٢) هكذا كان الحكام في مكة يصنعون مع الحجاج في زمن الجاهلية. فهل تتناسب مقارنة هذه الأخلاق السامية. مع أخلاق الحكام الآن؟

(حليل) بن حبيشة الخزاعي، فخطب قصي ابنته (حبى) بنت حليل، فعرف حليل نسبه، فرغب فيه، وزوجه، فأقام قصي معه، فولدت حبى لقصي ولده عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزي، وعبداً، فلما انتشر ولده، وكثر ماله، وعظم شرفه، مات (حليل)، فرأى قصي أنه أولى بالكعبة، وأمر مكة، من خزاعة، وبني بكر، وأن قريشاً فرعة اسماعيل بن ابراهيم، وصريح ولده، فكلم رجالاً من قريش، وبني كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة، وبني بكر، من مكة.

فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه، وبايعوه عليه، كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام القضاعي، وهو في بلاده يدعوه إلى نصرته، والقيام معه، فقام رزاح بن ربيعة في قضاعة، فدعاهم إلى نصره أخيه قصي، والخروج مع إليه، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، فخرج إلى مكة ومعه أخوته الثلاثة، ومن تبعه من قضاعة، في حاج العرب، فلما اجتمع الناس بمكة وخرجوا إلى الموقف، وفرغوا من الحج، ونزلوا منى، أتاهم قصي بمن معه من قومه قريش وكنانة، وقضاعة، عند العقبة، فقال قصي لخزاعة: نحن أولى بهذا الأمر منكم. فناكروه، فناكرهم، فقاتلوه، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، ثم انهزمت خزاعة، وبنو بكر. وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم.

ثم أنهم تداعوا إلى الصلح، واتفقوا أن يحكم بينهم رجل من العرب فيما اختلفوا فيه، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب الكناني؛ فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالكعبة، وأمر مكة، من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة، وبني بكر، موضوع بشدخه تحت قدميه، وإن ما أصابت خزاعة، وبنو بكر، من قريش وبني كنانة، وقضاعة ففيه الدية مؤداة، وأن يخلى بين قصي، وبين الكعبة، ومكة. فسمى يعمر بن عوف يومئذ الشداخ، لما شدخ من الدماء، ووض منها. فهكذا قضى الدهر أن يكون حكم الغالب على المغلوب، في ماضي الزمان وحاضره.

فولى قصي البيت، وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه، وأهل مكة، فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي، أصاب ملكاً أطاع له به قومه[1] فحاز قصي بعد ذلك مواد الشرف كلها، التي كانت أعظم مفاخر العرب قاطبة، فكانت بيده (السقاية)، وهي أحواض من الجلد (الأدم) كبيرة تنصب حول الكعبة في زمن الموسم، وتملأ ماء عذباً يحمل إليها من الآبار البعيدة، على الإبل، ويضاف على الماء التمر، والتين، والزبيب.

ثم يمزج فيه على شكل المرطبات، أو الشربات، في هذا العصر، فيستقي منها الحاج، مدة إقامته بمكة، زمن الموسم. وينفق على ذلك من مال والي الحرم. (والرفادة)، وهي دار الضيافة التي يؤمها الوفود للطعام. و (الحجابة) وهي سدانة الكعبة، والقيام بشؤون خدمة البيت المعظم، من فتح بابه، وتنظيفه، وحفظ أمواله، التي تهدى إليه.

و (دار الندوة)، وهو مجلس الشورى، وكان لا يقبل فيه عضو إلا من بلغ سن الأربعين، وكانت قريش لا تبرم أمراً إلا فيه. و (القيادة) وهي قيادة الجيوش في الحرب. و (اللواء)، وهو راية الحرب، ومن عاداتهم أنه لا يحمل اللواء، إلا من نسل صاحب الواء. وبقيت هذه المواد، في عقب قصي. إلى أن ظهر الإسلام، وأسس للعرب ما هو أعظم قدراً، وأجل شأناً، من ذلك.

---

(١) لم يكن قصي ملكاً، وإنما كان زعيماً لمكة وسيداً في قومه، وكانت العرب في الجاهلية تستنكر الملك في تهامة. وحينما يذكر المؤرخون الملوك في الجزيرة العربية لا يذكرون قصيًّا منهم، وقد أقام قصي الحكم في مكة على أساس جمهوري، بحيث كانت المسئوليات موزعة بين قبائل قريش كما هو معروف، وكان لهم (دار الندوة) التي أنشأها قصي بحيث لا يبرم أمر إلا إذا اجتمعوا فيه وتشاوروا في إنفاذه أو عدم إنفاذه.

فهـدم كـل ذلـك رسـول الله ﷺ، ولم يبق من هـذه المـواد إلا (الحجابة)، في بني عبد الدار، بن قصي، و(السقاية)، في بني العباس بن عبد المطلب. أما الحجابة، فهي باقية في بني عبد الدار، من أولاد شيبة بن عثمان يتوارثونها عن آبائهم، طبقة بعد طبقة، وجيلا بعد جيل، إلى هذا اليوم. ويلي الرياسة منهم أكبرهم سناً، وأما (السقاية)، فبقيت في بني العباس إلى زمن رأس الخلفاء العباسيين، وهو أبو العباس السفاح، ثم تركوها بعد ذلك.

وكان قصي هو أول من أحدث وقود النار بالمزدلفة، ليراها من دفع من عرفة. وهو أول بان لدار الندوة، قال القاضي بن ظهيرة، في تاريخ مكة: إنها في حصوة باب الزيادة[1]، ولما استتب الأمر لقصي، وتسامعت عموم القبائل بولايته على البيت الحرام، جمع قريشاً، وقام فيهم خطيباً، فقال: يا معشر قريش، قد حضر الحج، وقد سمعت العرب بما صنعتم، وهم لكم معظمون، ولا أعلم مكرمة عند العرب، أعظم من الطعام، فليخرج كل إنسان منكم من ماله خرجاً، يا معشر قريش، إنكم جيران الله وجيران بيته، وأهل حرمه، وإن الحاج زوار بيت الله، فهم أضياف الله سبحانه وتعالى، وأحق الأضياف بالكرامة، أضيافه، ولو كان مالي يسع ذلك، قمت به.

فصارت قريش تدفع من أموالها إليه، فيصنع طعاماً، وشراباً للحجاج بمكة، وعرفة. فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة

---

(١) يؤسفنا أن تهدم هذه الدار. ودار الأرقم بن الأرقم، وهاتان الداران لهما الأثر البالغ والتأثير العظيم في تاريخ العرب والمسلمين، وكان الأجدر بولاة الأمور الإبقاء عليهما وصيانتهما لأنهما من الآثار الخالدة التي تحيي فينا ذكرى المسلمين الأولين من أسلافنا العظماء.

جزوراً، ونحر بمكة جزراً، وجعل الثريد واللحم، وسقى الماء المحلى بالتمر والزبيب والتين، وسقى اللبن.

وكان يحث قريشاً على مكارم الأخلاق، ويعلمهم الحكم. ومن حكمه المأثورة عنه: من أكرم لئيماً أشركه في لؤمه، ومن استحسن قبيحاً نزل إلى قبحه، ومن لم تصلحه الكرامة.

أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان، والحسود العدو الخفي.

ولما حضرته الوفاة قال لأولاده: اجتنبوا الخمرة، فإنها لا تصلح الأبدان، وتفسد الأذهان.

خلف قصي من الولد أربعة، وهم:

عبد مناف: ومنه بيت النبوة، ومن ذكر في عمود النسب.

عبد الدار: ومنه سدنة الكعبة، ومن ولده عثمان بن طلحة الذي هاجر مع عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، إلى المدينة، وأسلم معهم، وأعطاه النبي ﷺ، مفتاح الكعبة، ولابن أخيه شيبة، بن عثمان بن أبي طلحة، رأس الشيبيين، وقال لهما: «خذوها يا بني أبي طلحة، خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم». ومصعب بن عمير، أحد السابقين الأولين، وصاحب راية رسول الله ﷺ يوم أحد، وقتل يوم أحد، وهو يحمل الراية، رضي الله عنه.

عبد العزى: وهو جد الأسديين، ومنهم أم المؤمنين خديجة بنت خوليد رضي الله عنها ـ والزبير بن العوام، وحكيم بن خزام، وورقة بن نوفل، رضي الله عنهم.

عدي: ومنه قريش الظواهر.

أم قصي: فاطمة بنت سعد اليمانية، الأزدية.

وهو ابن:

(٦) كلاب

واسمه حكيم، وسبب تلقيبه بكلاب، أنه كان يصطاد بالكلاب.

وكانت العرب من عاداتها أن تسمي أبناءها بشر الأسماء، ومواليها بأحسن الأسماء، فلما سئلت عن ذلك، أجابت: إنهم يسمون أبناءهم لأعدائهم، ومواليهم لأنفسهم.

فكانهم قد جعلوا أبناءهم عدة لهم على أعدائهم، وسهماً في نحورهم.

وهو أول من أهدى إلى الكعبة سيفين مُحليين بالذهب، وجعلهما في خزانتها.

خلف من الولد قصي، الذي في عمود النسب.

زهرة: وإليه تنسب بنو زهرة، ومنهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما، وآمنة بنت وهب أم النبي ﷺ.

أم كلاب: هند بنت سرير، من بني فهر، بن مالك.

وهو ابن:

(٧) مرة

واسمه محشية، وكنيته أبو يقظة، ومرة منقول من وصف الحنظلة والعلقمة، ومعناه القوة، لقوله تعالى: ﴿ذو مرة﴾ أي قوة، وهذا الإسم من ضمن الأسماء الغليظة مثل كلاب.

خلف من الولد ثلاثة، وهم:

كلاب: المتقدم.

تيم: وهو جد التيميين، ومنهم أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنهما.

يقظة: وإليه تنسب بنو مخزوم، ومنهم أبو سلمة بن عبد الأسد، ومنهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وعمه سلمة بن هشام، وسعيد بن المسيب، رضي الله عنهم. وأم مرة (وحشية)، بنت شيبان من بني فهر، بن مالك. وهو ابن:

(٨) كعب

وسمي كعباً لعلو قدره عند قريش، وارتفاع منزلته، لأن العرب كانت تقول لكل شيء علا، وارتفع: (كعباً).

وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة، وهو يوم (الجمعة)، يعظهم، ويذكرهم بمبعثه ﷺ، ويعلمهم أنه من ولده. وأنشد شعراً منه:

نهار، وليل، كل أرب بحادث   سواء علينا، ليلها، ونهارها
على غفلة، يأتي النبي محمد   فيخبر أخباراً، صدوق خبيرها

ومن شعره أيضاً:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته   حين العشيرة تنفي الحق خذلاناً

وكان بينه، وبين مبعث النبي ﷺ، خمسمائة وستون سنة، كما ذكره الحافظ أبو نعيم، في دلائل النبوة. وهو أول من قال: (أما بعد).

وكان يحث قريشاً على مكارم الأخلاق، وقام فيهم خطيباً، فقال: أما

بعـد فاسمعـوا، وافهموا، وتعلمـوا، واعلموا ليـل داج، ونهار صـاج[1]، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعـلام، لم تخلق عبثاً، فتضربوا عنها صفحاً، والأولون كالآخرين، والذكر والأنثى، والزوج إلى بلى، فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وأوفوا بعهودكم، وثمروا أولادكم، وأموالكم؛ فإنها قوام ثروتكم. فهل رأيتم من هلك رجع؟ أو ميت نشر؟ الدار أمـامكم، واليقين غير مـا تظنـون، دينكم زينون، وعـظموه، وتمسكوا به، وسيخرج منه نبي كريم، بذلك جاء موسى، وعيسى، والله لو كنت ذا سمع، وبصر، ويد ورجل، لتنصبت بها تنصب الجمل، ولرفلت فيها أرفال النحل.

وكانت العرب بعد موته يؤرخون بوفاته إلى عام الفيل، ثم أرخوا بعام الفيل إلى زمن الهجرة، ثم أرخوا بالهجرة إلى اليوم، ولذلك عرف مقدار الزمن الذي بين كعب وبين مبعث النبي ﷺ.

خلف من الولد، ثلاثة، وهم (مرة) المتقدم. و(عـدي) وهو جـد العدويين، ومنهم عمر بن الخطاب، وخارجة بن حذافة، قاضي عمرو بن العاص بمصر، وسعيد بن زيد رضي الله عنهم. و(هصيص)، وإليه تنسب بنو سهم، ومنهم عمرو بن العاص، وكذلك تنسب إليه بنو (جمح)، ومنه أبو محذورة مؤذن رسول الله ﷺ، وأم كعب، (مارية) بنت كعب القضاعية.

وهو ابن:

---

(١) ليل داج: مظلم ثقيل الظلمة. ونهار صاج: الضجيج: صوت الحديد إذا وقع على بعضه، والمعنى: إن النهار يصحو فيه الناس فيحدثون له ضجة، أما الليل، فهو مظلم ليسكن الناس فيه

(٩) لؤى

ويكنى أبا كعب وكان التقدم في بنيه على قبائل قريش، وكان لؤى حليماً، حكيماً، نطق بالحكمة صغيراً، ومن حكمه قال: من رب[1] معروفه لم يحلق، ولم يحمل[2]، وإذا حمل الشيء لم يذكر، وعلى من قد أولى معروفاً وفاء شكره، وعلى المولى تصغيره وطيه.

خلف من الولد أربعة، وهم (كعب)، و (عامر)، وإليه تنسب بنو عامر، ومن بني عامر، سهيل بن عمرو الذي عقد صلح الحديبية مع النبي ﷺ، من قبل قريش، وابن أم مكتوم، مؤذن رسول الله ﷺ، وخليفته على الصلاة. وعبد الله بن سعد، بن أبي السرح رضي الله عنهم. و (سعد)، ومنه أبو الطفيل عامر بن واثلة، وواثلة بن الأصقع، رضي الله عنهما. و (خزيمة)، كان قد تزوج عائدة، بنت المخيس، بن قحافة، فانتسب ولده بها، وأم لؤى سلمى، بنت عمرو الخزاعية. وهو ابن:

(١٠) غالب

مشتق من الغلب، وكنيته أبو تيم. خلف من الولد اثنين، وهما (لؤى) المتقدم، والثاني (تيم) الأردم، ويقال لبني تيم الأردم. بنو الأردم من غير تيم. والأردم الناقص الذقن، وأم غالب ليلى بنت الحارث، بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة الهذلي، وهو ابن:

---

(١) رب: زاد.

(٢) لم يحلق، ولم يحمل: يعني لم ينتقص منه، ولم يظهره بالمن، وإذا حمل عالة أو دية، لم يذكرها. أي لا يمن بها، وعلى من أولى معروفاً أي نال معروفاً وفاء الشكر لصانع المعروف. وعلى صانع المعروف إخفاء معروفه وتصغيره في نفسه وان من مكارم الأخلاق. أن لا يرى صاحب الفضل لنفسه فضلاً على أحد.

(١١) فهر

ومعنى فِهر، الحجارة الطوال[1]، واسم فِهر قريش، سمي بذلك لأنه كان يقرش على خلة حاجة المحتاج فيسدها من ماله. ومعنى التقريش، هو التفتيش وكنيته أبو غالب، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم، أي يتفقدون الحاج، ويسألونهم عن حوائجهم، فيرفدونهم، ويسدون عوزهم. وإليه تنسب قبائل قريش، وما فوقه يسمون كنانة.

وكان فهر، سيد بني كنانة. ولما جاء حسان بن عبد كلال، من اليمن يقود حمير وغيرهم من قبائل اليمن لأخذ أحجار الكعبة إلى اليمن، ليبني بها بيتاً، ويجعل حج الناس إليه، ونزل بنخلة، خرج إلى قتاله فهر، بعد أن جمع قبائل العرب، فقاتله، وأسره، وانهزمت حمير ومن انضم إليها، واستمر حسان في الأسر ثلاث سنين. ثم افتدى نفسه بمال كثير، ولما خرج مات بالطريق بين مكة واليمن، فهابت العرب فِهراً، وعظموه، وعلا أمره.

ومن مواعظه لولده قوله: قليل ما في يديك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك.

خلف أربعة أولاد وهم:

غالب: المتقدم.

الحارث: ومنه أبو عبيدة بن الجراح، وسهل بن بيضاء، الذي قام في نقض الصحيفة التي قام في نقض الصحيفة التي قاطعت قريش بها بني هاشم والمطلب.

---

(١) بل معناه الحجر ملء الكف، قاموس.

محارب: ومنه الضحاك بن قيس المحاربي.

أسد.

وأم فهر، جندلة بنت الحارث، الجرهمي رئيس أهل مكة في ذلك العصر.

وهو ابن:

(١٢) مالك

سمي مالكاً لأنه ملك العرب في زمانه، ويكنى أبا الحارث. ومن حكمه المروية عنه (رب صورة تفارق المخبرة، قد غرت بجمالها، واختبر قبيح فعالها، فاحذر الصورة، واطلب الخبر). ولم يخلف من الولد، غير فهر.

وأمه عاتكة بنت عدوان، من قيس عيلان.

وهو ابن:

(١٣) النَّضْر

واسمه قيس، ولقب بالنضر لنضارته، وحسنه، وجماله، ويكنى أبا مخلد، ولم يخلف من الولد، غير مالك المتقدم.

وأم النضر برة بنت مرة بن أد بن طابخة.

وهو ابن:

(١٤) كنانة

سمي كنانة، لأنه حافظ على أسرار قومه، ويكنى أبا النضر. وكان شيخاً حسناً عظيم القدر، تحج إليه العرب لعلمه وفضله وكان يقول لقومه:

قـد آن خروج نبي من مكـة، يدعى أحمـد، يـدعـو إلى الله وإلى البـر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه، تزدادوا شرفاً وعـزاً إلى عزكم، ولا تعتدوا فتكذبوا ما جاء به، فهو الحق.

وكان من عظيم كرمه يأنف أن يأكل وحده.

خلف أربعة عشر ولداً وهم: (١) النضر المتقدم، ومنه بطون، كما تقـدم، (٢) مالـك، (٣) ملكان، وتنسب إليـه بنو غفـار، ومنهم أبـو ذر الغفاري، رضي الله عنه، (٤) الحارث، (٥) عمرو.

(٦) عبد مناة، ومنه محرز المدلجي، والصعب بن جَثّـامـة[1].

(٧) عـامـر، (٨) سعـد، (٩) غنم، (١٠) عـوف، (١١) مجـربـة، (١٢) جرول، (١٣) عرفان، (١٤) جذال.

وكل هؤلاء بطون كنانة، وديارهم حول مكة.

وأم كنانة، عوانة بنت سعد، من قيس عيلان.

وهو ابن:

(١٥) خزيمة

تصغير خزمة، ويكنى أبا أسد.

خلف من الـولـد خمسـة، وهم (كنـانـة)، المتقـدم، و(ربيعـة)، و(حنظلة)، و(مالك)، و(كلب)، ومن هؤلاء تفرعت بطون بأسمائهم، وما فوقهم يقال لهم: المضرية.

وأم خزيمة سلمى بنت أسلم القضاعية.

وهو ابن:

(١) في الأصل «خثامة» والتصويب عن جمهرة ابن حزم ١٨١.

(١٦) مدركة

واسمه عمرو، وقيل له: مدركة، لأنه أدرك كل عز وفخر كان في آبائه.

وله من الولد خمسة: وهم (خزيمة) المتقدم، و (غالب)، و (قيس)، و (سعد)،

و (هذيل)، ومنه عبد الله بن مسعود، وأبو بكر الهذلي الصبيحي.

وأم مدركة (خندف) المضروب بها المثل في الشرف، والمنعة، واسمها ليلى بنت حلوان القضاعية.

وهو ابن:

(١٧) إلياس

والياس، معناه اليأس ضد الرجاء، ويكنى أبا عمر، وقد عظم أمره عند العرب بعد أبيه، وكانت تدعوه بكبير قومه، وسيد عشيرته، وكانت لا تقضي أمراً دونه، وهو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام. وكان في العرب مثل لقمان الحكيم في قومه.

وله من الولد اثنان، (مدركة)، المتقدم و (قمعة)، ومنه بطن خندف؛ ومن خندف، بنو طابخة، ومن طابخة، بنو مزينة، ومن مزينة، كعب بن زهير بن أبي سلمى، صاحب القصيدة المشهورة، (بانت سعاد)

وأم الياس، الرباب بنت جندة، بن معد.

وهو ابن:

(١٨) مضر

واسمه عمرو، وكنيته أبو الياس، لقب بمضر لأنه كان يضير قلب من

يراه لحسنه وجماله، ويقال له: مضر الحمراء، كان على ملة ابراهيم واسماعيل، عليهما الصلاة والسلام. وكانت لمضر الكثرة، والغلبة بالحجاز على سائر بني عدنان، والرياسة بمكة المكرمة والحرم.

وهو أول من سن الحداء للإبل؛ وكان من أحسن الناس صوتاً.

ومن الحكم المروية عنه قوله: «من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة، فاحملوا أنفسكم على مكروهها فيما يصلحكم، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد»، إلا صبر فواق. والفواق، هو الوقت القصير. ولد له من الولد (الياس)، بعد أن كبر سنه، وآيس من الولد، ولذلك سماه الياس. وهو المتقدم، و(قيس عيلان)، ومنه قبائل هوازن المعروفة بقبائل (عتيبة). ومن هوازن، بنو سعد بن بكر، ومنهم حليمة السعدية، مرضعة النبي ﷺ. ومن سعد بن بكر: بنو كلاب، وقبائل عقيل، وبنو عامر، وصعصعة، وخفاجة، وبنو هلال، وثقيف، ومن ثقيف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وبنو نمير، وباهلة، ومازن، وغطفان، المعروفون بقبائل (مطير). وبنو عبس، وبنو سليم، المعروفون بقبائل حرب، وبنو ذبيان، وبنو خزارة.

وأم مضر سودة بنت عك.

وهو ابن:

(١٩) نزار

واسمه خلدان، ويكنى أبا إياد، وكان له من الولد أربعة وهم:

(مضر)، المتقدم، و (إياد).

ومن إياد قسّ[1] بن ساعدة الإيادي، وهو أول من آمن بالبعث من أهل

(١) في الأصل قيس والتصحيح عن كتب التاريخ والأدب.

الجاهلية، وهو أول من اتكأ على العصا في الخطبة، وأول من قال: أما بعد (في رواية) وأول من كتب من فلان إلى فلان، وهو صاحب الخطبة العظيمة في عكاظ، وهي كما رواها صاحب السيرة الشامية: «أيها الناس اسمعوا وعوا؛ وإذا وعيتم فانتفعوا، أنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، وأشتات بعد أشتات، وآيات بعد آيات، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، وأرض ذات فجاج، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا؟ أقسم قس قسماً حقا، لا حانثاً فيه ولا آثما، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه؛ ونبياً قد حان حينه، وأظلكم أوانه، وأدركتكم آياته، فطوبي لمن آمن بـه فهداه، وويـل لمن خالفه وعصاه، ثم قال: تبـاً لأرباب الغفلة من الأمم الخـالية، والقـرون الماضية، يا معشر أياد أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعواد؟ وأين الفراعنة الشداد؟ أين من بنى فشيد؟ وزخرف ونجد؟ وغره المال والولد؟ أي من بغى وطغى؟ وجمع فأوعى، وقال أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأولاداً؟ وأبعد منكم آمالا؟ وأطول منكم آجالا؟ طحنهم الثرى بكلكله، ومزقهم بتطاوله، أي فتلك عظامهم بالية، وبيوتهم خالية، عمرتها الذئاب العاوية، كلا، بل هو الله المعبود، ليس بوالد ولا مولود.

فهذا قس بن ساعدة الأبادي، قد نظر إلى الحقيقة بنظرة الثـاقب، فكشفها لقومه، شأن المصلحين في أمتهم، وقومهم، وعشيرتهم، وهو لم يدرك النبوة، ولم يطلع على كتاب الله تعالى، ولم يوحِ إليه، بل تبصر في ملكوت السموات والأرض ببصيرته، فكشفت له بعض الحقائق، فما بالك بمن يكابر الحقيقة بعد أن أطلع على الكتاب، والسنة، المبين فيهما حقائق النشوء والإرتقاء، والبعث والنشور، والآيات الدالة على وجود الله تعالى؛ =

والحكمة في بعث الرسل، بما لم يأت بجزء منها قس في خطبته، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

ومن ولد نزار، (أنمار)، و(ربيعة)، ومن ربيعة قبائل عنزة، وبكر ووائل، وتغلب، وبنو أسد، ومنه عبد قيس. وكانت ديارهم تهامة، ثم خرجوا إلى البحرين المعروف الآن بالاحساء، وقد وفدوا على النبي ﷺ، ويسمى وفدهم وفد عبد القيس.

وكان رئيس الوفد المنذر بن عائد، فأسلموا، وصارت لهم مكانة عند النبي ﷺ. وكان فيهم الأشبح العبدي الذي قال له النبي ﷺ: «فيك خصلتان، يحبهما الله: ورسوله، الحلم والإناءة». وكان فيهم الجارود بن المعلى، وبقيت رياسة عبد القيس في بنيه.

ولما حضرت نزاراً الوفاة، قسم ماله على أولاده؛ فأعطى لمضر الإبل، وأعطى لأياد الغنم البرش برعائها، وأعطى لربيعة الخيل الدهم وما أشبهها، وأعطى لأنمار الأرض وما في معناها، ونزار أول من كتب الكتاب العربي. وأم نزار معاقة، بنت جوسم، الجرهمية. وهو ابن:

(٢٠) معد

سمي معداً لأنه كان صاحب حروب، وغارات، على بني إسرائيل. ولم يحارب أحداً إلا انتصر عليه، ورجع ظافراً، وكنيته أبو قضاعة، ومنه بطون عدنان بأجمعها، وأم معد مهدد بنت اللهم، بن حجب، بن جدير. وهو ابن:

(٢١) عدنان

فهذا، منتهى النسب الشريف، الذي رواه البخاري، في صحيحه، واقتصر عليه، وأخرج ابن سعد في الطبقات، من حديث ابن عباس

رضي الله عنهما، قال: أن النبي ﷺ، كان إذا انتسب، لم يتجاوز معد، بن بن عدنان.

ووقع الخلاف بين علماء النسب، فيما بين عدنا، إلى اسماعيل، فروى الحافظ بن عبد البر، حديثاً موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما: بين عدنان واسماعيل، ثلاثون أباً لا يعرفون. وقال غيره: أربعون أباً، فاستبعد ذلك الحافظ بن حجر العسقلاني، بعد أن أورد عموم الخلاف في ذلك في شرحه على البخاري، والذي ترجح عنده ما أخرجه الحاكم، والطبراني من حديث أم سلمة، رضي الله عنها، قالت: عدنان، هو ابن أد، بن زيد، بن بري، بن أعراق الثري. وأعراق الثري، هو إسماعيل.

قال الحافظ ابن حجر ـ عقب هذه الرواية ـ: وهو الأوفق لما ذكرته، عن ابراهيم بن المنذر، عن عبد الله بن عمران. إنتهى. وعليه فلا مانع من سياق نسبه ﷺ إلى إسماعيل. وأما ما ذكر عن الإمام مالك رضي الله عنه، أنه كره رفع النسب الشريف إلى آدم عليه السلام، فذلك محمول على رفعه من إسماعيل إلى آدم، والله أعلم.

وروى أبو جعفر بن حبيب، في تاريخه المحبر، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، قال: كان عدنان، ومعد، وربيعة، ومضر، وخزيمة، وأسد، على ملة ابراهيم، فلا تذكروهما إلا بخير. وروى الزبير بن بكار من وجه آخر مرفوعاً: «لا تسبوا مضر، ولا ربيعة، فإنهما كانا مسلمين». كل ذلك ذكره الحافظ ابن حجر، في فتح الباري، وكان عدنان في زمن موسى عليه السلام.

نسبه من جهة أمه

فهو ﷺ محمد، بن آمنة الزهرية، بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مرة، يجتمع نسب أبيه، وأمه، في كلاب.

زواج أبيه على أمه

كان عبد الله بن عبد المطلب، أحب أبناء عبد المطلب إليه، وكان عبد المطلب، قد تزوج هالة، بنت وهيب، بن عبد مناف، بن زهرة، أم حمزة، بن عبد المطلب، رضي الله عنه، عم النبي ﷺ.

فلما بلغ عبد الله ثلاثين سنة من عمره، خرج به عبد المطلب، حتى أتى به وهب بن عبد مناف، بن زهرة، في شعب أبي طالب، عند الجمرة في منى: وهو يومئذ سيد بني زهرة شرفاً، ونسباً، فخطب لابنه عبد الله، آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً، وموضعاً، فزوجه إياها، وكان ذلك يوم الإثنين في شهر رجب، فحملت برسول الله ﷺ يوم دخوله بها، وكانت قريش في جدب شديد، وضيق عظيم، فاخضرت الأرض، وحملت الأشجار، وأتاهم الرغد، من كل جانب، فسميت تلك السنة، سنة الفتح، والإبتهاج، وطوبى الطيب، والحسنى، والخير.

وفاة عبد الله بن عبد المطلب

كان عبد الله مع قريش في تجارة بالشام، فرجع ضعيفاً معهم، ولما وصل المدينة المنورة، تخلف عند أخوال أبيه، بنى عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، ثم توفي، ودفن في دار التابعة، وذلك في شهر شعبان، قبل حادثة الفيل بأربعة أشهر، وكان قد تم من حمله ﷺ شهران.

ورد ته ﷺ

ولما تم حمله ﷺ، في بطن أمه تسعة أشهر قمرية، أخذ أمه المخاض، فوضعته ﷺ ليلة الإثنين، ثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل، قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة، وذلك يوافق من الشهور الشمسية

٢٣ أبريل سنة ٥٧١ من ميلاد عيسى عليه السلام، ويوافق من الفصول، برج الحمل.

ولم تشك أمه من حمله ما يعرض لذوات الحمل، من النساء، ورأت في خلال حمله ﷺ، من البشائر، والسرائر، ما لا يحصى. وتولت ولادته الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث، بن زهرة بن كلاب، وهي أم عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، وهي من المهاجرات الأول. وكانت ولادته في شعب أبي طالب بمكة[1]. ولما وضعته أمه، أرسلت إلى جده عبد المطلب، وأعلمته بولادته، فأتاه عبد المطلب فأخذه، ودخل به الكعبة، وقام يدعو الله تعالى، ويشكره، على ما أعطاه.

ثم خرج به إلى أمه، وفي اليوم السابع، ختنه جده عبد المطلب، وصنع له وليمة، وسماه محمداً، كما أورد ذلك الوليد بن مسلم، بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وحكماه ابن عبد البر في التمهيد وغيره: وذكر البيهقي في الدلائل: أن عبد المطلب لما سمي النبي ﷺ (محمداً)، قالت له قريش: لم رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء، وخلقه في الأرض.

وذكر الحافظ ابن حجر العسلاني، في فتح الباري، وفي الإصابة: أنه أحصى من سمى محمداً في الجاهلية، قبل النبي ﷺ، ستة عشر، وذلك أن العرب لكثرة أسفارهم إلى الشام، سمعوا من الكهان، والأحبار، أن نبياً سيبعث في هذا الزمان، يسمى محمداً، فرجا كل من سمع ذلك،

---

(١) ويؤسفنا أن البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺ في شعب أبي طالب بمكة المكرمه قد هدم مع ما هدم من آثار النبوة الخالدة هدمه السعوديون المتزمتون. فلعل الحكومة تعيد بناءه حرصاً عى آثار النبوة.

أن يكون المبعوث ابنه، فسموا أبناءهم محمدا، وهذه أسماء من سموا محمداً.

(١) محمد بن عدي، بن ربيعة، بن سوءة التميمي لسعدي. (٢) محمد، بن سفيان، بن مجاشع التميمي. (٣) محمد بن يزيد، بن عمرو، بن ربيعة التميمي. (٤) محمد، بن عقبة، بن أحيحة. (٥) محمد، بن أسامة، بن مالك، بن حبيب، بن العنبر التميم. (٦) محمد، بن أحيحة، بن الحلاج. (٧) محمد، بن البراء، بن طريف بن عشورة بن عامر، بن كنانة. (٨) محمد، بن اليحمد الأزدي. (٩) محمد، بن خولى الهمداني. (١٠) محمد، بن حمران، بن أبي حمران، واسمه ربيعة، بن مالك الجعفي، المعروف بالشويعر. (١٢) محمد، بن خزاعي، بن علقمة، بن حرابة السلمي، من ذكوان. (١٣) محمد، بن عمرو، بن مغفل الغفاري. (١٤) محمد، بن الحارث، بن خريج، بن حويص الحارثي. (١٥) محمد، لعقيمي. (١٦) محمد الأسدي.

أما (١) محمد بن عدي، فقد رآه النبي ﷺ، وأسلم، وصار صحابياً. وأما (١٣) محمد بن عمرو الغفاري، و(١٤) محمد بن الحارث الحارثي، فقد أسلما في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأما (٦) محمد بن أحيحة بن الحلاج، ذكره عبدان في الصحابة، وأنكره ابن الأثير. وأما (٧) محمد بن البراء بن طريف، عده الحافظ ابن حجر في القسم الرابع، من الإصابة، وباقي المحمديين. ولم يثبت لهم صحبة، غير محمد بن عدي المتقدم، واختلف في إسلام الباقين.

وأما من تسمى بمحمد، لغير هذا الغرض، من الصحابة، وممن ولد في العصر النبوي، فأكثر من أن يحصر، وإنما أتيت هنا بأسماء من سماهم آباؤهم رجاء أن يكون أحدهم، هو النبي المنتظر لا غير.

مرضعاته ﷺ

أول من أرضعته ، بعد أمه، ثويبة، عتيقة أبي لهب، أرضعته مع عمه حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وأبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال المخزومي، أحد السابقين الأولي، واختلف في إسلامها، وذكرها الحافظ ابن حجر، في القسم الأول من الصحابيات، في الإصابة.

ثم أرضعته حليمة، بنت أبي ذؤيب، عبد الله بن الحارث، من بني سعد، بن بكر، بن هوازن، ثم من بني قيس عيلان بن مضر. وذلك أنها قدمت مكة، مع نسوة من قومها، يلتمسون الرضعاء، في سنة شهباء، ومعها صبي - وذلك عادة العرب، لما يرجونه من المعروف والبر من أهليهم - وكان أهل مكة، يسترضعون أولادهم فيهم، لفصاحتهم، وليجمعوا للولد بين صحة البادية، وفصاحتها، وآداب الحضارة وملاحتها، فعرض رسول الله ﷺ عليهم، فأبينه، لكونه يتيماً، وما بقيت امرأة من صواحبها إلا أخذت رضيعاً، غيرها.

فلما لم تجد غيره أخذته، مدرجاً في ثوب صوف أبيض، فأرضعته ثديها الأيمن، فشرب منه، ثم حولته إلى الأيسر، فأبى، وكانت تلك حالته، فذهبت به إلى منازلهم، في بني سعد، وظهر لهم من اليمن والبركة، أثناء إقامته عندهم، ومكث ﷺ عند حليمة السعدية، إلى أن أتم مدة الرضاع. وأول من تكلم، قال: «الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثير، وسبحان الله، بكرة وأصيلا». وهذا إلهام من الله تعالى.

ثم لما ترعرع، كان يخرج إلى الصبيان، فيجدهم يلعبون، فيتجنبهم، وكانت حليمة لا تدعه يذهب بعيداً، فغفلت عنه مرة، فخرج مع أخته من الرضاع (الشفاء) في الظهيرة إلى البهم، فخرجت حليمة تطلبه، فوجدته مع أخته، فقالت: أفي هذا الحر تخرجا؟ قالت أخته الشفاء: يا

أماه، ما وجد أخي حراً، رأيت الغمامة تظله، ثم قدمت به حليمة، وزوجها الحارث بن عبد العزي، بن رفاعة السعدي، على أمه، وهما أحرص شيء على مكثه عندهما، لما رأيا من بركته، فاستأذنا أمه في بقائه عندهما، في بني سعد، فأعطته لهما، فرجعا به وبعد رجوعه ببضعة أشهر، خرج مع أخيه من الرضاع، في بهم لهم وراء البيوت، فجاءه رجلان، عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، وشقا بطنه، واستخرجا منه شيئاً، وطرحاه، ثم رداه كما كان، وختما بين كتفيه بخاتم النبوة، فذهب أخوه إلى أمه وزوجها، وأخبرهما الخبر فخرجت حليمة، وزوجها نحوه فوجداه قائماً ممتقع الوجه، فالتزماه ـ أمه وأبوه ـ وقالا له: مالك يا بني؟ فأخبرهما بالخبر فاحتملاه، وقدما به على أمه، فقالت لهما آمنة: ما أقدمكما به يا ظئر؟ وقد كنتما حريصين عليه، وعلى مكثه عندكما، فقالت حليمة: نعم، قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته عليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك، فأخبرتها الخبر، فقالت لها آمنة: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قالت: نعم، قالت آمنة: كلا، والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لابني لشأناً. وذلك بعد ولادته بخمس سنين.

اخوانه من الرضاع

اخوانه من الرضاع، سبعة: (١) حمزة بن عبد المطلب، رضع معه من ثوبية، وستة رضعوا معه من حليمة السعدية، وهم: (٢) عبد الله بن الحارث، (٣) أنيسة بنت الحارث، (٤) جذامة الشماء بنت الحارث، وهي التي أتي بها النبي ﷺ في أسرى حنين، فبسط لها رداءه، ووهب لها أسرى قومها. والعواتك من سليم، وهن: (٥) عاتكة بنت هلال، (٦) عاتكة بنت الأوقص بن هلال، (٧) عاتكة بنت فائح.

أعمامه وعماته

أعمامه ﷺ، إثنا عشر، أكبرهم: (١) الحارث، (٢) أبو طالب، (٣) الزبير، (٤) ضرار، (٥) حجل، واسمه المغيرة، (٦) المقوم، (٧) عبد الكعبة، (٨) أبو لهب، واسمه عبد العزىٰ، (٩) قثم، (١٠) الغيداق، (١١) العباس، (١٢) حمزة.

وعماته ﷺ ست وهن: (١) عاتكة، (٢) بضاعة، وهي أم حكيم، (٣) برة، (٤) أميمة، (٥) أروى، (٦) صفية.

وكان عبد الله والد النبي ﷺ، وأبو طالب، واسمه عبد مناف، والمقوم، وعبد الكعبة، والزبير، وبضاعة، وأروى، وبرة، وعاتكة. إخوة أشقاء، وأمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم.

وكان حمزة، وحجل، وصفية، أشقاء، وأمهم هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة.

وكان العباس وضرار وقثم أشقاء، وأمهم نتيلة بنت جناب بن كليب بن النمر بن قاسط.

وكان الحارث منفرداً، وأمه صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب بن حبيب، بن سوأة بن عامر بن مصعب.

وكان أبو لهب والغيداق شقيقين، وأمهما لبنى بنت هاجر بن خزاعة. وكان عبد الله والد النبي ﷺ هو عاشر أولاد عبد المطلب، ثم ولد بعده العباس، ثم حمزة، ثم حجل.

فمجموع أولاد عبد المطلب، ثلاثة عشرة ولداً، وست إناث، وهذا أصح ما ورد في ذلك، واعتمده الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب.

وفاة أمه آمنة الزهرية

لما بلغ ﷺ ست سنين، خرجت به أمه آمنة إلى أخوال جده عبد المطلب، وهم بنو عدي بن النجار بالمدينة تزورهم، ومعها أم أيمن بركة الحبشية، التي ورثها رسول الله ﷺ من أبيه، فنزلت في دار التابعة، فأقامت به عندهم شهراً، وكان قوم من اليهود ينظرون إليه، ويقولون: هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته. فسمعت قولهم أم أيمن، فأخبرت أمه بذلك، فرجعت به إلى مكة.

فلما كانت بالأبواء[1] توفيت أمه آمنة الزهرية. فقدمت به أم أيمن مكة، بعد موت أمه بخمسة أيام، وحضنته بعد أمه، وكانت أم أيمن (مربيته)، وكان ﷺ يقول لها: أنت أمي بعد أمي.

كفالة جده عبد المطلب

ثم بعد وفاة أمه آمنة، كفله ﷺ جده عبد المطلب، وكان يحبه حباً شديداً، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، لا يجلس عليه أحد من أهل بيته، ولا من أشراف قريش، إجلالاً لعبد المطلب، فكان رسول الله ﷺ، إذا أتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب: دعوا ابني يجلس، فوالله إن له لشأنا، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله، ولا بعده.

وقال قوم من بني مدلج - وهم القافة العراف بالآثار والعلامات - لعبد المطلب: احتفظ به، فإنا لم نرى قدماً أشبه بالقم التي في مقام

---

(١) الأبواء: مكان منخفض، تجتمع فيه السيول، وهو بين مكة والمدينة وبه قبر السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ. وكان القبر معروفاً. وما أظنه إلا هدم فيما هدم من القبور.

ابراهيم، منه. وكان عبد المطلب: مثلك أيها الملك سر، وبر، فما هو؟ فداك أهل الوبر، زمراً لما سمعه من العراف، والكهان، وغيرهم.

وكان عبد المطلب قد وفد على الملك سيف بن زي يزن الحميري: ملك اليمن من قريش، فاختلى به الملك سيف بن ذي يزن، وقال له: يا عبد المطلب، إني مفضٍ إليك من سرَ علمي أمراً، لو غيرك يكون لم أبح له به، ولكن رأيتك معدنا فأطلعتك طلعه، فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل فيه، إني أجد الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاء للناس عامة، ولرهطك كافة، ولك خاصة.

فقال عبد المطلب، مثلك أيها الملك سر، وبر، فما هو؟ فداك أهل الوبر، زمراً بعد زمر. قال: إذا ولد بتهامة، غلام بين كتفيه شامة، كانت الإمامة، ولكم به الزعامة، إلى يوم القيامة، فقال عبد المطلب: أيها الملك، أبت بخير ما آب بمثله وافد قوم، ولولا هيبة الملك، واجلاله، واعظامه، لسألته من مساره إياي بما ازداد به سرورا. فقالَ الملك: هذا حينه الذي يولد فيه، أو قد ولد اسمه محمد يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، قد ولدناه مراراً، والله باعثه جهاراً؛ وجاعل له منا أنصارا، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستفتح بهم كرائم الأرض، يعبد الرحمن، ويدحض الشيطان، ويخمد النيران، ويكسر الأوثان، قوله فصل، وحكمه عدل؛ يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: جد جدك؛ ودام ملكك؛ وعلا كعبك، فهل الملك ساري بإفصاح، فقد وضح لي بعض الإيضاح. قال الملك: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النقب؛ إنك لجده يا عبد المطلب، غير كذب، فخر عبد المطلب ساجداً لله تعالى.

فقال الملك: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا كعبك؛ فهل أحسبت بشيء مما ذكرت لك؟ قال: نعم، أيها الملك، أنه كان لي ابن وكنت به معجباً، وعليه رقيقاً، وإني زوجته كريمة من كرائم قومي، آمنة بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، فجاء بغلام فسميته محمداً؛ مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

فقال الملك: إن الذي قلت لك، كما قلت، فاحتفظ على ابنك واحذر عليه من اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطو ما ذكرته لك عن هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تداخلهم النفاسة، من أن تكون له الرياسة، فينصبون له الحبائل، ويبغون له الغوائل، وهم فاعلون ذلك، أو أبناؤهم من غير شك، ولولا أعلم أن الموت مجتاحي، قبل مبعثه لسرت بخيلي، ورجلي، حتى أصير بيثرب دار ملكه، واستحكام أمره، وأجل نصرته، وموضع قبره، ولولا أني أقيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنة أمره، وأعليت على أسنان العرب كعبه، ولكن سأصرف ذلك إليك.

ثم صار على ذلك عبد المطلب، من التحفظ والكرامة برسول الله ﷺ ووصاية أولاده عليه، إلى أن أدركته الوفاة. فأوصى عليه عمه أبا طالب شقيق أبيه، وكان مرض عبد المطلب من إصابة برد شديد، فعولج ولم يفد العلاج.

وفاة عبد المطلب

لما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين، أدركت عبد المطلب الوفاة، فجمع بناته الست وهن: صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء، وأميمة وأروى فقال لهن: ابكين عليَّ حتى أسمع ما تقلن، قبل موتي، فقالت (صفية) تبكيه:

أرقت لصوت نائحة بليل ... على رجل بقارعة الصعيد[1]
ففاضت عند ذلكم دموعي ... على خدي، كمنحدر الفريد[2]
على رجل كريم، غير وغل ... له الفضل المبين على العبيد[3]
على الفياض، شيبة ذي المعالي ... أبيك الخير، وارث كل جود
صدوق في المواطن غير نكس ... ولا شخت المقام، ولا سنيد[4]
طويل الباع، أروع شيظمي ... مطاع في عشيرته، حميد[5]
رفيع البيت، أبلج ذي فضول ... وغيث الناس، في الزمن الحرود
كريم الجد، ليس بذي وصوم ... يروق على المسود، والمسود
عظيم الحلم، من نفر كرام ... خضارمة، ملاوثة، أسود[6]
فلو خلد امرؤ لقديم مجد ... ولكن لا سبيل إلى الخلود
لكان مخلداً أخرى الليالي ... لفضل المجد، والحسب التليد

وقالت (برة) بنت عبد المطلب تبكيه:

أعيني جودا بدمع درر ... على طيب الخيم، والمعتصر
على ماجد الجد، واري الزناد ... جميل المحيا، عظيم الخطر
على شيبة الحمد، ذي المكرما ... ت، وذي المجد والعز والمفتخر

---

(١) الصعيد: الطريق.

(٢) كمنحدر الفريد: أي كمنحدر اللؤلؤ المنفصل من العقد.

(٣) الوغل بسكون الغين المعجمة: الضعيف الدنيء.

(٤) نكس بكسر النون وسكون الكاف: الرجل المقصر عن غاية النجدة والكرم. و«الشخت» الرجل الدنيء الخلق، القليل العطاء. و«السنيد»: الدَّعي.

(٥) الأروع: الشهم الذكي، وكل من يعجبك بحسنه وشجاعته. والشيظمي: الطويل الجسم، القوي العضل. أو الفصيح في قوله.

(٦) خضارمة: مفردة خضرم بكسر الخاء ومعناه كثير العطاء. وملاوثة: مفرده: ملوث بكسر الميم وسكون اللام وفتح الواو ومعناه السيد الشريف الذي يلاذ به في الشدائد.

وذي الحلم والفضـل في النائبـا ... ت، كثيـر المكارم جم الفجـر[1]
لـه فضـل مجـد على قـومـه ... منيـر، يلوح كضـوء القمـر
أتتـه المنايـا، فلم تـشـوه ... بصـرف الليـالي وريث القمـر

وقالت (عاتكة) بنت عبد المطلب تبكيه:

أعـينـي جـودا، ولا تـبـخـلا ... بـدمعكـمـا بعـد نـوم النيـام
أعيني، واسحنفـرا، واسكبـا ... وشـوبـا بكـاءكمـا بـالتـدام[2]
أعيني، واستخـرطـا، واسجـمـا ... على رجـل غيـر نكس، كهـام[3]
على الجحفـل الغمر في النـائبـا ... ت كـريم المساعي، وفي الذمـام
على شيبـة الحمـد، وارى الـزنـا ... د، وذي مصـدق بعـد ثبت المقـام
وسيف لـدى الحرب صمصـامـة ... ومـردى المخاصم، عنـد الخصـام
وسهـل الخليقـة، طلق اليـديـن ... وفيّ لـوعـد، صميم، لـهـام[4]
تـبـنـك فـي بـاذخ بـيـتـه ... رفيـع الـذؤابـة، صعب المـرام[5]

وقالت أم (حكيم البيضاء) بنت عبد المطلب تبكيه:

ألا يـا عيـن جـودي واستـهـلي ... وبكي ذا النـدى، والمكـرمـات
ألا يـا عين ويحـك أسعـفيـنـي ... بـدمـع مـن دمـوع هـاطـلات
وبكي خيـر من ركـب المـطايـا ... أبـاك الخيـر، تيـار الفـرات
طـويـل البـاع، شيبـة ذي المعـالي ... كـريم الخيم، محمـود الهبـات

---

(١) الفجَر بفتح الفاء والجيم: كثير العطاء جوداً وكرماً.
(٢) اسحنفرا: لا تكفا ولا تقفا عن البكاء.
(٣) نكس تقدم معناه، والكهام: البطيء، والمعنى أنه غير نكس وغير بطيء في فعل ما يهب المجد والخلود.
(٤) لهام: بضم اللام العظيم.
(٥) تبنك أقام في عز، والباذخ: المرتفع ارتفاعاً عالياً. والذؤابة: من كل شيء أعلاه، ويقال: فلان ذؤابة قومه بمعنى أعلاهم قدراً.

وصـولاً لـلقـرابـة، هـبـرزيـا ... وغيثـاً في السنين المـمحـلات[٥]

ولـيثـا حين تـشتجـر العـوالي ... تـروق لـه عيـون النـاظـرات

عقيـل بني كنـانـة، والمـرجى ... إذا مـا الـدهـر أقبـل بـالهنـات

ومفـزعهـا، إذا مـا هـاج هيـج ... بـداهيـة، وخصم المعضـلات

فـبكـيـه، ولا تـسمـى بـحـزن ... وبـكى مـا بقـيت البـاكيـات

وقالت (أميمة) بنت عبد المطلب تبكيه:

ألا هلك الراعي العشيرة، ذو الفقد ... وساقي الحجيج، والمحامي عن المجد

ومن يؤلف الضيف الغريب بيوتـه ... إذا مـا سماء النـاس تبخل بـالرعـد

كسبت وليـداً خير مـا يكسب الفتى ... فلم تنفـك تـزداد يـا شيبـة الحمـد

أبـو الحارث الفيـاض خلى مكـانـه ... فـلا تبعـدن فكـل حي إلى بعـد

فـإني لبـاك مـا بقيت، ومـوجـع ... وكـان له أهـلاً لما كـان من وجـد[٢]

سقـاك ولي الناس في القبـر ممطراً ... فسـوف أبكيه، وإن كـان في اللحد

فقـد كـان زينـاً للعشيـرة كلهـا ... وكـان حميداً حيثمـا كان من حمـد

وقالت (أروى) بنت عبد المطلب تبكيه:

بكت عينـي، وحق لـهـا البـكـاء ... على سمـح، سجيتـه الحيـاء

على سهـل الخليـقـة، أبـطحي ... كـريـم الخيم، نيتـه العـلاء

على الفيـاض، شيبـة ذي المعـالي ... أبيـك الخيـر، ليس لـه كـفـاء

---

(١) الهبرزي بكسر الهاء وسكون الباء وفتح الراء: الجميل الوسيم من كل شيء؛ والأسوار من أسورة الفرس يقال له: الهبرزي.

(٢) يلاحظ أن القائلة هي أميمة بنت عبد المطلب والذي يجب أن يقال: (فإني لباكية) ولكن جاء في البيت (فإني لباك) وهذا يدل على أن القائل رجل وليس امرأة. هذه الملاحظة الضئيلة تجعلنا نشك في الرواية من أساسها. وهي أن عبد المطلب قال لبناته: ابكين عليَّ حتى أسمع ما تقلن قبل موتي. ونحن لا ننفي أن بناته بكينه بالشعر كما هي عادة العرب، ولكن الرواية على هذا النمط تجعلنا نرتـاب في صحتها.

طـويـل البـاع، أملس، شيـظمى | أغـر، كـأن غـرتـه ضـيـاء[1]
أقب الكشـح، أروع، ذي فضـول | لـه المجـد المقـدم، والسنـاء
أبـى الـضـيـم، أبـلج هـبـرزي | قـديم المجـد، ليس بـه خفـاء[2]
ومعقـل مـالـك، وربـيـع فهـر | وفـاضلهـا، إذا التمس القـضـاء
وكـان هـو الفتى كـرمـاً، وجـوداً | وبـأسـاً، حين تنسكب الـدمـاء
إذا هـاب الكمـاة المـوت حتى | كـان قـلوب أكـثـرهـم هـواء
مضى قـدمـاً، بـزي ربـذ خشيب | عـليـه حين تبـصـره البـهـاء[3]

فـأشار عبـد المطلب إليهن بـرأسه وقـد أصمت: إن هكذا فـابكينني. وتـوفي وعمره مـائة وأبعـون سنـة، ودفن بـالحجـون. قـالت أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يبكي خلف سرير جده، ذكره الحافظ السخاوي.

كفالة عمه أبي طالب

بعد وفاة جده ﷺ عبد المطلب ـ حسب وصايته ـ كفله عمه أبو طالب، واسمـه عبد منـاف ـ وكان يخصـه حباً شـديداً، أكثـر من أولاده، فكـان ينـام بجنبـه، وكان يخصـه بأحسن الـطعام ويعـزه، ويكرمـه، ويبـالـغ في تبجيله، ويقدمه على كل شيء.

ولما قحطت قريش، أتت أبا طالب فقالت له: قم فاستسقِ، فخرج أبو طـالب، ومعه رسـول الله ﷺ، حتى أتى الكعبة فـألصق ظهـر رسـول الله ﷺ

---

(١) شيظمي: قد تقدم تفسيرها.
(٢) هبرزي: قد تقدم تفسيرها أيضاً.
(٣) ربذ: بالذال المعجمة السريع، وخشيب كامير: السيف الصقيل. والمعنى أنه في ساعة الروع يقابل الروع سريعاً وبدون تردد ويهوي عليه كما يهوي السيف الصقيل في يد الشجاع القوي على عدوه.

بالكعبة، فلاذ بأصبعه، فأقبلت السحب من كـل الجهات، وسقـوا، وخصبت الأرض من بعد جدبها، ولذلك قال أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمــام بـوجهــه ثمـال اليتـامى عصمــة لـلأرامــل

الرحلة الأولى إلى الشام

كانت قريش ترحل كل سنة رحلتين، رحلة الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ، ورحلة الصيف إلى الشام ـ كما تقدم ـ فيمتارون، ويتجرون، حيث أن الحرم بوادٍ غير ذي زرع، ولم تكن لقريش حرفة يعيشـون منها غيـر التجارة.

فلما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة، خرج عمه أبو طالب إلى الشام في تجارة قريش، وأخذ معه رسول الله ﷺ، حرصاً عليه، فلما بلغ من سفره (بصرى)[1] بأرض الشام، رآه (بحيرا) الراهب، واسمه جرجيس، وهو من عبد القيس، كان حبراً من يهود (تيماء)[2] فعرف النبي ﷺ بصفته الموضحة في كتبهم، فأضاف قريشاً، وكثيراً ما يمرون به قبل ذلك، ولا يكلمهم فقال لهم: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضـروا كلكم، صغيركم وكبيـركم، وعبدكم، وحـركم، فقال لـه رجل منهم: والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟ فقال له بحيرا: صدقت، وقد أحببت أن أكرمكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحالهم، فلما نظر بحيرا فى القوم ولم ير تلك الصفـة، قال: يـا معشر

---

(١) بصرى بضم الباء وألف مقصورة: قصبة حوران.

(٢) تيماء بفتح التاء: أرض واسعة في وادي القرى من أراضي الحجاز مما يلي الشام.

قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامي، فقام أحد القوم، وأحضر النبي ﷺ. فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً، وسأله عن أشياء فأخبره ﷺ عما سأله عنه، فقال بحيرا لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات، وأمه حبلى به، قال: صدقت، فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً. قال: صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً، فإن كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، لما نجده في كتبنا ورويناه عن آبائنا، واعلم أني قد أديت لك النصيحة، فأسرع به إلى بلده.

فبينما هم كذلك، إذ أقبل نفر من أهل الكتاب وهم: (زريرا) و (تماما) و (دريسا) فرأوا من رسول الله ﷺ ما رأى بحيرا، فأرادوا به سوءاً فردهم بحيرا، وذكرهم الله، وما يجدونه في الكتاب من ذكره وصفاته، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا لم يخلصوا إليه، فعند ذلك تركوه، وانصرفوا عنه. فرده أبو طالب إلى مكة. فازدادت شفقته به، واشتد تحفظه عليه. وأنشد أبو طالب في ذلك شعراً منه:

فما رجعوا، حتى رأوا من محمد ... أحاديث، تجلو غم كل فؤاد
وحتى رأوا أحبار كل مدينة ... سجوداً له، من عصبة وفراد
زريراً، وتماما، وقد شاهدا ... دريساً، وهموا كلهم بفساد
فقال لهم قولاً، بحيرا، وأيقنوا ... له بعد تكذيب، وطول بعاد
كما قال للرهط الذين تهودوا ... وجاهدهم في الله كل جهاد
فقال، ولم يترك له النصح رده ... فإن له أرصاد كل مضاد
فإني أخاف الحاسدين، وأنه ... لفي الكتب، مكتوب بكل مداد

حرب الفجار

سميت حرب الفجار، لوقوعها في الشهر الحرام، حيث كانت العرب تحترم الشهور الحرم، احتراماً دينياً، حتى إن الرجل إذا رأى قاتل أبيه أو ابنه في الأشهر الحرام، لم يتعرضه بسوء.

وحرب الفجار، وقعت بين العرب في الأشهر الحرم، أربع مرات:

المرة الأولى: كان عمر النبي ﷺ، عشر سنين، وسبب وقوعها أن (بدر) بن معشر الغفاري، كان له مجلس بسوق عكاظ، يجلس فيه ويفتخر على الناس، فبسط يوماً رجله وقال: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف، فوثب عليه رجل، فضربه بالسيف على ركبته، فشجها فاقتتلوا.

والمرة الثانية: بينما كانت امرأة من بني عامر، جالسة بسوق عكاظ، فأطاف بها شاب من قريش، من بني كنانة، فسألها أن تكشف عن وجهها فأبت، فجلس خلفها، وهي لا تشعر، وعقد ذيلها بشوكة، فلما قامت انكشف دبرها، فضحك الناس، فنادت المرأة يا آل عامر، فثارت بالسلاح، ونادى الشاب يا بني كنانة، فاقتتلوا.

والمرة الثالثة: كان لرجل من بني عامر، دين على رجل من بني كنانة، فمطله فجرت بينهما مخاصمة، فاقتتل الحيان، فتحمل الدين عبد الله بن جدعان في ماله.

والمرة الرابعة: وقعت في اليوم الرابع عشر من شهر شوال، وكان قد بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة، وسببها أن عروة الرحال من هوازن، أجاز لطيمة للنعمان بن المنذر، وكان يرسل تلك العير بتجارة لتباع في سوق عكاظ، ويشتري له بثمنها أدم الطائف، وكان يترك تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب، واللطيمة، هي الجمال التي تحمل العطر

والبز، وغيرها لا تسمى لطيمة. فلما جهز اللطيمة، كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض بن قيس أحد بني ضمرة الكناني؛ وعروة الرحال بن عتبة من هوازن، فقال البراض: أنا أجيرها على بني كنانة، فقال النعمان: ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد، وتهامة. فقال عروة الرحال: أنا أجيرها لك. فقال له البراض: أتجيرها على كنانة؟ فقال: نعم، وعلى أهل الشيح والقيصوم، وشتم البراض. فخرج عروة الرحال مسافراً، وخرج البراض خلفه يطلب غفلته حتى إذا كان بتيمن[1] ذي ظلال بالعالية، غفل عروة فوثب عليه البراض، فقتله، وأنشأ البراض في ذلك:

وداهية تهم الناس قبلي	شددت لها بني بكر ضلوعي
هدمت بها بيوت بني كلاب	وأرضعت الموالي بالضروع
رفعت له بذي ظلال كفى	فخرًّ يميد كالجذع الصريع

وقع ذلك في الشهر الحرام، فأتى آت كنانة وهم بعكاظ مع هوازن فأخبرهم الخبر، فانطلقوا وهوازن لا تشعر، ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم وأدركوهم قبيل دخول الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم، وعاونت قريش كنانة، ومكث القتال بينهم ستة أيام، ولما اشتدت الحرب بينهم، قيد أمية، وحرب (ابنا أمية بن عبد شمس) وأبو سفيان بن حرب، أنفسهم كيلا يفروا، وكان أبو طالب يحضر أيام الفجار، ومعه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يساعد أعمامه بالنبل، وطعن أبا براء ملاعب الأسنة، وكان رئيس بني قيس، وحامل رايتهم، في تلك الحرب ثم تواعدوا للعام المقبل بعكاظ.

فلما كان العام المقبل جاءوا للوعد وكان أمر قريش، وكنانة إلى

---

(١) تيمن ذو ظلال بالظاء المعجمة قيل: إنه واد إلى جنب فدك، والصحيح عند ياقوت أنه بعالية نجد.

عبد الله بن جدعان، فخرج عتبة بن ربيعة بن عبد شمس على بعير بين الصفين، ينادي يا معشر مضر، علام تفانون؟ قالت له هوازن: ما تدعو إليه؟ قال: الصلح، الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم، وتعفوا عن دمائنا. قالوا: وكيف؟ قال: ندفع لكم رهناً منا إلى أن نوفي لكم ذلك. قالوا: ومن لنا بهذا؟ قال: أنا. قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. فرضيت به هوازن، وكنانة، وقريش. ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام، وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فلما رأت هوازن في أيديهم الرهن، عفوا عن الدماء، وأطلقوهم، وبذلك انقضت حرب الفجار.

حلف الفضول

وقع حلف الفضول في شهر ذي القعدة سنة أربع عشرة من ولادته ﷺ بعد نهاية حرب الفجار.

وسبب ذلك أن رجلاً من زبيد، قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فامتنع من دفع قيمتها له، فذهب الزبيدي إلى الأحلاف من قريش: عبد الدار، ومخزوم وجمح وسهل وعدي بن كعب، والتجأ بهم، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، وانتهروه، فلما رأى الزبيدي الشر صعد على أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة، نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث، لم يقضِ عمرته ... يا للرجال وبين الحجر، والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر، الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ فأجابه بنو هاشم، وبنو زهرة، وبنو أسد بن عبد العزى؛ واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان

التيمي لشرفه، وكبر سنه، وكان أكرم رجل في قريش، وكان يذبح كل يوم في بيته جزوراً، وينادي مناديه: من أراد الشحم واللحم، فعليه بدار ابن جدعان، وكان يصنع لهم الفالوذج، وهو أفخر الحلوى في ذلك العصر، وحضر مائدته رسول الله ﷺ وهو غلام، فتحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها ـ وهو ما يؤخذ ظلماً ـ وأن لا يقروا ظالماً على ظلمه (ما بل بحر صوفة، وما رسا حراء وثبير مكانيهما) وحراء، وثبير جبلان بأعلى مكة[1]، وهذا العهد قصدهم منه التأبيد.

وكان رسول الله ﷺ معهم في هذا الحلف. وقال ﷺ: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دعي به في الإسلام لأجبت». ثم مشوا إلى العاص بن وائل وانتزعوا منه سلعة الزبيدي، ودفعوها إليه، وقال الزبير بن عبد المطلب عم لنبي ﷺ في ذلك:

إن الفضول تحالفوا، وتعاقدوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا، وتواثقوا فالجار، والمعتر، فيهم سالم

فسمت قريش ذلك الحلف، حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، وبقي حلف الفضول إلى البعثة، فإذا وقع ظلم على أحد، قام المتحالفون بنصرة المظلوم.

قال ابن الأثير في «النهاية»: حلف الفضول سمي به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف، والأخذ للضعيف من القوي، والغريب من القاطن، قام به رجال من جرهم، كلهم يسمى الفضل، منهم: الفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة».

---

(١) حراء بكسر الحاء: الجبل الذي فيه الغار الذي كان يتعبد فيه رسول الله ﷺ، ويسمى ـ اليوم ـ جبل النور، وهو بأعلى مكة المكرمة على يسار الصاعد إلى منى، أما ثبير فهو الجبل الذي يمتد من جمرة العقبة بمنى إلى نهاية منى.

سفره ﷺ بتجارة لخديجة بنت خويلد

لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة من عمره، قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان، وألحت علينا سنون منكرة شديدة الجدب، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد، تبعث رجلاً من قومك في عيرها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها، لأسرعت إليك، وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهودها، ولكن لا تجد لك من ذلك بداً. فقال له رسول الله ﷺ: «فلعلها أن ترسل إلي في ذلك». فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمراً مدبراً. فافترقا. فبلغ خديجة رضي الله عنها ما كان من محاورة عمه أبي طالب له، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه ﷺ فقال له: إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظيم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك، ففعل رسول الله ﷺ، ولقي عمه أبا طالب فذكر له ذلك، فقال أبو طالب: إن هذا الرزق ساقه الله إليك.

فخرج ﷺ مع ميسرة، غلام خديجة، يريد الشام، وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً، ولا تخالف له رأياً. وجعل عمومته يوصون به أهل العير. فسار ﷺ في السادس عشر من شهر ذي الحجة، سنة خمس وعشرين من ولادته، حتى بلغ سوق بصرى، فنزل تحت ظل شجرة قريبة من صومعة (نسطورا الراهب)، فأطلع نسطورا إلى ميسرة، وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة من هذا الذي تحت هذه الشجرة؟ فقال: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة، بعد

عيسى عليه السلام، إلا نبي. فأتى نسطورا النبي ﷺ وقال له: يا محمد، قد عرفت فيك العلامات كلها الدالة على نبوتك المذكورة في الكتب القديمة، خلا خصلة واحدة، فأوضح لي عن كتفك. فأوضح له رسول الله ﷺ عن كتفه، فإذا بخاتم النبوة يتلألأ فأقبل عليه يقبله، ويقول: أشهد أنك رسول الله النبيّ الأمي الذي بشر بك عيسى، فإنه قال: لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا نبيّ الأمي الهاشمي العربي، المكي صاحب الحوض والشفاعة ولواء الحمد، فحضر رسول الله ﷺ سوق بصرى، فباع سلعته ورجع إلى مكة، وكان وصوله في ساعة الظهيرة، وكانت خديجة في عالية مشرفة، فرأت رسول الله ﷺ وهو على بعير وملكان يظلانه، فدخل عليها رسول الله ﷺ وأخبرها، بما ربحوا فسرت بذلك، وأخبرها ميسرة بما سمعه من (نسطورا) الراهب، وما رآه من علامات النبوة، ومن ظلال الشجرة والملكين، فباعت خديجة ما جاء به وربحت ضعف ما كانت تربحه، وأضعفت لرسول الله ﷺ ما سمته له من الأجر، وكانت أربع بكرات. وروى الحاكم: أن خديجة استأجرته ﷺ سفرتين إلى (جرش)(١) وهي بلدة باليمن، كل سفرة (بقلوص) والقلوص الشابة من النوق.

زواجه من خديجة

هي خديجة بنت خويلد، بن أسد بن عبد العزى، بن قصي، القرشية الأسدية، تجتمع مع رسول الله ﷺ في قصي.

---

(١) جرش: بضم الجيم وفتح الراء. قال ياقوت: من مخاليف اليمن من جهة مكة. وقال محمد بن بليهد في صحيح الأخبار: جرش واقع في أعالي الحجاز يشرف على تهامة مما يلي بيشة من الجهة الغربية بعد مقاطعة بلاد غامد وهو الأصح. ولعلها هي التي يطلق عليها اليوم اسم (بالجرشي) وهي واقعة في سلسلة جبال عسيرة في المنطقة المسماة «عسير» في هذه الأيام.

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم، بن رواحة بن حجر بن عبد، بن معيص، بن عامر بن لؤي.

وكانت خديجة رضي الله عنها، تدعى في الجاهلية الطاهرة [وهي]، ذات شرف وجمال ومال، وكانت أغنى قريش، فكانت نصف عيرها لها، فتوفى والدها خويلد قبل حرب الفجار.

وكانت خديجة رضي الله عنها تحت (النباش)، ويكنى أبا هالة، ابن زرارة التميمي، فولدت له هندا وهو من الصحابة وهالة، وهما ذكـران، ومات النباش في الجاهلية.

ثم بعد موته تزوجت (عتيق) بن عابد المخزومي، فولـدت له بنتـاً اسمها (هند) أسلمت، وصحبت النبي ﷺ.

ولما تأيمت خديجة رضي الله عنها، كان أشـراف قريش يعـرضون أنفسهم عليها رغبة في زواجها، لما لها من المجد والسؤدد والفخار والوقار والطهارة والصيانة والرزانة، وما انطوت عليـه من مكارم الأخـلاق والمال والجمال، وفوق ذلك كانت صاحبة عقل ودراية وحـزم وعزم وجلد على الأمور الصعاب، فلم تكن في قريش امرأة تضاهيها في فضائلها التي لا تحصى.

وكانت حريصة على الاقتران برسول الله ﷺ أشد من حرص قريش على الزواج بها.

وسبب ذلك أنها كانت مع نساء قريش في بعض أعيادهم مجتمعات إذ جاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش، إنه يوشك فيكن نبي فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبنه بالحجارة وقبحنه، وأغلظن له، وأغضت خديجة، على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء، ووقر ذلك في نفسها.

فلما سافر النبي ﷺ في تجارتها مع ميسرة، ورجع بربح وافر، وأخبرها ميسرة عما شاهده من علامات النبوة وما سمعه من بحيرا، ونسطورا، وما شاهده حال قدومه، فذكرت ذلك لابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر، وتتبع الكتب، وعلم من علم الناس، فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة، فإن محمداً لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه.

فلم تر خديجة بداً من إرسال الوسائط إليه، فأرسلت نفيسة بنت أمية أخت يعلى بن أمية بن أبي عبيدة بن همام بن الحارث التميمي الحنظلي حليف قريش، (دسيساً). تعرض عليه نكاحها.

فقالت له نفيسة: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال رسول الله ﷺ: وما في يدي ما أتزوج به؟ قالت: فإن كفيت، ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة والشرف ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قالت: (خديجة)، قال: وكيف لي بذلك؟ فذهبت نفيسة، فأخبرت خديجة بذلك، فأرسلت إليه خديجة وقالت له: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد، ليزوجها.

فذكر رسول الله ﷺ ذلك لأعمامه فخرج معه حمزة، وأبو طالب، حتى دخلوا على عمها عمرو بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي، فخطبها إليه أبو طالب. فقال عمرو بن أسد: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، يخطب خديجة بنت خويلد؟ هذا الفحل لا يقدع أنفه.

فحضر أبو بكر الصديق، ورؤساء مضر، العقد، وخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد وعنصر مضر، وجعلنا حصنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا

محمد بن عبد الله، لا يوزن برجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، و(محمد) من قد عرفتم قرابته؛ وقد خطب (خديجة) بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم.

فأجابه ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على من عددت، فنحن سادة العرب، وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا أحد منْ الناس فخركم، وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فأشهدوا عليّ، معاشر قريش، بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد؛ محمد بن عبد الله على كذا:

فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها عمرو بن أسد.

فقال عمرو بن أسد: اشهدوا عليّ معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد.

فقبل النبي ﷺ النكاح، وأشهد على ذلك صناديد قريش، وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشاً ـ والنش نصف أوقية والأوقية أربعون درهماً.

فقال ابن هشام: أصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة. وأولم ﷺ بجزورين، وأطعم الناس، وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن، ويضربن الدفوف. وفرح أبو طالب فرحاً شديداً، وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الغموم. وهي أول وليمة أولمها رسول الله ﷺ.

وكان زواجه بعد مجيئه من الشام، بشهرين وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وعمر خديجة رضي الله عنها أربعون سنة. فعاشرته أحسن عشرة وأفضل رفقه وأعظم ألفة وأصدق محبة، وكانت لا ترى منه ميلاً إلى شيء إلا بادرت به إليه، وقد رأت قبل البعثة ميله إلى زيد بن

حارثة مولاها، فوهبته له، وكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من سبقه بالإسلام.

وكانت إذا رأته تأخر عن الغداء، تلتمسه بأعلى مكة، ومعها غداؤه. وكانت أشد الناس خشية عليه ممن يريد اغتياله، وكان ﷺ يثني عليها بما لم يثن به على غيرها، وكان يسكن إليه.

ويقول: «والله ما أبدلني الله خيراً منها آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء».

وكان إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة، وكان يحب حبيبها، وكان لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له، إلا فرج الله عنه بها، تثبته وتصدقه، وتخفف عنه، وتهون عليه ما يلقى من قومه، ولذلك صارت من خير نساء العالمين، وبُشرت بقصر في الجنة، وتبلغت السلام من رب العالمين.

وهكذا كانت عشرته ﷺ معها رضي الله عنها.

أولاده ﷺ منها

ولدت خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ ولدين ذكرين، هما:

القاسم: وبه كان يكنى، وهو أول مولود له ﷺ، ومات صغيراً وعمره نحو سنتين، وهو أول من مات من أولاده.

عبد الله: وكان يقال له: الطيب الطاهر، لأنه ولد في الإسلام بمكة، ومات صغيراً. وأربع بنات، كلهن أدركن الإسلام، وهاجرن.

أولهن: (زينب) وهي أكبر بناته، ولدت سنة ثلاثين من ولادته ﷺ

وأول من تزوج منهن، زوجها من ابن خالها أبي العاص بن الربيع العبشمي، أسلم في المحرم سنة سبع من الهجرة، فولدت له علياً ومات بعد أن ناهز الحلم، وأمامة، فتزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، بنت رسول الله ﷺ، وماتت زينب في أول سنة ثمانٍ من الهجرة.

الثانية: (رقية)، زوجها من عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي أم ابنه عبد الله، ولدته له في الحبشة، حين هاجروا إليها، وماتت بمرض الحصبة، في أواخر رمضان سنة اثنتين من الهجرة.

الثالثة: (أم كلثوم)، زوجها رسول الله ﷺ من ابن عمه عتبة بن أبي لهب، قبل البعثة، ولم يدخل عليها حتى بعث رسول الله ﷺ فأمره أبوه بفراقها، ثم تزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد موت أختها رقية، وذلك في ربيع الأول، سنة ثلاث من الهجرة، وماتت عنده في شعبان سنة تسع ولم تلد له.

الرابعة: (فاطمة الزهراء)، سيدة نساء العالمين، ولدت سنة إحدى وأربعين من مولده ﷺ، قبل الهجرة بإثنتي عشرة سنة، وزوجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في أوائل المحرم سنة اثنتين من الهجرة، وأصدقها درعه، فولدت له الحسن والحسين ومحسناً، وتوفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان، سنة إحدى عشرة من الهجرة.

بناء الكعبة

أول من بنى الكعبة آدم عليه السلام، بأمر إلهي، فمر عليها الدهر فانهدمت.

ثم بناها نبي الله شيث، فمر عليها الدهر فانهدمت، ولم يبق من آثارها إلا أكمة مرتفعة.

ثم بناها ابراهيم، وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام، في موضع الأكمة، فبلغ ابراهيم في الحفر في تلك الأكمة حتى رأى أساس آدم، فبناها بحجارة بعضها على بعض، حتى بلغ ارتفاعها عن الأرض ذراعين، فجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسود، فوضعه في الركن الشرقي منها.

ثم ارتفع بالنباء طوله، فجاء اسماعيل بحجر المقام فألصقه بالبيت، ووقف عليه ابراهيم إلى أن انتهى البناء، ولم يجعل لها سقفاً، وجعل ارتفاعها تسعة أذرع، وطولها من الجنوب إلى الشمال مما يلي جهة الشرق سبعة وعشرين ذراعاً بذراع اليد، وكذا من الجنوب إلى الشمال مما يلي جهة الغرب، وأدخل فيها حجر إسماعيل، وعرضها من الشرق إلى الغرب، مما يلي جهتي الجنوب، والشمال إحدى وعشرون ذراعاً. وجعل لها بابين متقابلين، أحدهما في الجهة الشرقية مما يلي الحجر الأسود، والثاني في الجهة الغربية مما يلي الركن اليماني، وجعلهما لاصقين بالأرض، وحفر في جوفها بئراً قريباً من الجهة الشمالية، جعلت خزانة للبيت، يلقى فيها ما يهدى للبيت.

ولم تكن الجهات الأربع مقابلة كل المقابلة للشرق والغرب والشمال والجنوب، بل هناك ميل جزئي، فجهة الباب إلى الشرق، أقرب منها إلى الشمال، وكذلك حجر اسماعيل أقرب إلى الشام من الغرب، وهكذا الجهات الأخرى.

فلما فرغ ابراهيم من البناء، جاءه جبريل وأراه المناسك كلها، ثم قام ابراهيم على المقام، وقال: (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء).

ثم أمر بأن يدعو الناس للحج: **﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾**. فقال: يا أيها الناس أجيبوا ربكم، فوقف ابراهيم، واسماعيل، تلك المواقف، وحجه إسحق، وسارة من بيت المقدس. ثم رجع ابراهيم إلى الشام، فمات بها. ثم مات اسماعيل بعده، ودفن في الحجر، وقبره تحت ميزاب الكعبة.

فمر على الكعبة الدهر، فانهدمت فبناها العمالقة لما استولوا على مكة.

فمر عليها الدهر، فانهدمت فبناها الحارث بن مضاض الأصغر الجرهمي، لما استولت جرهم على مكة. فمر عليها الدهر، فانهدمت فبناها قصي لما استتب له الأمر على مكة، وجمع قبائل قريش. وكل هذا البناء رضماً بغير مدر، ولا سقف، وكان ارتفاعها قدر القامة، وكانت ثيابها توضع عليها تسدل سدلاً، وكانت ذات ركنين من الجهة الجنوبية، وهما: الركن الذي فيه الحجر الأسود، والركن اليماني، ومن الجهة الشمالية، على شكل نصف دائرة، مما يلي حِجر اسماعيل على شكل الحِجر الآن.

ثم قبل البعثة بخمس سنين، تشاورت قريش في هدم الكعبة، وبنائها وذلك أن امرأة من قريش أرادت أن تجمر الكعبة (تبخرها). فطارت شرارة

من مجمـرتها على كسـوة الكعبة، فـاحترقت، ثم بعـدها اعتـراها وهن، وداهمتها السيول، حتى تهدم معظمها، وبذلك تمكن (دويك) مولي لبني مليح، بن عمر من خزاعة، فسرق كنزها، فقطعت قريش يده.

فلما أجمعوا أمرهم على هدمها هابوا الهدم، خشية أن ينزل عليهم بلاء من السماء، قال الوليد بن المغيرة المخـزومي: إن الله لا يهلك من يريد الإصلاح، فقالوا: من الذي يعلوها فيهدمها؟ قال: أنا أعلوها، وأنا أهـدمها، فـأخـذ المعـول وارتقى على ظهـر الكعبـة، ومعـه العبـاس بن عبد المطلب، فقال: اللهم لا نريد إلا الإصلح، ثم هدم، فلما رأوه سالماً لم يصب ببلاء تابعوه، فهدموا حتى انتهى بهم الهدم، إلى أساس ابراهيم، وقد أفضوا إلى حجارة خضر، كأسنمة الإبل، آخذ بعضهـا على بعض، فأدخل رجل منهم عتلته بين حجرين منها ليقتلعها، فوقعت رجة، وبرق من تحت الحجر برق. فتركوا ذلك الأساس، فوجدوا حجراً ذا ثلاثة أوجه عند الركن مكتوب فيه بالسريانية، فقرأه لهم رجل من اليهود.

فـوجدوا في الـوجه الأول: (أنـا الله ذو بكـة، صغتهـا يـوم صغت الشمس، والقمـر، وحففتها بسبعـة أملاك حنفـاء، لا تـزول حتى يـزول أخشباها ـ وهما جبلان معروفان بين مزدلفة وعرفة ـ مبارك لأهلها في الماء واللبن).

ووجدوا في الوجه الثاني: (أنا الله ذو بكة، خلقت الرحم، واشتققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته).

وفي الوجه الثالث: (أنا الله ذو بكة، خلقت الخير، والشر، فطوبى لمن كان الخير على يديه، وويل لمن كان الشر على يديه).

وفي أثناء ذلك أقبلت سفينة من الروم، حتى إذا كـانت قريبـاً من جدة، انكسرت، فعلمت قريش ذلك، فخرجت لتأخذ خشبها، فـوجدوا

الرومي الذي فيها نجاراً وبناءً اسمه (باقوم)، فقدموا به، وبخشب السفينة، فلما انتهت قريش من الهدم وأرادت الشروع في البناء، قال لهم أبو وهب بن عمرو بن عائذة المخزومي: لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا طيباً، ولا تدخلوا فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة.

وأشار عليهم أن ينقسموا أربعة أقسام، فكان شق الباب لعبد مناف وزهرة. وكان بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش، وكان ظهر الكعبة من الجهة الغربية لبني جمح وبني سهم، بن عمرو بن هُصيص. وكان شق الحجر لبني عبد الدار وبني أسد وبني عدي.

فانفردت قريش رجلين، رجلين، ينقلان الحجارة. وكان النبي ﷺ مع عمه العباس ينقلان الحجارة من أجياد[1]، فبنوها مدماكا من خشب الساج، ومدماكا[2] من الحجارة، فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، اختصمت قريش في نقل الحجر الأسود إلى موضعه، وتريد كل قبيلة منهم أن تختص برفعه، واستعدت كل قبيلة منهم للقتال، ومكث النزاع بينهم أربعة أيام، ثم اجتمعوا في المسجد الحرام، فقال أبو أمية بن المغيرة وكان أسن قريش كلها يومئذ، ومن أجوادها المشهورين بالكرم: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فاتفقوا على ذلك.

(١) أجياد: هو الوادي الواقع في جنوب الحرم المكي الشريف مما يلي الصفا. وهو حي من أحياء مكة المكرمة. وقد قيل في أجياد شعر كثير منها هذه الأبيات لبشر بن خازم:

حلفت برب الداميات نحورها	وما ضم «أجياد» المصلى ومذهب
لئن شبت الحرب العوان التي أرى	وقد طال إيعاد بها وترهب
لتحتملن بالليل منكم ظعينة	إلى غير موثوق من العز تهرب

وأهل مكة يسمونه جياد بدون ألف في أوله.

(٢) المدماك: الصف من الحجارة في البناء.

فكان أول داخل منه رسول الله ﷺ، فلما رأوه، قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، أخبروه الخبر، فوضع ﷺ إزاره وبسطه على الأرض، فأخذ الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا.

فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في ربع بني مخزوم زمعة، وكان في الرابع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان في الرابع الرابع قيس بن عدي، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه ﷺ في محله بيده الشريفة.

ثم بنوها حتى تم بناؤها، فكان ارتفاعها ثمانية عشر ذراعاً، واقتصروا من الِحجر نحن ستة أذرع ونصف، لقصور النفقة التي جمعوها من المال الحلال.

وجعلوا طولها نحو أحد وعشرين ذراعاً وجعلوا لها باباً واحداً من الجهة الشرقية، ورفعوه عن الأرض كما هو عليه اليوم.

فكأنهم زادوا في ارتفاعها عن بناء ابراهيم واسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، تسعة أذرع، وأنقصوا من طولها مما يلي جهة حجر اسماعيل، ستة أذرع ونصف، وجعلوا لها باباً واحداً، ورفعوه عن الأرض، وسقفوها، وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين.

وبقيت على هذا البناء إلى خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، ثم لما قدم مكة الحصين بن نمير بجيش ليزيد بن معاوية، لقتال عبد الله بن الزبير، وحاصروه في المسجد الحرام، نصبوا المنجنيق على جبل أبي قبيس، وعلى جبل قعيقعان[1] ورموه بها فأصيبت الكعبة واحترقت ثيابها

(١) جبل أبي قبيس مشهور في مكة وهو في الجنوب الشرقي منها، وجبل قعيقعان أيضاً جبل مشهور في مكة من جهة الشمال الغربي. والمسجد الحرام بينهما.

وسقفها، وتهدم معظمها. ثم لما مات يزيد، رجع جيشه، وذلك في ربيع الآخر، سنة أربع وستين، ورأى عبد الله بن الزبير ما وقع في الكعبة من الحريق، والتهدم، حتى إن الطير إذا وقع عليها، تناثر حجرها، تشاور مع من حضر، وفيهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، في هدمها، وقالوا: نرى أن يصلح ما وَهَىٰ، ولا نهدِم.

فقال عبد الله بن الزبير: لو أن بيت أحدكم أحرق، لم يرضَ له إلا بأكمل إصلاح، ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها.

فاستخار الله تعالى ثلاثاً، ثم عزم على نقضها، وتحاماها الناس، حتى صعد عليها عبد الله بن الزبير، فألقى منها حجارة، ثم تتابعوا فنقضوها، حتى بلغوا بها قواعد ابراهيم، عليه الصلاة والسلام، وجعل ابن الزبير حول الكعبة أعمدة من خشب، وستر عليها بالستور[1] كي يطوف الناس من خلفها، ثم عزل من حجارتها، ما يصلح للبناء، وما لا يصلح حفر له في جوف الكعبة، فدفنه، وسأل خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: عما أنقصته قريش من حولها؟

فقالت رضي الله عنها: إن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغت به أساس ابراهيم».

فاتبع ابن الزبير قواعد ابراهيم من نحو الحجر، فلم يصب شيئاً، حتى شق عليه، فأمر بحفر قامة ونصف قامة، فأدركوا قواعد ابراهيم.

---

(١) أحاطها بما يسترها كما يصنع البناؤن اليوم حينما يسترون العمارات في أثناء بنائها بالأخشاب. وذلك شيء معروف قديماً وحديثاً.

فنزل ابن الزبير في الحفرة، وكشفوا له عن قواعد ابـراهيم، وهي صخر أمثال الخلف من الإبل ـ وهي الحامل من الإبل ـ فأنفضوا لـه أي حركوا تلك القواعد بالعتل فنفضت قواعد البيت وتحـركت، ورأوه بنيانـاً مربوطاً بعضه ببعض، فحمد الله وكبره، ثم أحضر الناس فأمر بـوجوههم وأشرافهم، فنزلوا حتى شاهدوا ما شاهده، ورأوا بنياناً متصلاً، فأشهدهم على ذلك، وتركها مكشوفة ثمانية أيان، ليشهدها العموم.

فبناها بعد ذلك، على قواعد ابراهيم، وأدخل فيها من الحجر ستة أذرع ونصف، وجعل لها بـابين متقابلين، مـلاصقين بالأرض، أحـدهما شرقي مما يلي الحجر الأسود، والآخر غربي مما يلي الركن اليماني وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعها، وسقفها وتم بناؤها سنة خمس وستين من الهجرة.

ولمـا قتـل ابن الـزبيـر، كتب الحجـاج بن يـوسف الثقفي، إلى عبد الملك بن مروان، يخبره أن ابن الزبير، قد وضع البيت الحرام، على أس نظر العدول من أهل مكة إليه.

فكتب إليه عبد الملك، «إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد في طولها فأقره؛ وما زاد فيه من الحجر، فرده إلى بنائه وسد بابه الذي فتحه».

فبادر الحجاج، فاقتطع الذي زيد من الحجر، فرده إلى بنائه، وسد بابه الذي فتحه، ورفع بابها الشرقي أربعة أذرع وشبراً، وبنى الدرج الذي في جوف الكعبة، المصعد إلى سطحها.

ثم إن عبد الملك بن مروان ندم على اذنه للحجاج، ولعنه وقـال: وددنا أن تركنا أبا خبيب، وما تولى من ذلك. وكان ذلك سنة ثلاث وسبعين من الهجرة. وبقيت الكعبة على هذا البناء.

ثم فرشها بالرخام الوليد بن عبد الملك ـ وهو أول من فرشها بالرخام ـ ثم إن الخليفة هارون الرشيد، أراد أن يعيد الكعبة على ما فعله ابن الزبير، فناشده الإمام مالك بن أنس، في ذلك، وقال: أخشى أن يصير البيت ملعبة للملوك. فترك الرشيد ذلك.

ثم وقعت في الكعبة بعد ذلك جملة مرمات، قام بها بعض الخلفاء والملوك وسلاطين آل عثمان.

وفي عام ألف وتسعة وثلاثين، دخل المسجد الحرام سيل عظيم، ودخل الكعبة من بابها، ووصل إلى نصف جدارها الداخلي، وذلك يوم الأربعاء التاسع من شهر شعبان عام ألف وتسعة وثلاثين.

وفي اليوم العاشر من الشهر المذكور، وهو يوم الخميس سقط الجدار الشامي من الكعبة، وبعض الجدارين الشرقي والغربي. فرفع الخبر أمير مكة الشريف مسعود إلى وزير مصر، ليعرضه على السلطان مراد بن أحمد خان، فأرسل السلطان (مراد آغا رضوان المعماري) ومعه المهندسون والعمال.

وابتدأوا في العمل، يوم العشرين من شهر جمادى الأولى، سنة ألف وأربعين من الهجرة، فهدموا ما كان متداعياً للسقوط، وعمروها.

وتمت عمارتها في غرة شعبان، من السنة المذكورة، وعمل لها باباً جديداً، والميزاب.

وهذا أعظم ما وقع لها من العمارة بعد ابن الزبير والحجاج.

ثم بعد ذلك أجريت فيها مرمات بسيطة في سقف الكعبة وفي داخلها وحول الحجر الأسود، وغير ذلك من الأمور البسيطة.

وقد جاء عن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، عن النبي ﷺ، أنه

قال: «هذه الأمة لا تزال بخير، ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها، فإذا ضيعوا ذلك هلكوا»، رواه الحافظ ابن حجر، في الفتح، وقوله ما عظموا هذه الحرمة، يعني الكعبة، وتعظيمها: احترامها وتطهيرها وتعميرها وصيانتها من كل قذارة ومكروه.

حياته مدة الجاهلية

شب رسول الله ﷺ، والله تعالى يكلؤه، ويحفظه، ويحيطه، من أقذار الجاهلية، لما يريده له من الكرامة، والرسالة، حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأوفاهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى والرذيلة، التي تدنس الرجال، تنزهاً، وتكرماً. فما رؤي ممارياً، ولا ملاحياً أحداً، حتى سماه قومه الأمين، لما جمع الله عز وجل فيه من الأمور الصالحة؛ والخصال الحميدة، والأفعال السديدة، من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفة، والجود، والكرم، والشجاعة، والحياء، والمروءة.

وكانت قريش تتحاكم عنده في الجاهلية. وكان ينهي قومه عن عبادة الأصنام، وكان ينفر من التمسح بها، والتقرب إليها. وما عرف عنه ﷺ أنه حضر مجلساً من مجالس اللهو، ولا شرب الخمرة، ولا أكل ما ذبح لغير الله، وما وافق قريشاً على شيء مما كانت تتدين به، إلا الوقوف بعرفة، وذلك اتباعاً لجديه ابراهيم واسماعيل، عليهما الصلاة والسلام.

وكان يرعى الغنم لأهله، وقومه وعشيرته بأجياد، وغيرها من الضواحي، وذلك من عادات الأنبياء قبل بعثتهم كي يحصل لهم التمرن برعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح،

ودفع عدوها من سبع، وذئب، وسارق، ويتعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها، مع ضعفها، واحتياجها إلى التعهد لها في حالة العطش، لإيرادها الماء، فيألفوا من ذلك على الصبر عند مدارات الأمة، ويتعلموا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، ومداركها، فجبروا كسرها، ورتقوا فتقها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعهد لها، فيكون تحملهم للمشقة أسهل بعد تمرنهم على رعاية الغنم.

الاستعداد والتأهل للنبوة

اعلم أن الله سبحانه وتعالى، لما اقتضت حكمته خلق النفس البشرية، جعل لها من أصل الفطرة أدراكين، أدركا بالظاهر، وهو بالحواس الخمس، وأدراكا بالباطن، وهو بالقوى الدماغية، وهي على ثلاثة أصناف، صنف عاجز من أصل فطرته عن الوصول إلى الإدراك الروحاني، فإدراكه منحضر في المدارك الحسية، والخيالية، وتركب المعاني من الحافظة، والواهمة، على قواعد محصورة، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصويرية، والتصديقية التي للفكر في البدن، وكلها خيالي منحصر نطاقه، وهذا هو أغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني، وإليه تنتهي مدارك العلماء، وفيه ترسخ أقدامهم.

وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني، والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات لبدنية، بما جعل له من الاستعداد لذلك، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري، ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية، وهي وجدان كلها، لا نطاق لها من مبدئها، ولا من منتهاها. وهذه مدارك العلماء الأولياء، أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة.

وصنف مفطور على الإنسلاخ من البشرية جسمانيتها، أو روحانيتها، إلى الملائكة من الأفق الأعلى، ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل.

ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماع الكلام النفساني، والخطاب الآلهي في تلك اللمحة. وهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جعل الله لهم الإنسلاخ من البشرية في تلك اللمحة،وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها، وجبلة صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن؛ وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما ركب في غرائزهم من القصد، والإستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة، وركز في طبائعهم رغبة في العبادة، تكشف بتلك الوجهة، وتسيغ نحوها، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق، بذلك النوع من الانسلاخ، متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها، لا باكتساب ولا صناعة.

فلذا توجهوا، وانسخلوا عن بشريتهم، وتلقوا في ذلك من الملأ الأعلى ما يتلقونه، وعاجوا به على المدارك البشرية، منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد.

فتارة يسمع دوياً كأنه رمز من الكلام، يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه، فلا ينقضي الدوي إلا وقد وعاه، وفهمه.

وتارة يتمثل له الملك الذي يلقى إليه رجلاً، فيكلمه، ويعي ما يقوله، ويرجع إلى المدارك البشرية، ويفهم ما ألقي عليه كله، كأنه لحظة واحدة، بل أقرب من لمح البصر(١)، لأنه ليس في زمان، بل كلها تقع

---

(١) يحسن هنا ـ في هذا المقام ـ حيث يتحدث المؤلف عن الوحي، والسرعة التي يتم بها. تلقيه ووعيه. أن نذكر ما كتبه الكاتب الفذّ الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه العبقريات الإسلامية: فقد جاء في ص ٤١ قوله:

«فما من أحد يجرؤ على أن يقول ـ باسم العلم ـ إن الإلهام بالغيب مستحيل، لأنه إذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة، لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمداً على حجة، أو سند قويم.

يجب على العالم الذي يجزم باستحالة الإلهام بالغيب أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة =

جميعاً، فيظهر كأنها سريعة، ولذلك سميت وحياً، لأن الوحي في اللغة،

= الزمن وعرف ـ من ثم ـ حقيقة المستقبل، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الإنسان والحيوان.

فما هي حقيقة الزمن؟ هل هو موجود في الماضي والحاضر والمستقبل، أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول؟ وما هي هذه اللحظة الواحدة؟. وما مدى إحاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة في هذه الأكوان؟ وهل المستقبل موجود الآن؟ أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة؟

وكيف يوجد العدل بعد إن لم يكن له وجود؟

إن العالم الذي يجزم في قول من هذه الأقوال ـ باسم العلم ـ يدعى على العلم كذباً، وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر في هذه الآفاق.

فإذا كنا لا ننفي وجود المستقبل نفياً مقطوعاً به مستنداً إلى حجة أو بينة، فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل في باب الممنوعات، أو غير المعقولات.

وإذا كان عنصر العقل في هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز جداً. وجائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول، ولا ندعي إن هذا الانتقال الفكري بين عقول الناس قد ثبت في هذا الزمن ثبوتاً قاطعاً في جميع التجارب والمحاولات، فإن هذا الانتقال ـ المسمى بالتلباثية ـ يصيب ويخطىء ويكفي أنه لم يبطل كل البطلان باعتراف الملحدين والماديين، إلى جانب المتدينين والمؤمنين. فإذا كان وجود المستقبل لم يبطل فكيف يبطل العلم بما يجري فيه؟

إنه قد يبطل إذا تحقق بالبينة أن عنصر العقل وراء عقل الإنسان يستحيل، فإذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يمتنع، ولم يدخل في باب المستحيلات، فكل دعوى هنا للجزم بإنكار الغيب وإنكار العلم به، أو الإيحاء به إلى إنسان من الناس، فإنما هي دعوى تهجم على الواقع ولا يكفي أن يقال فيها أنها تهجم على الغيوب والمجهولات».

انتهى ما قاله الأستاذ العقاد. وبهذا المنطق العلمي القوي القويم يدحض العقاد أقوال أدعياء الذين يتهجمون على الأنبياء ويشككون في اتصالهم بالله وإيحاء الله إليهم بالرسالات التي جاءوا بها رحمة وإرشاداً للناس.

وقد لا يسوءك إنكار الوحي والنبوة والتشكيك في أمر الأنبياء إذا كان هذا الإنكار من عالم يرجع عن رأيه إذا كان له عقل يحترم الحجة عند مواجهته لها ويعدل عن رأيه

الإعلام بالخفاء، والإسراع، وفي حالة الوحي صعوبة شديدة، من غطيط وغيبة، وذلك لمفارقة البشرية إلى المدارك الملكية، وتلقي الوحي المنزل، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها، من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر. فإذا أراد الله سبحانه وتعالى، أن يبعث نبياً خلقه من أصل تكوينه بهذا الاستعداد، فلا يطمع إنسان أن يدرك درجة النبوة بمجرد علومه أو ذكائه أو دهائه، ولذلك تجد أن كل من أدّعىٰ النبوة ظهر أمره في برهة وجيزة. وكان تنبؤه مبنياً على نقص في عقله، ولولا ذلك لأدرك أن النبوة لها خلق مخصوص من البشر، كما تقدم.

فهذه صفات أنواع البشر من أصل تكوينهم؛ وأما صفة الملائكة فهم أجسام لطيفة هوائية شفافة، تقدر على التشكل بأشكال مختلفة، مسكنها السموات، قادرة على اختراق طبقات الجو في أقرب من لمح البصر.

هذا ما قاله العلماء في وصف الأنبياء والملائكة.

فإذا علم هذا، وتقرر في الذهن، ظهر أنه صار من المستحيل على علماء الفن الحديث[1]، أن يطمعوا في اكتشاف هذه الإدراكات النبوية، والأجسام الملائكية، والوصول إليه بمجرد الفكر الذي اكتشفوا به بعض المكتشفات، مثل الأجرام السماوية، والجراثيم الدقيقة، لأن ذلك لا يدرك كنهه بالآلات والقياسات الفنية.

= إلى حيث تسوقه الحجة الدامغة، بقدر ما يسوءك الإنكار من جاهل يتعالم وأحمق يتفلسف، ولا يعرف ما هي الفلسفة، وليس له عقل يحترم الحجة والبرهان.
ولا يريد من قحته إلا أن يشعرك بأن له عقلاً يفكر فيه، في الوقت الذي يشعرك بأنه مسلوب من كل ذرة تنتسب إلى التعقل بَلْهَ العقل.

(١) يظهر من سياق كلام المؤلف أن القصد من قوله: علماء الفن الحديث، علماء العلوم الحديثة: كعلوم الطبيعة، والرياضة، والعلوم الكونية، وكل علم أدى إلى اكتشاف المجهول من دقائق المادة.

ثم متى ظهر عجزهم عن إدراك ما أدركته الأنبياء، بصفتهم الخاصة، ظنوا أن ما جاءوا به ضرب من الخيالات التي لا نصيب لها من الصحة، بسبب قصر إدراكهم عن إدراك الأنبياء، صلوات الله عليهم. فهذه مكابرة للحقيقة سببها قصر مداركهم المحدودة. عن الوصول إلى ما وصل إليه الأنبياء، بحسب استعداد تكوينهم الفطري.

فإذا علم الإنسان، أن منظم العالم، ومدبر شؤونه، جل وعلا، اقتضت حكمته إيجاد الخلائق كل بحسب تركيبه، قائم بصفة تناسبه، فلا يسوغ له أن يطابق الأشياء المدركة بالحس، على المدركة بالفن، مع أن الفن لم يصل إلى اكتشاف كل شيء في العالم وقد اطّلعت على بعض المجلات، فوجدت فيها سؤالاً من بعض الناس، يسألونهم فيه عن عمل الحواة، أرباب الشعوذة، في تبديل الأجسام مثل جعل الحشائش حريراً، والورق فطيراً يؤكل، وغير ذلك، مما هو مشاهد من أعمالهم، واكتشفه العلم الحديث في ذلك، فأجابوه: إن العلم الحديث لم يكتشف حتى الآن الشعوذة بطريق، ولم تظهر لهم حقيقتها بعد أن صرفوا وقتاً طويلاً في محاولة الوقوف على حقيقتها.

فإذا كان الفن الحديث عاجزاً عن اكتشاف حقيقة الشعوذة البسيطة، التي يعملها المشعوذون على رؤوس الأشهاد، فهو بالأحرى أعجز من أن يكتشف الإدراكات النبوية، والنواميس السماوية وسائر المغيبات.

وإذا كان من خلق الله تعالى الأجرام السماوية العظيمة، التي قرر علماء الفلك أن من تلك الكواكب ما هو أجسم من أرضنا التي نطؤها بأقدامنا، وشمسنا التي نستضيء بها، وأعظم بملايين المرات، ونحن نرى تلك الكواكب بالنظر المجرد قدر الأنملة، وكذلك من المخلوقات الدقيقة ـ التي المليون منها لا يساوي قدر الذرة ـ الجراثيم التي كانت قبل إيجاد المجسمات (التلسكوب والمكرسكوب) مجهولة منذ عشرات السنين، وكم

غيرها من خلق الله تعالى مجهول حتى اليوم، وربما يعلم في المستقبل.

وحيث إن العقل تصور وتصديق بوجود الكواكب العظيمة، والجراثيم الدقيقة، لأنه رآها بالمجسمات، فلماذا لا يصدق بوجود الملائكة، والجن، وغيرهم، وهو يعلم أن في الكون أشياء لم يقف على حقيقتها أحد من أرباب الفن الحديث إلى اليوم، فلا ينبغي للعاقل أن ينكر ما لا يراه بصره حيث إن مخلوقات الله تعالى أكثر من أن تحصى وتعد، ولا يعلم حقيقتها إلا خالقها سبحانه وتعالى.

فعلى الماديين، والملحدين ومن على شاكلتهم أن يهدءوا على أنفسهم، ويعترفوا بجهلهم، ويخففوا من حماقتهم، ويتركوا علم الكون لأهله، ويدرسوا مواقع الجهل قبل كل شيء من أنفسهم، ويقنعوا بفشلهم، ويتجنبوا مكابرة الحقائق، لأن العالم المفكر كلما توغل في العلوم، ظهر له بواسطة العلم أشياء عظيمة كبيرة، لم يصل إليها علمه، ولم تحط بها مداركه، ولذلك يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: (كلما ازداد علماً زادني علمي بجهلي)، ولكن ماذا نصنع في هذا الزمن؟ الذي كثر جهله، وخرج عن مبادىء الإيمان معظم أهله، وأصبح الجاهل عالماً، والأحمق مفكراً، والمكابر فيلسوفاً، والغبي أستاذاً، والمتهوس باحثاً، والوقح حراً، والجعجاع خطيباً، فقد أشغلوا الناس بسفسطتهم، وتكاثروا بغوغائهم؛ فلا داعي منهم ولا مجيب، ولا منصف فيهم ولا أريب، لا يسمعون ولا يعقلون، وهم عن الحقيقة غافلون.

البعثة النبوية

لما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة من عمره، وقبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، يوافق أول شهر فبراير سنة ستمائة وعشر من ميلاد عيسى عليه السلام.

وفي سبعة عشر من شهر رمضان، بعثه الله تعالى للناس كافة بشيراً ونذيراً ورحمة للعالمين، لينقذهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وكان قد أخذ الله سبحانه وتعالى الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له، على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم، وصدقهم. وقد أوفوا بوعدهم، وبلغوا من آمن بهم ذلك وجاء الكتاب ناطقاً به فقال تعالى: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتؤمنن به ولتنصرنه، قال: أأقررتم، وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا: أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾**.

أول ما بدىء به من الوحي

فأول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء وهو جبل بأعلى مكة، ومشهور الآن بجبل النور، فيتحنث فيه، أي يتعبد الليالي ذوات العدد، وذلك شهر من كل سنة، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها.

وذلك كان من عادة قريش في الجاهلية. فكان أول ما يبدأ به حين رجوعه من حراء الطواف بالكعبة سبعاً، أو ما شاء، ثم يأتي خديجة فيتزود

لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك جبريل عليه السلام، في اليوم السابع عشر من شهر رمضان فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء. قال ﷺ: فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطنيّ الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾.
فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني، زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقالت له خديجة: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة، ورجعوا. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتقرىء الضيف؛ وتعين علي نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي، وهو ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم»؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. فقال ورقة لخديجة: اذهبي به إلى المكان الذي رأى فيه ما رأى، فإذا رآه فتحسري، فإن يكن من عند الله لا يراه. فذهبت معه، وقالت له: إذا جاءك فأخبرني.

فبينا رسول الله ﷺ عندها إذ جاءه جبريل فقال: يا خديجة هذا جبريل، قالت: أتراه الآن؟ قال: نعم، قالت: فاجلس إلى شقي الإيمن، فتحول فجلس، قالت: هل تراه الآن؟ قال: نعم، قالت: فاجلس في حجري، فتحول فجلس. قالت: هل تراه الآن؟ قال: نعم، فأدخلت رسول الله ﷺ بينها، وبين درعها، فقالت: هل تراه الآن؟ قال: لا، قالت: ما هذا شيطان، إن هذا لملك، يا ابن عم فاثبت وأبشر، ثم آمنت به، وشهدت أن الذي جاء به الحق.

فلما دخل أبو بكر الصديق، ذكرت خديجة حديثه له وقالت له: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا إليه، فقصا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض». فقال ورقة: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني.

فلما خلا رسول الله ﷺ ناداه جبريل قال: يا محمد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ثم قال: قل: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين» حتى بلغ ولا الضالين.

ثم قال قل: (لا إله إلا هو).

فأتى النبي ﷺ ورقة، فذكر ذلك له. فقال ورقة: أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركني ذلك لأجاهدن معك: فأنشأ ورقة:

لجحت، وكنت في الذكرى لجوجا ... لهمٍّ طالما ما بلغ النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا

ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما أخبرتنا من قول قس ... من الرهبانِ أكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... تقام له البرية أن تعوجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا[1]
فيا ليت إذا ما كان ذا كم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا
ولوجاً في الذي كرهوا جميعاً ... إلى ذي العرش أن سلفوا عروجا
وهل أمر السفاهة غير كفر ... بمن يختار من سَمَكَ البروجَا
فإن يبقوا وابق تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلِكْ فكلٌّ فتىً سيلقى ... من الأقدار متلفه خروجا

ثم لم ينشب ورقة أن تُوفيَ. فلما توفى قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس، عليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدقني». يعني ورقة بن نوفل.

فترة الوحي

ثم فتر الوحي، فلما فتر الوحي حزن رسول الله ﷺ حزناً، غدا منه مراراً يريد أن يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه، تبدى له جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً. فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، ويرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي، غدا لمثل ذلك تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك.

ثم بعد أن مضى على فترة من الوحي ثلاث سنين، كما جزم به ابن إسحاق ورواه الإمام أحمد في تاريخه عن الشعبي، أوحى الله تعالى إليه، وذلك أنه جاور

---

(١) فلوجا: فوزا.

بجبل (حراء) شهراً، فلما قضى جواره به الشهر، نزل منه حتى استبطن الوادي، فنودي فنظر أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله، فلم يرَ أحداً. ثم نودي فنظر فلم يرَ أحداً. ثم نودي فرفع رأسه، فإن الملك الذي جاءه (بحراء) جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعب منه، فرجع إلى خديجة، فقال: «زملوني زملوني» فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيها المدَّثِّر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجُر﴾** يقسم الله جل وعلا له بقوله: **﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾**، أي ما حرمك فتركك، وما أبغضك منذ أحبك، **﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾**، أي ما ادخرته لك عندي في مرجعك إلي، خير لك مما عجلت لك من الكرامة، في الدنيا. **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾**، ثم عرفه الله تعالى ما ابتدأه به من كرامته، في ابتداء أمره ومنته عليه بقوله: **﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾**.

حالات الوحي

كان نزول الوحي على ثماني حالات:

الحالة الأولى: الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا، إلا جاءت مثل فلق الصبح وضوحاً، وظهوراً. فما يراه في المنام يراه في اليقظة، وذلك تمهيداً وتمريناً على حمل أعباء الوحي.

الحالة الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه، وقلبه من غير أن يراه.

الحالة الثالثة: كان يتمثل له الملك رجلاً في صورة (دحية الكلبي)، ومرة جاءه في صفة رجل غريب.

الحالة الرابعة: كان يأتيه مثل صلصلة الجرس، وكان أشد حالاته عليه، حتى إنّ جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وإذا أتاه وهو

على راحلته، بركت به على الأرض لشدته.

الحالة الخامسة: كان يأتيه الملك في صورته التي خلق عليها.

الحالة السادسة: ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها.

الحالة السابعة: كلام الله تعالى له ومنه، وإليه، بلا واسطة ملك.

الحالة الثامنة: العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه وعلى لسانه عند القضاء في الأحكام.

أول عمل وجب من أعمال العبادات

أول ما وجب من أعمال العبادات الإنذار، ثم الدعاء إلى التوحيد، ثم فرض قيام الليل، ثم الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها؛ وذلك أن جبريل عليه السلام، تبدى لرسول الله ﷺ في أحسن صورة، وأطيب رائحة، بأعلى مكة، فقال: يا **محمد!** إن ربك يقرئك السلام، ويقول: أنت رسولي إلى الجن والإنس فادعهم إلى **قول** لا إله إلا الله، ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عن ماء، فتوضأ منها جبريل، ثم أمره أن يتوضأ، وقام جبريل يصلي، وأمره أن يصلي معه، فعلمه الوضوء والصلاة، ورجع **رسول الله ﷺ لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا سلم عليه، حتى أتى** خديجة فأخبرها، فغشي عليها من الفرح، ثم أمرها فتوضأت، وصلى بها، كما صلى به جبريل، فكان ذلك أول فروضها ركعتين.

معنى سلام الأحجار

سلام الأحجار والأشجار وما في معناها من الجمادات الصم، وغيرها على النبي ﷺ ليس هو كصفة سلام الإنسان الناطق، بل هو له صفة قائمة بتلك الجمادات، حيث إن الله سبحانه وتعالى أوجد في مخلوقاته صفات متنوعة، بحسب تشكلاتها وأنواعها، فأوجد في الإنسان صفة ناطقة، قائمة به لا تشبه صفة الحيوانات العجم. وأوجد في الحيوانات العجم، صفة لا تشبه صفة الجمادات الصم، فسلام الإنسان، هو بالصفة المنطقية التي أوجدها فيه والجمادات كذلك بالصفة التي خلقت فيها، كما قال الله تعالى: **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحَهم﴾**. فسلام الأحجار والأشجار، وهو أشبه بحنين الجذع، وهذا لا يستلزم الحياة والعلم والإرادة، لأنه صوت كسائر الأصوات، مثل صوت الرعد والريح واحتكاك الأحجار في بعضها وحفيف الشجر، وغير ذلك إذ لو كان تسبيح وسلام الحيوانات الخرس والجمادات كتسبيح وسلام الإنسان بالنطق الصريح، لفقهه كل من سمعه، ولما صار معجزة لبعض الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولم يعد ذلك معجزة لهم إلا لكونهم فقهوا سلامهم، بالصفة التي منحهم الله تعالى إياها من بدء خلقهم، فإنكار ذلك دليل على قصر فهم المنكر صفة المخلوقات، وطبائعها التي كونها الله تعالى فيها.

أول من آمن به ﷺ

١ ـ أول من آمن بنبوة رسول الله ﷺ من الشيوخ، ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي. قاله السراج البلقيني والحافظ العراقي، وذكره ابن مندة في الصحابة، وأثبته الحافظ ابن حجر في القسم الأول من الإصابة في الصحابة، وقال: ذكره الطبري، والبغوي، وابن قانع، وابن السكن، وغيرهم في الصحابة، وذكر أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، فيقول: أحد أحد يا بلال، والله لئن قتلتموه لأتخذته حناناً. وهذا يدل على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام.

٢ ـ ومن الرجال، أبو بكر الصديق، واسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم القرشي التيمي، ولد بعد الفيل بسنتين ونصف، وكان أعلم قريش بالنسب وبأحوالهم وما هم عليه من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه، ويسترشدونه في كل أمر، لفضله وخبرته ودرايته، صحب النبي ﷺ قبل البعثة بعشرين سنة، وعمرهُ إذ ذاك ثماني عشرة سنة، فكان صديقه من ذلك الوقت، يكثر غشيانه له في منزله، ويحادثه وكان سمع بنبوته من ورقة بن نوفل لما ذهب معه إليه، فكان يتوقع ذلك، فبينما هو مع حكيم بن حزام، إذ جاءت مولاة حكيم، وقالت له: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل، مثل موسى، فانسل أبو بكر، وأتى رسول الله ﷺ فسأله عن خبره، فقص عليه مجيء الوحي له بالرسالة، فقال له: صدقت بأبي أنت وأمي، وأهل الصدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

٣ ـ ومن الغلمان علي بن أبي طالب. ولد قبل البعثة بعشر سنين، وكان قد أخذه رسول الله ﷺ من أبيه طفلاً، ورباه في حجره، وهو الذي سماه علياً، وسبب ذلك أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا

عيال كثير فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس ـ وكان أيسر بني هاشم ـ: «يا عباس أن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً، فنكفهما عنه». فقال العباس: نعم

فانطلقا، حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك، حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهم: إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً، فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تعالى. فرأى علي رسول الله ﷺ يصلي مع خديجة في يوم بعث، فقال علي: ما هذا؟ فقال له رسول الله ﷺ: «دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب. فقال له رسول الله ﷺ: «يا علي إذا لم تسلم فاكتم هذا»، فمكث علي ليلته، ثم أصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وكان يخرج مع رسول الله ﷺ إلى شعاب مكة للصلاة مستخفياً من أبيه وأعمامه وأخواله، فعثر عليهما أبو طالب يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي، ما هذا الدين؟ فقال: «أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا ابراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد؛ وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه». فقال أبو طالب: أي ابن أخي! إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت.

٤ ـ ومن النساء، خديجة بنت خويلد، وهي أول من أسلم على الإطلاق كما تقدم في ابتداء نزول الوحي.

٥ ـ ومن الموالي، زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن

زيد بن امرىء القيس الكلبي القحطاني، كانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائية زارت قومها، وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية على أبيات بني معن بن طيء، فاحتملوا زيداً وهو غلام يفعة، عمره ثماني سنين فأتوا به عكاظ، فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوج بها رسول الله ﷺ وهبته له. ثم لما فقده أبوه حارثة بن شراحيل قال:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل؟؟

فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل، أم غالك الجبل؟

ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل[1]

تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... ويعرض ذكراه إذا غربها أفل

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزني عليه، وما وجل

سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف، أو تسأم الإبل

حياتي، أو تأتي عليّ منيتي ... وكل أمرىء فان، وإن غره الأمل

سأوصي به قيساً، وعمراً كليهما ... وأوصي يزيداً، ثم أوصي به جبل

يعني أخوة زيد فحج ناس من كلب، فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، فقال لهم زيد: أبلغوا أهلي هذه الأبيات، فإني أعلم أنهم قد جزعوا علي فقال:

أحن إلى أهلي وإن كنت نائياً ... بأني قعيد البيت عند المشاعر

فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم ... ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر

فإني بحمد الله في خير أسرة ... كرام معد كابراً بعد كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه، فقال: ابني ورب الكعبة، ووصفوا له موضعه، وعند من هو، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب لفدائه، وقدما مكة

---

(١) بجل: حسن حاله، والمعنى أن حسبي من الدنيا رجوعك لي حسن الحال.

فسألا عن النبي ﷺ فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الجائع، وقد جئناك في ابننا عبدك، فامنن علينا وأحسن في فدائه، فإنا سندفع لك. قال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قالا: زيد بن حارثة فقال ﷺ: «أو غير ذلك»؟ قالا: ما هو؟ قال ﷺ: «ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء» قالا: قد زدتنا على النصف، وأحسنت. فدعاه فقال له رسول الله ﷺ: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي، وهذا عمي. قال ﷺ: «فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك، فاخترني، أو اخترهما». فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم. فقال أبوه وعمه: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من زيد أخرجه إلى الحجر، فقال: «اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه»: فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، فدعى بذلك زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام، فدعى لأبيه حارثة، وفيه نزلت الآية: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾.

٦ ـ ثم أسلمت أم أيمن بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن مولاة النبي ﷺ وحاضنته، أعتقها حين تزوج خديجة رضي الله عنها، وزوّجها من عبيد بن الحارث بن الخزرج، فولدت له أيمن، فصحب أيمن النبي ﷺ.

٧ ـ وأسلمت أم رومان، بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب، امرأة أبي بكر الصديق، ووالدة عبد الرحمن، وعائشة ابني أبي بكر الصديق.

٨ ـ وأسلمت أم الخير، بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم والدة أبي بكر الصديق.

٩ ـ وأسلمت أسماء بنت أبي بكر الصديق.

١٠ ـ وأسلمت زِنِّيرة الرومية، وكانت مولاة عمرو بن المؤمل، ولما أسلمت عذبها أبو جهل على الإسلام، فاشتراها أبو بكر الصديق، وأعتقها.

الدعوة إلى الإسلام سراً

لما أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأسلمت أسرته دعا من وثق به من أصحابه إلى الله تعالى ورسوله ﷺ وقد أجابه الكثير منهم إلى ذلك فممن أسلم بدعائه:

١١ ـ عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي.

ولما أسلم عثمان رضي الله عنه، أخذه عمه الحكم بن أبي العاص والد مروان، فأوثق كتافه وقال له: ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد؟ والله لا أحلك أبداً، حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه، ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته تركه.

١٢ ـ وأسلمت أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس العبشمية والدة عثمان بن عفان.

١٣ ـ وأسلم بدعاء أبي بكر الصديق، الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي، وعمره اثنتا عشرة سنة، فأخذه عمه نوفل بن خويلد، وعلقه في حصير، وصار يدخن عليه ليروعه. حتى يرجع عن الإسلام فقال له الزبير: لا أكفر أبداً فتركه.

١٤ ـ وأسلمت صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، والدة الزبير وعمة النبي ﷺ.

١٥ ـ وأسلم بدعاء أبي بكر الصديق عبد الرحمن بن عوف، بن الحارث بن زهرة، بن كلاب الزهري؛ وكان اسمه عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ: عبد الرحمن. وكان عمره حين أسلم ثلاثاً وثلاثين سنة، وسبب إسلامه، أنه سافر إلى اليمن مراراً، وكان ينزل على عسكلان بن عواكف الحميري، فكان يسأله: هل ظهر فيكم رجل له نبأ له ذكر؟ هل خالف أحد منكم عليكم في دينكم؟ فيقول له: لا. فلما بعث رسول الله ﷺ ودعاه أبو بكر بادر إلى الإسلام.

١٦ ـ وأسلمت الشفاء بنت عوف، بن الحارث، بن زهرة الزهرية والدة عبد الرحمن بن عوف.

١٧ ـ وأسلم بدعاء أبي بكر الصديق سعد بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري؛ وعمره تسع عشرة سنة. فأتى النبي ﷺ فسأله عن أمره، فأخبره به، فأسلم. فسمعت أمه بإسلامه، فلما أتى داره وجد أمه على بابها تصيح وتقول: ألا أعوان يعينونني عليه من عشيرتي، أو عشيرته، فأحبسه في البيت، وأطبق عليه بابه، حتى يموت، ويدع هذا الدين المحدث؟؟ فلما سمعها سعد رجع من حيث جاء، وقال لها: لا أعود إليك ولا أقرب منزلك، فهجرها حيناً، ثم أرسلت إليه أن يعود إلى منزله، ولا يضيفن أحداً، فيلزمهم عار، فرجع، فمرة تلقاه بالبشر، ومرة تلقاه بالشر وتعيره بأخيه عامر، وتقول له: هو البر لا يفارق دينه. وكان إذا أقبل سعد على النبي ﷺ يقول: هذا خالي فليرني امرؤ خاله.

١٨ ـ وأسلم عامر بن مالك بن أهيب بن عبد مناف الزهري، أخو سعد بن أبي وقاص، ولقي من أمه أشد ممّا لقي سعد، قال سعد بن أبي وقاص: جئت فإذا الناس مجتمعون على أمي حمنة بنت سفيان بن أمية، وعلى أخي عامر حين أسلم، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: هذه أمك قد عاهدت الله أن لا يظلها ظل حتى يرتد عامر، فأنزل الله تعالى: ﴿وإن

جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾.

١٩ ـ وأسلم بدعاء أبي بكر الصديق طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب، بن سعد بن تيم بن مرة التيمي.

كان قد حضر سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة: نعم أنا، فقال: هل ظهر أحمد، قلت: ومن أحمد؟ قال ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخلة وحرة وسباخ[1] فإياك أن تسبق إليه، فوق ذلك في قلبه، فخرج مسرعاً حتى قدم مكة، فقال: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد الأمين، تنبأ، وقد تبعه ابن أبي قحافة، فأتى أبا بكر، فذهب به إلى النبي ﷺ فأسلم.

فلما علم بإسلامه نوفل بن العدوية، وكان يدعى أسد قريش أخذه وأخذ معه أبا بكر الصديق فشدهما في حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيم لشدة ابن العدوية وقوة شكيمته[1].

٢٠ ـ وأسلمت الصعبة بنت الحضرمي، أخت العلاء بن عبدالله بن عمار بن ربيعة الحضرمي، أم طلحة بن عبيد الله التيمي.

٢١ ـ وأسلم بدعاء أبي بكر الصديق، خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي الأموي.

وسبب إسلامه رأى رؤيا أنه على شعب نار، فأراد أبوه أن يرميه فيها، فإذا النبي ﷺ قد أخذ بحجزته. فلما أصبح أتى أبا بكر فقال: أتبع محمداً، فإنه رسول الله، فجاء فأسلم، فبلغ أباه العاص فعاقبه ومنعه

---

(١) نخلة، وحرة، وسباخ، إشارة إلى المدينة المنورة فهي ذات نخيل، وحرار، وسباخ، والمراد بالسباخ هنا: الأرض التي لم تحرث.

القوت، ومنع إخوته من كلامه، فتغيب حتى خرج بعد ذلك إلى الحبشة[1].

٢٣ ـ وأسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي الفهري.

٢٤ ـ وأسلم سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزىٰ، العدوي.

٢٥ ـ وأسلمت فاطمة بنت بعجة، بن مليح[2] الخزاعية، أم سعيد بن زيد.

٢٦ ـ وأسلمت فاطمة، بنت الخطاب، أخت عمر بن الخطاب، زوجة سعيد بن زيد.

٢٧ ـ وأسلم عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح.

٢٨ ـ وأسلم قدامة بن مظعون أخو عثمان بن مظعون.

٢٩ ـ وأسلم عبد الله بن مظعون، أخو عثمان بن مظعون.

٣٠ ـ وأسلم السائب بن عثمان بن مظعون.

٣١ ـ وأسلم عبيدة بن الحارث بن المطلب، بن عبد مناف، بن قصي القرشي، ابن عم والد النبي ﷺ. يكنى أبا الحارث، وكان أسن من النبي ﷺ بعشر سنين.

٣٢ ـ وأسلم أبو سلمة، وهو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال، بن

---

(١) ولذلك يقال لطلحة وأبي بكر: القرينان.

(٢) في ابن هشام ٢٥٣/١ هامش ٤ بعجة بن خلف.

عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، أخو النبي ﷺ من الرضاع، وابن عمته برة بنت عبد المطلب.

٣٣ ـ وأسلم أبو سبرة، بن عبد العزى، بن أبي قيس القرشي.

٣٤ ـ وأسلمت أم كلثوم، بنت سهيل، بن عمرو، زوجة أبي سبرة، بن أبي رهم.

٣٥ ـ وأسلم بلال بن رباح، الحبشي، اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين، لما كانوا يعذبونه على التوحيد.

٣٦ ـ وأسلمت حمامة، أم بلال بن رباح.

٣٧ ـ وأسلم الأرقم بن أبي الأرقم، بن أسد بن عبد الله بن عمر، بن مخزوم.

٣٨ ـ وأسلم أبو فكيهة، يسار الجهمي، مولى صفوان بن أمية، فربط أمية بن خلف في رجله حبلاً، فجره حتى ألقاه في الرمضاء، وجعل يخنقه حتى ظنه مات، فمر أبو بكر الصديق فاشتراه وأعتقه.

٣٩ ـ وأسلمت لبيبة، جارية المؤمل بن حبيب، وكانت تعذب، فاشتراها أبو بكر وأعتقها.

٤٠ ـ وأسلمت أم عبيس، وهي زوج كريز بن ربيعة بن عبد شمس فولدت له عبيساً فكنيت به، وكانت تعذب، فاشتراها أبو بكر الصديق فأعتقها.

٤١ ـ وأسلم عامر بن فهيرة التميمي، كان مولى الأزد ومملوكاً للطفيل بن عبد الله بن سنجر، فأسلم وهو مملوك، فكان يعذب، فاشتراه أبو بكر منه فأعتقه.

٤٢ ـ وأسلم جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بأمر أبيه أبي طالب، وذلك أنه رأى النبي ﷺ وعلياً رضي الله عنه يصليان، وكان عليٌّ على يمين النبي ﷺ. فقال أبو طالب لجعفر: صِلْ جناح ابن عمك، فصل عن يساره، وكان ذلك سبب إسلامه.

٤٣ ـ وأسلمت أسماء بنت عميس، بن معد بن الحارث الخثعمية، زوجة جعفر بن أبي طالب.

٤٤ ـ وأسلم عبد الله بن مسعود، بن غافل بن حبيب، بن شمخ، بن فار الهذلي، وكان أبوه حالف عبد الحارث بن زهرة. وسبب إسلامه، كان يرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمر به رسول الله ﷺ فقال: يا غلام هل من لبن؟ فقال له: نعم، ولكنني مؤتمن. قال: فهل من شاة حائل لم ينز عليها الفحل؟ فأتاه بشاة فمسح ﷺ ضرعها، فنزل بن فحلبه في إناء وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: أقلص، فقلص. ثم أتاه بعد هذا فقال: يا رسول الله علمني من هذا القول، فمسح رأسه وقال: يرحمك الله فإنك غُلَيِّم معلم.

٤٥ ـ وأسلم عمار بن ياسر بن مالك العنسي من كهلان القحطاني حليف بني مخزوم.

٤٦ ـ وأسلم ياسر بن عامر والد عمار بن ياسر.

٤٧ ـ وأسلم سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو، بن مخزوم والدة عمار بن ياسر، وكانوا يعذبون في الإسلام، فكان النبي ﷺ يمر عليهم فيقول: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة.

٤٩ ـ وأسلم المقداد بن الأسود الكندي، وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر الكندي الحضرمي.

٥٠ ـ وأسلم صهيب بن سنان بن مالك بن عبد بن عمرو بن عامر بن جندلة النمري. كان أبو سنان بن مالك عاملاً لكسرى على الإبل، وكانت منازلهم بأرض الموصل، في قرية على شط الفرات، فأغارت الروم عليهم، فسبت صهيباً وهو غلام صغير، فنشأ بالروم فصار ألكن، فابتاعه منهم بنو كلب، وقدموا به مكة؛ فاشتراه عبد الله بن جدعان التيمي منهم، فأعتقه، فأقام معه بمكة إلى أن مات، فلما بعث النبي ﷺ أسلم صهيب.

٥١ ـ وأسلم خباب بن الأرت، بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب التميمي، سبي في الجاهلية وبيع بمكة، فكان مولى أم أنمار الخزاعية.

٥٢ ـ وأسلم زيد بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، بن رِياح العدوي، أخو عمر بن الخطاب، وأكبر منه سناً.

٥٣ ـ وأسلم عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة، بن عبد الله بن عمر، بن مخزوم القرشي المخزومي، ابن عم خالد بن الوليد المخزومي

٥٤ ـ وأسلمت أسماء بنت سلامة بن مخرّبة التميمية، امرأة عياش بن أبي ربيعة.

٥٥ ـ وأسلم عامر بن ربيعة بن كعب، بن مالك بن ربيعة، بن عامر بن سعد العنزي، حليف بني عدي، ثم حالف الخطاب والد عمر بن الخطاب وقد تبناه الخطاب، وكان يدعى به في الجاهلية، ثم دعى بأبيه لما جاء الإسلام.

٥٦ ـ وأسلمت ليلى بنت أبي خيثمة، بن حذيفة بن غانم القرشية العدوية.

٥٧ ـ وأسلم عبد الله بن جحش بن رباب، بن يعمر بن صبيرة الأسدي حليف بني عبد شمس.

٥٨ ـ وأسلم أبو أحمد بن جحش الأسدي، أخو زينب أم المؤمنين وأخو عبد الله بن جحش.

٥٩ ـ وأسلمت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، لما أسلم زوجها عبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة، ولما تنصر بالحبشة فارقته.

٦٠ ـ وأسلم شرحبيل بن حسنة، وحسنة هذه أمه، وأبوه عبد الله بن المطاع بن عبد الله بن الغطريف، بن عبد العزىٰ بن جثامة الكندي الحضرمي.

٦١ ـ وأسلم عبد الله بن حذافة، بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي.

٦٢ ـ وأسلم خنيس، بن حذافة بن قيس بن عدي القرشي، أخو عبد الله بن حذافة.

٦٣ ـ وأسلم هاشم بن العاص بن وائل، بن هام بن سعيد بن سهم القرشي السهمي.

٦٤ ـ وأسلم أبو ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة، بن قيس بن بياض، بن عمر بن مليل بن صعير بن حرام، بن غفار الغفاري. وسبب إسلامه، أنه لما بلغه مبعث النبي ﷺ قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني، فانطلق أخوه حتى جاء مكة وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر.

فقال أبو ذر: ما شفيتني مما أردت، فتزود وقدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ وهو لا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض

الليل فاضطجع، فرآه علي بن أبي طالب، فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى أصبح، ثم احتمل قربته، وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم، ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى.

فعاد إلى مضجعه فمر به علي فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله؟ فأقامه فذهب معه لا يسأل أحدهما صاحبه عن شيء، حتى كان اليوم الثالث، فعل مثل ذلك فأقامه فقال له علي: ألا تحدثني بالذي أقدمك؟ قال أبو ذر: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً أن ترشدني فعلت: ففعل.

فأخبره فقال: إنه حق، وإنه رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك كأني أريق الماء، فإن مضيت، فاتبعني حتى تدخل مدخلي. ففعل، وانطلق يقفوه، حتى إذا دخل على النبي ﷺ ودخل معه فقال: اعرض عليّ الإسلام، فعرضه، فأسلم فقال له النبي ﷺ: يا أبا ذر اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل، فقال أبو ذر: والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم، فخرج حتى أتى المسجد، وقريش فيه فقال: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فقام القوم إليه فضربوه، حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار؟ وأنه من طريق تجارتكم إلى الشام، فأنقذه منهم، ثم عاد إلى الغد لمثلها فضربوه، وثاروا إليه، فأكب العباس عليه. ثم عاد إلى بلده.

٦٥ ـ وأسلم أنيس بن جنادة الغفاري أخو أبي ذر الغفاري.

٦٦ ـ وأسلمت رملة بنت الوقيعة الغفارية أم أبي ذر الغفاري.

٦٧ ـ وأسلم عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن زهرة بن كلاب الزهري القرشي، وكان اسمه عبد الحان، فسماه النبي ﷺ عبد الله.

٦٨ ـ وأسلم عبد الله بن سهيل بن عمرو بن شمس بن عبد ود القرشي العامري.

٦٩ ـ وأسلم المطلب بن أزهر بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة الزهري.

٧٠ ـ وأسلمت رملة بنت أبي عوف بن صبرة بن سعيد بن سعد بن سهم السهمية زوجة المطلب بن أزهر.

٧١ ـ وأسلم معمر بن عبد الله بن نضلة بن نافع بن عوف القرشي العدوي.

٧٢ ـ وأسلم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي العبشمي.

٧٣ ـ وأسلم محجن بن الأدرع الأسلمي من ولد أسلم بن أقصىٰ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأدرعي.

٧٤ ـ وأسلمت سهلة بنت سهيل بن عمر بن عبد شمس زوجة أبي حذيفة بن عتبة العبشمي.

٧٥ ـ وأسلم حمزة بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاع، وكان أسن من رسول الله ﷺ بسنتين، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة، وكان لإسلامه شأن عظيم، وقال حين أسلم:

حمدت الله حين هدى فؤادي ... إلى الإسلام والدين المنيف[1]
إذا تليت رسائله علينا ... خبير بالعباد بهم لطيف
رسائل جاء أحمد من هداها ... فآيات مبينة الحروف

(١) في السيرة النبوية للدحلان «الحنيف» بدل المنيف.

وأحمد مصطفى فينا مطاع فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقوم ولما نقض فيهم بالسيوف[1]

فسماه النبي ﷺ أسد الله وأسد رسوله.

٧٦ ـ وأسلم مسعود بن ربيعة بن عمر بن سعد بن عبد العزىٰ القاري.

٧٧ ـ وأسلم مسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيدة بن عويج إلقرشي العدوي.

٧٨ ـ وأسلم مطيع بن الأسود أخو مسعود بن الأسود.

٧٩ ـ وأسلمت العجماء بنت عامر بن الفضل بن عفيف بن كليب والدة مسعود بن الأسود.

٨٠ ـ وأسلم نعيم بن عبد الله بن أسيد بن عوف بن عبيد بن عويج القرشي العدوي النحام.

٨١ ـ وأسلم واقد بن عبد الله بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم حليف بني عدي بن كعب، جاءت به قبيلة باهلة فباعوه من الخطاب بن نوفل فتبناه.

٨٢ ـ وأسلم معمر بن الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح القرشي الجمحي.

٨٣ ـ وأسلم حاطب بن الحارث الجمحي أخو معمر بن الحارث.

---

(١) في السيرة النبوية للدحلان زيادة على الأبيات المذكورة هذه الأبيات:

ونترك منهمو قتلى بقاع عليها الطير كالورد العكوف
وقد خُبِّرت ما صنعت ثقيف به فجَزَىَ القبائل من ثقيف
إله الناس شر جزاء قوم ولا اسقاهمُ صوب الخريف

٨٤ ـ وأسلمت امرأته فاطمة بنت المجلل العامرية.

٨٥ ـ وأسلم حطاب بن الحارث الجمحي أخو معمر بن الحارث.

٨٦ ـ وأسلمت فكيهة بنت يسار امرأة حطاب بن الحارث.

٨٧ ـ وأسلم حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك القرشي العامري.

٨٨ ـ وأسلم سليط بن عمرو أخو حاطب بن عمرو.

٨٩ ـ وأسلم السكران بن عمرو العامري أخو حاطب بن عمرو.

٩٠ ـ وأسلمت سودة بنت زمعة زوجة السكران بن عمرو، ثم بعد وفاته تزوجها رسول الله ﷺ وصارت من أمهات المؤمنين.

٩١ ـ وأسلمت أم يقظة بنت علقمة زوجة سليط بن عمرو.

٩٢ ـ وأسلم طليب بن زاهر بن عبد عوف بن عبد الحارث القرشي الزهري.

فهؤلاء واحد وستون رجلاً وإحدى وثلاثون امرأة السابقون الأولون إلى الإسلام وكان إسلامهم قبل دخول دار الأرقم.

وقد علم من نسبهم أن بعضهم من أشراف قريش وساداتهم، وبعضهم من أبناء الأشراف، وبعضهم من أوسطهم نسباً، والبعض من حلفائهم ومواليهم. وليسوا كلهم كما زعم بعض المؤرخين من الضعفاء والأحداث والموالي وقد دخلوا في الإسلام جماعة وفرادى بغير إكراه ولا إجبار كما يزعم أعداء الإسلام بل كان الإكراه والإجبار واقعاً عليهم من المشركين ليخرجوهم منه. كما سيأتي تفصيله، فقد تصدى عظماء قريش إلى تعذيب من آمن من هؤلاء سواء كانوا أبناءهم أو نساءهم أو حلفاءهم أو مواليهم، بكل أنواع العذاب، ولم يزدهم ذلك إلا تثبيتاً في دينهم وتمكيناً

في إيمانهم. فصبروا على ذلك السنين الطوال لكونهم لم يكن لهم من يدرأ عنهم سوء العذاب حتى مكنهم الله تعالى ممن عذبهم، ونصرهم على من خالفهم، وأصبحوا ومن لحقهم في الإسلام سادة الأمم وقادتها، وهذه هي الحكمة العظمى في الصبر على المكاره إن الله تعالى يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب.

دخول دار الأرقم

كان كل من أسلم من هؤلاء يكتم إسلامه خشية من أذى المشركين لهم، وكان إذا أراد أحدهم الصلاة ذهب إلى بعض شعاب مكة فصلى بها. وكان من أشد البلاء على من أسلم منهم إذا كان وحده منفرداً في عائلة كلها مشركة ومعاندة.

ودامت هذه الحال ثلاث سنين. ثم وقعت حادثة وهي أنه بينما كان سعد بن أبي وقاص في نفر من المسلمين يصلون في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين فناكروهم، وعابوا عليهم صلاتهم فلم يعبأوا بهم، فازداد بالمشركين الطغيان حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً منهم بلحي بعير فشجه، فكان أول دم أهرقه المسلمون من المشركين.

وبسبب ذلك دخل رسول الله ﷺ مع أصحابه دار الأرقم في الصفا ـ وهي معروفة الآن بدار الخيزران ـ كان قد اشترى هذه الدار الخليفة أبو جعفر المنصور وأعطاها لولده المهدي، ثم أعطاها المهدي للخيزران أم ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد، وسميت باسمها من ذلك التاريخ إلى اليوم.

فكان رسول الله ﷺ وأصحابه يقيمون الصلاة فيها سراً إلى أن نزل الأمر بالدعوة إلى الإسلام جهاراً.

وقد أسلم كثير من سادات قريش بعد دخول دار الأرقم وكان أولهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي العبدري، وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة وأجودهم حلة مع أبويه فلما أسلم كتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، فعلم به عثمان بن طلحة فأعلم أهله فأوثقوه فلم يزل محبوساً إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة فرآه رسول الله ﷺ فبكى للذي كان فيه من النعمة ولما صار إليه.

وسنأتي على أسماء من أسلم بدار الأرقم عند إسلام عمر بن الخطاب لأنه منهم.

الدعوة إلى الإسلام جهاراً

وفي السنة الرابعة من البعثة أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يصدع بأمره وذلك بقوله تعالى: **﴿فاصدع بما تؤمَر وأعرض عن المشركين﴾**[1]. ثم أمره بإنذار عشيرته الأقربين بقوله تعالى: **﴿وأنذرْ عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾**[2]. فاشتد ذلك على النبي ﷺ وضاق ذرعاً، فمكث نحو شهر في بيته فظنّ عماته أنه مريض فدخلنَ عليه عائدات، فقال ﷺ لهن: ما اشتكيت شيئاً لكن الله أمرني بقوله: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**. فأريد أن أجمع بني عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى. فقلن له: فادعهم ولا تجعل عبد العزىٰ منهم ـ يعنين عمه أبا لهب ـ فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه وخرجن من عنده ولما أصبح رسول الله ﷺ دعى قرابته، فحضروا ومعهم عدة من بني عبد مناف وجميعهم خمسة وأربعون رجلاً وفيهم أبو لهب.

---

(١) سورة الحجر، الآية رقم ٩٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية رقم ٢١٤ والآية رقم ٢١٥.

فقال له أبو لهب: هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فتكلم بما تريد واترك الصبآت، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة وإن أحق من أخذك وحبسك أسرتك، وبنو أبيك إن أقمت على أمرك فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش، وتمدها العرب فما رأيت يا ابن أخي أحداً قط جاء بني أبيه وقومه بشر ما جئتهم به.

فلما انتهى أبو لهب من قوله أخبرهم النبي ﷺ بما أنزل الله تعالى وقال: «يا بني هاشم انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار، يا بني زهرة انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة انقذي نفسك من النار، يا صفية عمة محمد انقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله». فقال له أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ وأخذ حجراً ليرميه به فنزل في حقه قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾.

فمكث ﷺ أياماً فجمعهم ثانياً وقال: «الحمد لله أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبدا، والنار أبدا، والله يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

فتكلم القوم كلاماً ليناً غير أبي لهب فإنه قال: يا بني عبد المطلب، هذا والله السوأة، خذوا على يده قبل أن يأخذ على يده غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قتلتم، فقالت له أخته صفية بنت

عبـد المطلب: أي أخي أيحسن بـك خذلان ابن أخيـك؟ فوالله مـا زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضىء عبد المطلب نبي فهو هو، قال أبو لهب: هذا والله الباطل؛ والأماني وكلام النساء في الحجـال، إذا قامت بطون قريش، وقامت معها العرب فما قوتنا بهم؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أَكَلَةُ راس. فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا.

ثم دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقـال: «يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبـد مناف انقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم انقذوا أنفسكم من النار، يـا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة انقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

وخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحـاه فقالت قريش: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد فاجتمعوا إليه فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب». فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً قال: «يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً إني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد؛ إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العـدو فانـطلق يريـد أهله فخشي أن يسبقوه إلى أهله: فجعـل يهتف يا صباحاه، أتيتم، أتيتم» فقال له أبو لهب تباً لك ألهذا جمعتنا؟

وكان ﷺ يطوف على الناس في منازلهم يقول: «يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً» وأبو لهب وراءه يقول: يأيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم.

وكان كفار قـريش لا ينكرون لمـا يقول، فكـان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء وكان ذلك دأبهم حتى عاب آلهتهم، وسفه عقولهم، وضلل آباءهم، فتناكـروه وأجمعوا على خلافه وعداوته.

معاداتهم له ﷺ

فلما عاب رسول الله ﷺ آلهتهم وبين لهم أنها لا تضر، ولا تنفع، ولا تشفع، ولا تغني من الله شيئاً وسفه عقولهم بعبادتها ذهبت قريش إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا وسفه أحلامنا ـ ينسبنا إلى قلة العقل ـ وضلل آباءنا، فإمّا أن تكفه عنا وإمّا أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. فقال لهم أبو طالب: قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ يظهر دين الله الذي ارتضاه لعباده، ويدعو إليه لا يرده عن ذلك عناد المعاندين، ولا ضلال المضلين، ولا زيغ الزائغين. فاجتمعت أشراف قريش من كل قبيلة وقـالوا: ابعثـوا أعلمكم بالسحـر، والكهانة والشعر، فليأت محمداً الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يريد؟ حتى نعذر إليه.

فقالوا: لا نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، وكان النبي ﷺ جالساً في المسجد وحده فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا بن أخي، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد فضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن

في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى تتفانى، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: «قل يا بن الوليد أسمع.

فقال: يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا من أموالهم حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى.

فقال له رسول الله ﷺ: «لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني. قال: ففعل.

قال رسول الله ﷺ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون**﴾[1]. ومضى رسول الله ﷺ يتلو السورة عليه، وعتبة بن ربيعة ملق يديه خل ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، إلى أن انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ فأمسك عتبة على في رسول الله ﷺ وناشده الرحم، أن يكف عن ذلك.

ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض يحلف: لقد جاءكم أبو الوليد، بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم، قالوا

---

(١) سورة فصلت آية رقم ١، ٢ وما بعدهما. من الآيات البينات.

له: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، فاجعلوها لي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

فمن هذه القصة يتضح أن عظماء قريش لم يكونوا أغبياء، ولا بلداء ولا قاصري الفهم. عن إدراك قول رسول الله ﷺ، أو ما أنزل عليه من ربه، وإنما ذلك العداء، منشؤه الحسد المحض الذي يعمي، ويصم، ويجعل الشخص يغالط نفسه، وغيره ويتعمد قلب الحقيقة، وتشويه السمعة، لا لشيء سوى الحسد نفسه، لأن القرآن نزل بلغتهم، فلا تخفى عليهم دقائق معانيه وما يشير إليه من خير وشر وسعادة وشقاء.

ثم اجتمعت قريش وقالت: إن محمداً نشأ فينا بالأمانة والصدق، وما اتهمناه بكذب قط، وقد ادعى ما ادعى، فابعثوا نفراً إلى يهود المدينة واسألوهم عنه فإنهم أهل كتاب. فبعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود وسألوهم فقالت اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي فاسألوه: عن فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان شأنهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها ما خبره؟ وعن الروح. فسألوا النبي ﷺ فنزل عليه في الفتية ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ الآية[1]. ونزل

---

(١) الآية رقم ٩ من سورة الكهف.

عليه فيمن بلغ المشرق والمغرب قوله: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ الآية[1] ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ الآية[2]. فلم يقتنعوا لا برأي كبرائهم، ولا ما أرشدهم إليه اليهود لأن ذلك لم يتفق مع رغائبهم.

ثم اجتمع أربعون رجلاً من أشرافهم منهم عتبة، وشيبة (ابنا ربيعة) وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البَخْتري بن هشام، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيه ومنبه (ابنا الحجاج) بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بداء، وكان حريصاً يحب رشدهم حتى جلس إليهم. فقالوا: يا محمد! إنا بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك؛ لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، ما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد الشرف، سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه، ونعذر فيك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون ما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا للشرف عليكم، ولا للملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً،

(١) الآية رقم ٨٣ من سورة الكهف.
(٢) الآية رقم ٨٥ من سورة الإسراء.

وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، وأنزل الله تعالى في ذلك: **﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إنْ أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾**[1]. فقالوا: يا محمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلاداً، ولا أشد عيشاً منا، فسل ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، ويفجر لنا فيها الأنهار، كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك صدقناك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم وإن تردوه أصبر لأمر الله تعالى». قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكاً يصدقك واسأله أن يجعل لك جنات وقصوراً، وكنوزاً من ذهب وفضة، يعينك بها على ما تريد، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه. فقال ﷺ: «ما بعثت لهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيرا».
فأنزل الله تعالى: **﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يُلقىٰ إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون أن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا، تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا﴾**[2]. ثم قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل. فقال ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء فعل ذلك بكم». فقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله

---

(١) الآية رقم ٤٧ من سورة سبأ.
(٢) آية رقم ٧ وما بعدها من سورة الفرقان.

والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك: قام رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب. فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً يعرفون بها منزلتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل، فوالله ما أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء مرقى ترقى فيه وأنا انظر حتى تأتيها فتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك. فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى: **﴿وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا﴾**[1]. وأنزل الله تعالى: **﴿وكذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾**[2].

ثم اجتمعت أشراف قريش مرة أخرى وذهبوا إلى منزل أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب

---

(١) آية رقم ٩٠ وما بعدها من سورة الإسراء.

(٢) آية رقم ٣٠ من سورة الرعد.

نفساً بأن يخذل رسول الله ﷺ أو يسلمه لهم فقال له: يا ابن أخي إن قومك جاؤوني؛ فقالوا لي: كذا وكذا، فأبقِ علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء وإنه خاذله أو مسلمه، وأنه ضعيف عن نصرته والقيام معه فقال رسول الله ﷺ: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته». ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخي فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً ثم أنشأ يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم — حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك، ما عليك غضاضة — وابشر، وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني، وزعمت أنك ناصحي — ولقد صدقت، وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً لا محالة أنه — من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة، أو حذار مسبة — لوجدتني سمحاً، بذلك مبينا

فلما عرفت قريش أن أبا طالب غير خاذل رسول الله ﷺ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجملهم، فخذه، فلك عقله ونصحه، واتخذه ولداً فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك الذي قد خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومه، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنه رجل برجل.

فقال لهم أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم؟ وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله لا يكون أبداً، أرأيتم ناقة تحنُّ إلى غير فصيلها؟ فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قوم،

وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني، ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك.

فعند ذلك حقب[1] الأمر وتنابذ القوم، وبادى بعضهم بعضاً، فقال أبو طالب عند ذلك، يعرض بالمطعم بن عدي ومن عاداه من قبائل قريش:

ألا قل لعمرو، والوليد، ومطعم ... ألا ليت حظي من حياتكمو بكر
من الخور حجاب كثير رغاؤه ... يرش على الساقين من بوله قطر[2]
تخلف خلف الورد، ليس بلا حق ... إذا ما على الفيفياء قيل: له وبر[3]
أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا: إلى غيرنا الأمر
بلى، لهما أمر، ولكن تجرجما ... كما جرجمت من راس ذي علق صخر[4]
أخص خصوصاً عبد شمس ونوفل ... هما نبذانا، مثل ما ينبذ الجمر
هما أغمزا للقوم في أخويهما ... فقد أصبحا منهم أكفهم صفر
هما أشركا في المجد من لا أبا له ... من الناس، ألا أن يرس له ذكر[5]
وتيم ومخزوم، وزهرة منهم ... وكانوا لنا مولى، إذا بغى النصر
فوالله لا ينفك منا عداوة ... ولا منهم، ما كان من نسلنا شفر[6]
فقد سفهت أحلامهم وعقولهم ... وكانوا كجفر بئس ما صنعت جفر[7]

---

(١) حقب بفتح القاف: فسد.
(٢) الخور: المنخفض من الأرض بين مرتفعين.
(٣) الورد من أسماء الأسد، والفيفاء: الصخرة الملساء. والوبر بسكون الباء: دويبة على شكل القط إلا أنها أصغر منه.
(٤) الجرجمة: الإنحدار، وذو علق بفتح العين واللام: اسم جبل.
(٥) الرّس: من أسماء الأضداد يقال: رس بين القوم: يعني أصلحهم أو أفسدهم.
(٦) شفر: تقول العرب لم يبق منهم شفر أي لم يبق منهم أحد.
(٧) الجفر: الذي لا رأي له.

ولما رأى أبو طالب من قريش ما رأى دعا بني هاشم وبني المطلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك لغير أبي لهب.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره في جهدهم معه وحدبهم عليه جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم، وليحدبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها، وصميمها
فإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم، أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً، فإن محمداً ... هو المصطفى، من سرها وكريمها
تداعت قريش، غثها وثمينها ... علينا، فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود، نقيمها
ونحمي حماها، كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندى، وتنمى أرومها

وجلس رسول الله ﷺ يوماً في مجلس فيه من وجهاء قريش، منهم أبو جهل وعتبة وشيبة (ابنا ربيعة) وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة فقال لهم النبي ﷺ: «أليس حسناً ما جئت به»؟ فقالوا: بلى، والله، فجاء عبد الله بن أم مكتوم، وكان رجلاً أعمى فقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. وأكثر عليه، فأعرض عنه لاشتغاله بأشراف قريش، وقد رأى منهم مؤانسة وطمع في إسلامهم. وأشار إلى قائده أن يكفه عنه، حتى يفرغ من كلامه، فكفه القائد، فدفعه ابن أم مكتوم فعبس ﷺ وأعرض عنه، مقبلاً على من كان يكلمه، فعاتبه الله تعالى في ذلك بقوله: **﴿عبس وتولى، أن جاءه الأعمى﴾** فكان بعد ذلك، إذا جاءه يقول: مرحباً، بمن عاتبني الله فيه، ويبسط له رداءه.

وكان كفار قريش، يقترحون على النبي ﷺ وكان ذلك تعنتاً منهم ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليـه نفر من قـريش حين حضر المـوسم وكان ذا سن فيهم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فـأجمعوا فيـه رأياً واحـداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول: كاهن. قال: والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هـو بمجنون لقـد رأينا الجنـون وعرفنـاه فما هو بخنقه ولا تخالجه وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجـزه، وهزجه وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه؛ فما هو بـالشعر قـالوا: فنقـول ساحـر قـال: ما هـو بساحـر لقد رأينـا السحار وسحـرهم فما هـو بنفثهم ولا عقدهم قالوا: فمـا نقول يـا أبا عبـد شمس؟ قال: والله إن لقـوله لحـلاوة، وان أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه بـاطل وأن أقرب اقول فيه لأن تقولوا هو سـاحر جـاء بقول هـو سحر يفـرق به بين المـرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدومهم الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره. فأنزل الله تعالى في الـوليد بن المغيرة قولـه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت لـه مالاً ممـدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد، كلا، إنه كان لآيـاتنا عنيـدا، سـأرهقه صعـودا، إنه فكـر وقدر، فقتـل كيف قدر، ثم قتـل كيف قـدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا

إلا قول البشر﴾[1]. وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ. فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها. فخشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه فقال قصيدته:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة، والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو، المزايل[2]

وقد حالفوا قوماً علينا أظنة ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل

صبرت لهم نفسي، بسمراء سمحة ... وأبيض عضب، من تراث المقاول[3]

وأحضرت عند البيت رهطي واخوتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل

قياماً معاً، مستقبلين رتاجه ... لدى حيث يقضي حلفه كل نافل

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفض السيول من أساف[4] ونائل

موسمة الأعضاد، أو قصراتها ... مخيسة بين السديس[5]، وبازل

وهي من قصيدته اللامية المشهورة، التي تربو على المائة بيت، وهي مذكورة بطولها في سيرة ابن هشام.

فلما رأى رسول الله ﷺ تعند قريش، وتصلبهم على مقاومته، وعدم الإنصاف منهم، وعدم التفاهم معهم. ضاق ذرعاً، فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه **﴿بسم الله الرحمن الرحيم طسم، تلك آيات الكتاب المبين، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين، وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا**

---

(١) الآية رقم ١١ وما بعدها من سورة المدثر.

(٢) المزايل: المباين.

(٣) المقاول: صاحب القول الحسن.

(٤) إساف ونائل: إسمان لصنمين كانا في الجاهلية.

(٥) السديس في الأنعام. ما بلغ ست سنين، والبازل ما زاد عن ذلك.

كانوا عنه معرضين، فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون﴾[1].

إيذاء المشركين له ﷺ

لما عجز المشركون من محاورة النبي ﷺ، ولم يجدوا لديهم من الحجج ما يردوا به دعوته ﷺ إلى الإسلام، بعد أن أفحمهم بحجج القرآن القاطعة، وبراهينه المحسوسة الظاهرة لديهم، أجمعوا على إيذائه كفراً، وحسداً وعناداً له، حيث إن الله سبحانه وتعالى، أكرمه بالرسالة دونهم، وفضله عليهم، وعلى غيرهم بالنبوة التي تميز بها عنهم.

فمن ذلك، إنه بينما كان ﷺ يصلي في المسجد، إذ قال أبو جهل بن هشام: ألا رجل يقوم إلى جزور آل فلان؟ فيعمد إل فرثها، ودمها وسلاها[2]، فيجيئني به، ثم يمهله حتى إذا سجد، وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم عقبة بن أبي معيط، وأتى به، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت رسول الله ﷺ ساجداً فضحكوا، حتى استلقى بعضهم على بعض من الضحك. فانطلق منطلق إلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهي جويرية، فأقبلت تسعى، فألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش»، ثم سمى فقال: «اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد»، فاستجاب الله دعاءه، وكلهم قتلوا بسيف الإسلام يوم بدر.

ومن ذلك كان رسول الله ﷺ، يطوف بالبيت، ويده على يد أبي بكر

---

(١) هذه الآيات الكريمة من أول سورة الشعراء.

(٢) السلي بسين مشدَّدة وفتح اللام: جلدة في البطن.

وكان في الحجر ثلاثة نفر من كفار قريش جلوساً، وهم عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، فمر رسول الله ﷺ فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف عثمان بن عفان ذلك في وجه النبي ﷺ فدنا منه وتوسط بينه وبين أبي بكر، فأدخل أصابعه في أصابعه، وطافوا. فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بل بحر صوفه، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا. فقال رسول الله ﷺ: «أنا على ذلك»، ثم مشى عنهم، فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان الشوط الرابع، قاموا له، ووثب أبو جهل، يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعه عثمان بن عفان في صدره، فوقع على استه، ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف. ثم قال: «أما والله لا تنتهون حتى يحل عليكم عقابه».

فما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم أنتم لنبيكم»، ثم انصرف إلى بيته، وتبعه أبو بكر، وعثمان، حتى إنتهى إلى باب بيته، ثم أقبل عليهما بوجهه فقال: «أبشروا، فإن الله عز وجل، مظهر دينه، ومتمم كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء ترون من يذبح منهم على أيديكم عاجلاً».

ومن ذلك ما وقع عليه ﷺ من المشركين، إنه اجتمع ساداتهم وكبراؤهم في الحجر: فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما صبرنا لأمر قط كصبرنا لأمر هذا الرجل، ولقد سفه أحلانا، وشتم أباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

فبينما هم على ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر طائفاً بالبيت، فلما مر عليهم لمزوه ببعض القول، فعرف ذلك في وجهه ﷺ، ثم مر بهم الثانية، فلمزوه بمثلها، فعرف ذلك في وجهه. ثم مر بهم الثالثة. فوقف عليه وقال: «أتسمعون يا معشر

قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح»، فارتعبوا لكلمته تلك وما بقي رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، فصاروا يقولون يا أبا القاسم، انصرف فوالله ما كنت جهولا.

فانصرف رسول الله ﷺ. فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغه منكم، وما بلغكم منه، حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به، وهم يقولون أنت تقول كذا وكذا ـ يعنون عيب آلهتهم ودينهم ـ فقال ﷺ: «نعم، أنا الذي أقول ذلك». فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ آل أبي بكر رضي الله عنه. فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد، فوجد رسول الله ﷺ والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم **﴿أتقتلوه رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾** [غافر ٢٨]؟ فكفوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر يضربونه.

ومنها أنه مر مرة أخرى عليهم وهم مجتمعون، فقاموا إليه ﷺ وجذبوا رأسه الشريفة ولحيته، حتى سقط أكثر شعرها. فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعهم يا أبا بكر، فوالذي نفسي بيده، إني بعثت إليهم بالذبح». فانفرجوا عنه.

ومن ذلك أنهم اجتمعوا مرة أخرى في الحجر، فقالوا: إذا مر محمد فليضربه كل منا بسيفه ضربة فنقتله. فسمعتهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ فدخلت على أبيها وهي تبكي، فقالت له: تركت الملأ من قريش قد تعاقدوا في الحجر، فحلفوا باللات والعزى، ومناة وإساف ونائلة، إذا هم رأوك قاموا إليك وضربوك بأسيافهم، حتى يقتلوك. فقال ﷺ: «اسكتي لا تبكي»، ثم خرج بعد أن توضأ، فدخل عليهم المسجد، فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا، فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحورهم، ثم قال: «شاهت

الوجوه». فما رجل منهم أصابه ذلك إلا قتل ببدر.

ومن ذلك كان إذا قرأ رسول الله ﷺ القرآن، وقف جماعة من المشركين عن يمينه، وعن يساره يصفقون، ويصفرون، ويخلطون عليه بالأشعار.

ومر أبو جهل يوماً برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه، ونال منه ما يكرهه من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، وكانت هناك مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها، تسمع ذلك وتبصره، فانصرف أبو جهل إلى نادي قريش في المسجد، فجلس معهم. فأقبل حمزة بن عبد المطلب متوشحاً قوسه، راجعاً من قنصه، وكان من عادته إذا رجع من قنصه لا يدخل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم، وتحدث معهم وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة فمر على تلك المولاة وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، فقالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمداً آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده ههنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى قام على رأسه رفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد على ذلك إن استطعت. فصار أبو جهل يتضرع إليه ويقول: سفه عقولنا، وسب آلهتنا وخالف آباءنا. فقال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقامت رجال من بني مخزوم عشيرة أبي جهل، لينصروا أبا جهل، فقالوا لحمزة: ما نراك إلا قد صبأت قال حمزة: ما يمنعني؟ وقد استبان لي في أنه رسول الله، والذي يقوله حق، والله لا أفزع فامنعوني إن كنتم صادقين؛ فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله قد أسمعت ابن أخيه شيئاً.

وكان المستهزئـون برسـول الله ﷺ الوليـد بن المغيرة، والأسـود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وأبـا جهل، وأبـا لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن العـاص بن أميـة، والعـاص بن وائـل، والحـارث بن عيطلة، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، وكان من أشد المستهزئين.

فجاء أبي يوماً إلى النبي ﷺ بعظم مفتوت في يديه، وقال: زعمت أن ربك يحيي هذا العظم؟ فنزلت: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾. ومن المستهزئين قيس بن الفاكه بن المغيرة، والنضر بن الحارث بن علقمة، وكان النضر من أشد قريش تكذيباً وإيذاء لرسول الله ﷺ. وكان يقرأ كتب الفرس ويخالط اليهود، والنصارى، وسمع بذكر النبي ﷺ ومبعثه، فقال: إن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم فنزلت: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ الآية، وكان يقول: إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين فنزلت فيه عدة آيات.

ومنهم نبيه ومنبه، (ابنا الحجاج السهمي) ومنهم زهير بن أبي أمية، ومالك بن الطلاطلة بن عمرو، وركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وكان يرمي رسول الله ﷺ بالسحر، وكان من استهزائهم به ﷺ أن أبا لهب يطرح القذر على باب رسول الله ﷺ.

فمر به حمزة يوماً وهو يفعل ذلك، فأخذ القذر وطرحه على رأسه، فجعل أبو لهب يقول وهو ينفض رأسه: صابىء أحمق. وكان عقبة بن أبي معيط يلقي القـذر أيضاً على بـابه ﷺ. وبصق في وجـه النبي ﷺ فعاد البصاق على وجهه وصار برصاً.

وكان النبي ﷺ لا يلتفت إلى كل ذلـك ولا إلى غيره من الإيـذاء والإستهزاء، بل كان يقاومهم جهده ويجد في نشر دعوته ويجير من يستجير به، فكان رسول الله ﷺ مرة جالساً في المسجد، ومن معه من أصحابه،

وإذا رجل من زبيد يطوف على قريش حلقة بعد أخرى، وهو يقـول: يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المارة، أو يجلب إليك جلب، أو ينزل بساحتكم تاجر، وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟ حتى إنتهى إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فقال له رسول الله ﷺ: «ومن ظلمك»؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال خيرة ابله فسامه بها أبو جهل بثلث أثمانها، ولم يسمه أحد لأجله فأكسدها عليه، فقال له ﷺ: «وأين جمالك»؟ فقال: هذه هي بالحزورة. فقام رسول الله ﷺ وقام أصحابه، فنظروا إلى الجمال، فرأى جمالاً حساناً فساوم ذلك الرجل حتى ألحقه برضاه، وأخذها رسول الله ﷺ فباع جملين منها بالثمن وأفضل بعيراً باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه، وكل ذلك وأبو جهل جالس في ناحية من السوق ولم يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال له: «إياك يا عمرو أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الرجل. فترى مني ما تكره» فجعل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله ﷺ، فأقبل على أبي جهل أميةُ بن خلف ومن معه من القوم، فقالوا له: ذللت في يد محمد فإما أن تكون تريد أن تتبعه، وأما رعب دخلك منه؟ فقال لهم: لا أتبعه أبداً إن الذي رأيتم مني لما رأيته، رأيت معه رجالاً عن يمينه ورجالاً عن شماله معهم رماح يشرعونها إليّ لو خالفته لكانت إياها.

ومن ذلك أن أبا جهل ابتاع من شخص يقال له: الأراشي نسبة إلى أراشة بطن من خثعم، أجمالاً فمطله بأثمانها، فوقف الرجل على نادي قريش فقال: يا معشر قريش من رجل يعينني على أبي الحكم بن هشام؟ فإني غريب، وابن سبيل، وقد غلبني على حقي.

فدلته قريش على النبي ﷺ لينصفه من أبي جهل استهزاء برسول الله ﷺ، لعلمهم بأنه لا يقدر على أبي جهل، فجاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له

حاله مع أبي جهل وقال له: قد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي حقي منه، فأشاروا إليك فخذ حقي منه يرحمك الله.

فخرج النبي ﷺ مع الرجل إلى أبي جهل وضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال: محمد فخرج إليه وقد امتقع لونه فقال له رسول الله ﷺ: «أعط هذا حقه»، قال: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له فدفعه إليه، ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً ـ يعني النبي ﷺ ـ فقد والله أخذ لي بحقي، وقد كانوا أرسلوا رجلاً ممن كان معهم خلف النبي ﷺ. وقالوا له: انظر ماذا يصنع؟ فسألوا الرجل ماذا رأيت؟ قال: رأيت عجباً والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه ومعه رمحه فقال: اعط هذا الرجل حقه. فقال: نعم فأخرج له حقه فعند ذلك قالوا: لأبي جهل ويلك ما رأينا مثل ما صنعت، قال: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت رعباً.

فهذا بعض ما وقع منهم من الأذى والاستهزاء برسول الله ﷺ.

إيذاؤهم لمن أسلم من أصحابه ﷺ

وأما ما وقع منهم في تعذيب من أسلم من الصحابة رضي الله عنهم فكانوا إذا سمعوا برجل أسلم له شرف ومنعة لاموه ووبخوه، وتهددوه وآذوه بقدر ما يتسنى لهم، وإن كان ضعيفاً ضربوه، وعذبوه أشد العذاب. ومما وقع لأبي بكر رضي الله عنه من الأذى، أنه خرج مع رسول الله ﷺ وأصحابه من دار الأرقم، حتى أتوا المسجد، فقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، ودعا إلى الله ورسوله، وهو أول خطيب في الإسلام دعا إلى الله تعالى، فثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوهم ضرباً شديداً ووطىء أبو بكر بالأرجل، وضرب ضرباً شديداً، وصار عتبة بن

ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين على وجهه، حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه، فجاءت بنو تيم يتعادون[1] فأجلت المشركين عن أبي بكر، إلى أن أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، فرجعوا إلى المسجد فقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة.

ثم رجعوا إلى أبي بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب، حتى إذا كان آخر النهار، تكلم، وقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فعذلوه، فصار يكرر ذلك، فقالت أمه: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل ـ بنت الخطاب ـ فاسأليه عنه ـ وأم جميل هي أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانت أسلمت وتخفي إسلامها ـ فخرجت أم أبي بكر إليها وقالت لها: إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله فقالت: لا أعرف محمداً ولا أبا بكر.

ثم قالت لها: تريدين أن أخرج معك، قالت: نعم، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً فصاحت وقالت: إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم، فقال لها أبو بكر: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت له: هذه أمك تسمع قال: فلا عين عليك منها.

قالت: سالم.

قال: أين هو؟

قالت في دار الأرقم.

فقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً، أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلته أمه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجت به أمه يتكىء عليها، حتى دخل على رسول الله ﷺ فرق له رقة شديدة، وأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون كذلك، فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله،

(١) يتعادون: يتسابقون عدواً.

ما بي من بأس، إلا ما نال الناس من وجهي، وهذه أمي برة بولدها فعسى الله أن يستنقذها من النار فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام فأسلمت.

وأما تعذيبهم لعمار بن ياسر، وأمه سمية، وأخيه عبد الله، فكانوا يعذبونهم أشد العذاب مرة بالنار، ومرة بالضرب، وغير ذلك من أنواع العذاب لأجل أن يخرجوهم من دين الإسلام. فمر بهم النبي ﷺ فقال: صبراً آل ياسر، صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة. فمات ياسر في العذاب، وأعطيت سمية أم عمار لأبي جهل يعذبها، وكان الذي أعطاها له عمه أبو حذيفة بن المغيرة، لأنها كانت مولاته، فأخذها أبو جهل وعذبها تعذيباً شديداً رجاء أن يفتنها في دينها، فلم تجبه لما يسأل ثم طعنها في فرجها بحربة فماتت، وكان أبو جهل يلبس عماراً درعاً من حديد في اليوم الصائف الشديد الحر ويطرحه في الرمضاء.

وأما خباب بن الأرت فكان يعذب بالنار، فكانوا يوقدون النار ويضعونها على ظهره فما يطفيها إلا ودك ظهره - أي شحم ظهره - فأتى النبي ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقال: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد رسول الله ﷺ محمراً وجهه، فقال له: إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه ليظهرن الله هذا الأمرَ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه.

وقد اشتد العذاب على الموالي، فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا مر بأحد من العبيد يعذب، اشتراه وأعتقه، فمن أولئك العبيد بلال بن رباح كان مولى أمية بن خلف الجمحي، وأمه حمامة.

وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، ولبيبة جارية بني المؤمل، والنهدية، وبنتها، وزنيرة، وأم عبيس، أمة بني زهرة.

فكان أمية بن خلف يخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه ليلة ويوماً، فيطرحه على ظهره في الرمضاء إذا اشتدت حرارتها بحيث لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللآت والعزى، فيأبى ذلك ويقول: أحد، أحد.

ومر به ورقة بن نوفل وهو يعذب ويقول: أحد أحد فقال ورقة: نعم أحد أحد، والله يا بلال.

ثم قال ورقة لأمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جمح - «والله لأن قتلتموه لأتخذنه حناناً».

وكانوا يعطونه للولدان، فيربطونه بحبل ويطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد. فيخرج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان.

فمر به أبو بكر رضي الله عنه وهو يعذب وعلى صدره صخرة عظيمة، فقال لأمية بن خلف: ألا تتق الله في هذا المسكين؟ فقال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى.

قال أبو بكر: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك أعطيكه به، قال: قبلت هو لك، فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالاً فأعتقه.

واشترى أم بلال حمامة وهي تعذب وأعتقها.

واشترى عامر بن فهيرة وهو يعذب في الله حتى لا يدري ما يقول، وكان لرجل من بني تيم من قرابة أبي بكر فأعتقه.

واشترى أخت عامر وأمه وكانتا لعمر بن الخطاب وكان يعذبهما فأعتقهما.

واشترى أبا فكيهة وهو يعذب وكان عبداً لصفوان بن أمية، فكان

صفوان يربط في رجله حبلاً ويجره في نصف النهار، في شدة الحر، مقيداً إلى الرمضاء، فيضع على بطنه صخرة، فيخرج لسانه من شدة العذاب، وكان أمية بن خلف والد صفوان يقول له: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره. فاشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه.

واشترى أبو بكر رضي الله عنه، أم عبيس وأعتقها. وكانت أمة لبني زهرة، فكان الأسود بن عبد يغوث الزهري يعذبها واشترى أيضاً أبو بكر ابنتها لطيفة وأعتقها.

واشترى أبو بكر لبيبة جارية المؤمل بن حبيب وأعتقها.

واشترى أبو بكر رضي الله عنه زِنِّيرة وكانت أمة عمر بن الخطاب، وكان يعذبها ومعه جماعة من قريش فتأبى إلا الإسلام، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون إلى هؤلاء وأتباعهم؟ لو كان ما يأتي به محمد خيراً ما سبقونا إليه أفتسبقنا زنيرة إلى رشد؟

ولما اشتد الضرب والعذاب على الزِنِّيرة عميت، وذهب بصرها، فقال لها المشركون: ما أصاب بصرك إلا اللات والعزى، فقالت لهم: والله ما هو كذلك، وما تدري اللات والعزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء وربي قادر على أن يرد عليَّ بصري، فرد الله عليها بصرها صبيحة تلك الليلة، فقالت قريش هذا من سحر محمد، فأعتقها أبو بكر رضي الله عنه.

هذا بعض ما كان يصنعه المشركون، من تعذيب الموالي والمستضعفين من المسلمين، ليكرهوهم على الخروج من دين الإسلام. فلو كان دين الإسلام باطلاً لما ثبت هؤلاء على دينهم رغم ما نالوه من العذاب على تركه. وقد ظهر بعد ذلك ـ كما سيأتي ـ أنّ معظم هؤلاء الذين امتحنوا في دينهم، قد مكنهم الله تعالى ممن عذبهم فأخذوا بثأرهم، وانتقموا منهم، وصار بعضهم سادة عليهم.

وكان المسلمين مجتمعين يوماً فقالوا: ما سمعت قريش القرآن جهراً من رسول الله ﷺ فمن منكم يسمعهم القرآن جهراً؟ فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنا، فقالوا: نخشى عليك منهم، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم. فقال: دعوني فإن الله سيمنعني منهم.

ثم إنّه قام عند مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام، في المسجد وقت طلوع الشمس وقريش في أنديتهم، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، الرحمن علم القرآن»، واستمر فيها رافعاً صوته، فقالوا: ما بال ابن أم عبد؟ فقال بعضهم: يتلو بعض ما جاء به محمد. ثم قاموا إليه يضربون وجهه، وهو مستمر في قراءتها حتى قرأ غالب السورة ثم انصرف إلى أصحابه وقد دمي وجهه. فقال له أصحابه: هذا الذي خشينا عليك منه، فقال: والله ما رأيت أعداء الله أهون عليَّ مثل اليوم، ولو شئتم لأتيتهم بمثلها غداً. فقالوا: لا قد أسمعتهم ما يكرهون.

وكان الصحابة رضي الله عنهم مجدين في بث الدعوة مع النبي ﷺ ويحاولون كل الأوجه التي يمكن بها التفاهم مع قومهم، وعشيرتهم، ولكن المعاندين منهم لا يريدون التفاهم أبداً، ولا يصغون إلى حديثهم ولا يحبون أن يستمعوا القرآن بالأخص منهم، ولا يرون أثقل منهم لأنهم يفهمون أنهم على الحق.

ولكن الحسد قد أخذ من أسماعهم، وأبصارهم، وقلوبهم كل مأخذ. فلذلك ينفرون منهم، ويبعدون كل البعد عن سماع القرآن، لأنه أعظم موبخ لهم على حالتهم التي هم عليها من الكفر والعناد والضلال والغي، ومع ذلك كله فإن أصحاب رسول الله ﷺ مجدون في عملهم، ولا يثني عزمهم شيء مهما عظم وكبر عن بث الدعوة إلى الإسلام مهما استطاعوا، أملاً أنهم ينجحون ولو بعض النجاح، بواسطة التفاهم مع من يجدون فيه بعض الإصغاء اقتداء برسول الله ﷺ. لأن العناد كان مستحكماً

في أدمغتهم إلا من هداه الله تعالى منهم.

وقد نجحوا بجهودهم، ومساعيهم. فأخذ يدخل في الإسلام كل من أراد الله له بالهداية، من رجال ونساء وموالٍ.

وتتابع الناس ممن صغى إلى القرآن وظهو نوره واضحاً أمامه كالشمس في رابعة النهار. لأن التفاهم مع من يريد التفاهم منهم سهل جداً، لكونهم أمة واحدة، ولغتهم واحدة، والذكاء مفرط فيهم. ولذلك نجد بعضهم يؤمن حال سماعه للقرآن، فيرسخ في قلبه بمجرد السماع مرة واحدة. ثم يعذب العذاب الأليم بعد ذلك على الخروج منه والكفر به فلا يخرج منه. ولو قرض لحمه بالمقاريض. وهذا أعظم دليل على أن الإيمان هو نور إلهي متى دخل القلب لا يخرج منه.

وأما الذين ارتدوا منهم فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم. ولو دخله لما ارتدوا أبداً، مهما عذبوا، ولو قطعت رقابهم؛ والدليل على ذلك ما وقع على المستضعفين من أنواع العذاب، وهم في أشد حالات التعذيب يقول أحدهم: أحد أحد، حيث إن الإيمان لم يكن مصلحة شخصية مجردة. إذا حاول الإنسان إنالتها بالتي هي أحسن وبما استطاعه من الحيل على الوصول إليها، فإذا استعصت عليه تركها، وإذا تحصل عليها ثم أكره على تركها تركها غير آسف عليها. بل الإيمان غير ذلك. فإنه نور متى دخل القلب سكنه، ولم يخرج منه أبداً. وقد عرف الإيمان من ذاق حلاوته، والذي لم يدخل الإيمان قلبه، ولم يذق حلاوته، فلا يعرف له طعماً، ولا يستطيع له فهماً، ولا يمكن تصوره له بالوصف. والمكابرة في ذلك لا محل لها.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

وقعت في شهر رجب، من ال نة الخامسة للبعثة النبوية، وذلك أنه لما رأى رسول الله ﷺ، أن المشركين يشتدون في أذى أصحابه، ويبالغون في تعذيبهم، ولا يستطيع أن يكفهم عنهم، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

فخرج إليها كل من خاف الفتنة، فراراً إلى الله بدينه، فكان الذي هاجر إليها أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة.

أما الرجال فهم: (١) عثمان بن عفان (٢) عبد الرحمن بن عوف (٣) الزبير بن العوام (٤) أبو حذيفة بن عتبة (٥) مصعب بن عمير (٦) أبو سلمة بن عبد الأسد (٧) عثمان بن مظعون (٨) عامر بن ربيعة (٩) سهيل بن بيضاء[1] (١٠) أبو سبرة بن أبي رهم العامري (١١) حاطب بن عمرو العامري.

وأما النساء فهن: (١) رقية بنت النبي ﷺ زوجة عثمان بن عفان (٢) سهلة بنت سهل امرأة أبي حذيفة (٣) أم سلمة بنت أبي أمية امرأة أبي سلمة (٤) ليلى بنت أبي خيثمة امرأة عامر بن ربيعة. وكان عليهم عثمان بن مظعون.

وكان أول من خرج عثمان بن عفان، مع زوجته رقية رضي الله

---

(١) وهو سهيل بن وهب بن ربيعة من بني حنبة بن الحارث [المصحح].

عنهما. فقال رسول الله ﷺ: «إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد نبي الله لوط عليه السلام».

وتتابع المهاجرون، منسلين براً، مشاة إلى أن وصلوا الساحل ثم استأجروا سفينة بنصف دينار. فلما سمعت قريش بهجرتهم خرجوا في أثرهم حتى جاءوا إلى البحر، حيث ركبوا فلم يدركوهم. فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهم، فقدمت امرأة فقالت: قد رأيتهما وقد حمل عثمان امرأته على حمار، فقال رسول الله ﷺ: «صحبهما الله»، ولما وصلوا الحبشة أكرمهم النجاشي، وأقاموا عنده آمنين. وقالوا: جاورنا بها خير جار على ديننا وعبدنا الله تعالى، لا نؤذىٰ ولا نسمع شيئاً نكرهه. فمكثوا بأرض الحبشة بقية رجب وشعبان إلى رمضان، فبلغهم أن عظماء قريش أسلموا، واصطلحوا مع رسول الله ﷺ، فقال المهاجرون: من بقي بمكة إذا أسلم هؤلاء؟ عشائرنا أحب إلينا. فخرج جماعة، منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعثمان بن مظعون، وذلك في شوال سنة خمس من البعثة حتى وصلوا دون مكة بساعة، لقوا ركباً فسألوهم عن قريش فقالوا لهم: ذكر محمد آلهتهم بخير.

وذلك أن رسول الله ﷺ قرأ سورة ﴿**والنجم إذا هوى**﴾ حتى بلغ ﴿**أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى**﴾[1] فألقى الشيطان في أمنية قريش تلك الغرانيق[2] العلا، وان شفاعتهن لترتجى. فظنوا أن النبي ﷺ تلا

---

(١) اللات: صنم كان لثقيف بالطائف. وبعضهم يقول: أنه كان (بنخلة) بين مكة والطائف. والعزى، بضم العين وفتحة مشدودة على الزاى بعدها ألف مقصورة: صنم لبنى كنانة، وكان بنخلة، أيضاً. ومناة: صنم كان للأوس والخزرج ومن تابعهم، وكان «بقديد»، وقديد: بضم القاف قرية بين مكة والمدينة. على طريق الحجاج. وقد هدمت كل هذه الأصنام، في عام الفتح، بأمر رسول الله ﷺ.

(٢) الغرانيق جمع غرنيق بالفتح وبالكسر، أما إذا ضمت الغين فيقال: غرنوق: وهو طائر مائي شبيه بأبي قردان المعروف في مصر إلا أن ذيل الغرنيق يختلف عن ذيل

ذلك ضمن السورة، ففرحوا، لكونه مدح آلهتهم، فلما بلغ السجدة من السورة سجدوا معه.

ثم لما عاد لشتم آلهتهم عادوا بالشر.

فلما بلغ من عاد من الحبشة أن قريشاً لا يزالون على ما هم عليه من الشرك، والأذى، تشاغوروا في الرجوع إلى أرض الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا مكة، فندخل لننظر ما فيه قريش، فدخل بعضهم في جوار، وبعضهم مستخفياً.

إسلام عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب، بن نوفل، بن عبد العزىٰ، بن رباح، بن عبد الله، بن قرط بن رزاح، بن عدي، بن كعب القرشي العدوي.

وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي. ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، كان طويلاً جسيماً أصلع أشعر شديد الحمرة، كثير السبلة، في أطرافها صهوبة، وفي عارضه خفة.

كان إذا رآهُ رسول الله ﷺ ورأى أبا جهل عمرو بن هشام، يقول: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام».

فكان أحبهما إلى الله تعالى عمر بن الخطاب، وكان عمر من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقع بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر، رضوا به، وبعثوه منافراً، أو مفاخراً، وكان من أشد الناس على رسول الله ﷺ.

= أبي قردان ويوصف جمال الشاب الأبيض والفتاة البيضاء الرشيقة. فيقال فتى غرانق، وفتاة غرانق، أو غرانقة.

[قصة الغرانيق ماطلة مختلفة اخترعها بعض الوضّاعين إمّا جهلاً وتكثّراً من الأخبار: وإمّا كيداً وعناداً ومحاربةً لدين الله. المصحح].

وسبب إسلامه أنه كان في يوم شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيه نعيم بن عبد الله النحام القرشي العدوي، وكان قد أسلم وكتم إسلامه فقال له: أين تذهب يا عمر؟ إنك الصلب القوي في دينك، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك.

قال: وما ذاك؟

قال: أختك قد صبأت، فرجع، وقد كان النبي ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند رجل به قوة، فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، وقد ضم إلى سعيد بن زيد زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، خباب بن الأرت، وكان يختلف إليهما، يعلمهما القرآن، فلما جاء عمر قرع الباب، فقيل من بالباب؟ فقال: ابن الخطاب، وكانوا جلوساً يقرأون في صحيفة، فقامت أخته فاطمة ففتحت له الباب، فدخل عليها، فقال: يا عدوة نفسها، قد بلغني عنك أنك قد صبأت.

فوثب على ختنه سعيد بن زيد، وأخذ بلحيته، وضرب به الأرض، وجلس على صدره، فجاءت لتكفه عن زوجها، فلطمها لطمة شج بها وجهها، فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، وغضبت وقالت له: أتضربني يا عدو الله؟ على أن أوحد الله، لقد أسلمت على رغم أنفك يا ابن الخطاب، فما كنت فاعلاً فافعل.

قال عمر رضي الله عنه: فاستحييت حين رأيت الدم، فقمت وجلست على سرير وأنا مغضب، فنظرت، فإذا كتاب في ناحية البيت فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه أنظره ـ وكان عمر قارئاً ـ فقالت أخته: لا أعطيكه، لست من أهله أنت، لا تغتسل من الجنابة، ولا تتطهر، ولا يمسه إلا المطهرون.

قال عمر: فما زلت بها حتى أعطتنيه، فإذا فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت، ورميت بالصحيفة من يدي وجعلت أفكر، ثم رجعت إليه، فإذا فيه ﴿سبح لله ما في السموات

والأرض﴾ حتى بلغ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ إلى قوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فخرج القوم ينادون بالتكبير استبشاراً بما سمعوا مني، ثم قالوا: يا ابن الخطاب، أبشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الإثنين فقال: اللهم أعز الإسلام بعمر أو بعمرو، وأنا نرجو أن تكون دعوته لك. فقلت: أخبروني بمكان رسول الله ﷺ، قالوا: هو في أسفل الصفا، فجئت إلى رسول الله ﷺ في دار الأرقم، حيث كان ﷺ مختفياً فيها بمن معه من المسلمين، فقرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، قال: وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ ولم يعلموا بإسلامي، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب، فقال ﷺ: «افتحوا»، فلم يرد الله به خيراً يهده، وقال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، لما رأى وجل القوم: افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يسلم ويتبع النبي ﷺ، وإن يرد غير ذلك، كان قتله هينا، ففتحوا له، قال عمر: فدخلت وأخذ حمزة بيميني، والزبير يساري حتى دنوت من النبي ﷺ فقال: «أرسلوه»، فأرسلوني، فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع ثيابي فجذبني إليه جذبة شديدة، ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم أهدِ قلبه، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة[1].

---

(١) أورد ابن هشام قصة إسلام عمر وسببه على غير ما أورده المؤلف: وننقل نص ابن هشام كما ورد:

اعتزاز المسلمين بإسلام عمر:

قال ابن إسحاق: ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قُرَيش، ولم يُدركوا ما طلبوا من أصحابِ رسول الله ﷺ، وردّهما النجاشيُّ بما يكرهون، وأسلم عمرُ بن الخطّاب، وكان رجلًا ذا شَكيمة لا يُرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحابُ رسولِ الله ﷺ وبحَمْزة حتى عازُّوا قُرَيشاً، وكان عبدُ الله بن مسعود

= يقول: ما كنّا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر (بن الخطّاب)، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلّينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج مَنْ خَرج من أصحاب رسولِ الله ﷺ إلى الحبشة.

قال البكائي، قال: حدثني مسعر بن كِدَام، عن سَعْد بن ابراهيم، قال: قال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنّا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلّينا معه.

حديث أم عبد الله عن إسلام عمر:

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عيّاش بن أبي رَبيعة، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أمّه أمّ عبد الله بنت أبي حَثْمة، قالت:

والله إنّا لنترحّل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامرٌ في بعض حاجاتنا، إذا أقبل عمر بن الخطّاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ـ قالت: وكنّا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدّة علينا ـ قالت: إنه للإنطلاق يا أمّ عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجنّ في أرض الله، ورأيت له رِقّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خُروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيتَ عمرَ آنفاً ورقّته وحُزْنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه قالت: قلت: نعم؛ قال: فلا يُسلم الذي رأيتِ حتى يُسلم حمار الخطّاب، قالت: يأساً منه، لِما كان يُرى مِنْ غِلْظته وقَسْوته عن الإسلام.

حديث آخر عن إسلام عمر:

قال ابن إسحاق: وكان إسلامُ عمرَ فيما بلغني أنّ أُختَه فاطمةَ بنت الخطّاب، وكانت عند سَيد بن عَمْرو بن نُفيل، وكانت قد أسلمتْ وأسلم بعلُها سعيدُ بن زيد، وهما مُستخفيان بإسلامهما من عُمر، وكان نُعيم بن عبد الله النحّام، رجل من قومه، من بني عديّ بن كَعْب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فَرَقاً من قومه، وكان خبّاب بن الأرَتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطّاب يُقرئها القرآن، فخرج عمرُ يوماً متوشّحاً سيفَه يريد رسولَ الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصفا، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسولِ الله ﷺ عمُّه حمزةُ بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قُحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع

= رسولِ الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمرُ؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابىء، الذي فرَّق أمرَ قُرَيش، وسفَّه أحلامَها، وعاب دِينَها، وسبَّ آلهتها، فأقتُله؛ فقال له نُعيم: والله لقد غرّتك نفسُك مِنْ نفسِك يا عمر، أترى بني عبد مناف تارِكيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرَهم؟ قال: وأيّ أهل بيتي؟ قال: خَتَنُك وابن عمِّك سَعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمةُ بنت الخطَّاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما؛ قال: فرجع عمرُ عامداً إلى أخته وخَتنه، وعندهما خبَّاب بن الأرتّ معه صحيفةٌ، فيها: «طه» يقرئهما إيَّاها، فلما سمعوا حسّ عمر، تغيَّب خبَّاب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمةُ بنت الخطَّاب الصحيفةَ فجعلتها تحت فخذها، وقد سَمِع عمرُ حين دنا إلى البيتِ قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَينمةُ التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعت شيئاً؛ قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بخَتنه سعيد بن زيد؛ فقامت إليه أختُه فاطمة بنت الخطَّاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجَّها؛ فلما فعل ذلك قالت له أخته وختَنه: نعم قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سَمِعْتُكم تقرءون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً؛ فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنَّا نَخْشاك عليها؛ قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردَّنها إذا قرأها إليها؛ فلما قال ذلك، طمعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نَجَس، على شركك، وأنه لا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصَّحيفةَ وفيها: «طه»(٢). فقرأها؛ فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلامَ وأكرمَه! فلما سمع ذلك خبَّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدَعْوة نبيِّه، فإني سَمِعته أمس وهو يقول: اللهمّ أيِّد الإسلام بأبي الحَكَم بن هشام، أو بعُمر بن الخطَّاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسْلم؛ فقال له خبَّاب: هو في بيت عند الصَّفا، معه فيه نَفَر من أصحابه، فأخذ عمرُ سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم البابَ؛ فلما سمعوا صوته قام رجلٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فنظر من خَلل الباب فرآه متوشِّحاً السيفَ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فَزِع، فقال: يا رسول الله، هذا عمرُ بنُ الخطَّاب

متوشّحاً السيفَ؛ فقال حمزةُ بن عبد المطّلب: فأْذن له، فإن كان جاء يريد خَيْراً بَذَلْناه له، وإن كان (جاء) يريد شراً قتلناه بسيفه؛ فقال رسولُ الله ﷺ: إئذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسولُ الله ﷺ حتى لَقيه في الحجرة، فأخذ حُجزْته، أو بمجمع ردائه، ثم جَبَذه (به) جبذةً شديدةً، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطّاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهِي حتى يُنزل الله بك قارعةً، فقال عمرُ: يا رسولَ الله، جِئْتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ قال: فكبر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عرَف أهلُ البيت من أصحاب رسولِ الله ﷺ أن عمرَ قد أسلم.

فتفرّق أصحابُ رسولِ الله ﷺ من مكانهم، وقد عَزّوا، في أنفسهم حين أسلم عمرُ مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيَمْنَعان رسولَ الله ﷺ، ويَنْتصفون بهما من عدوّهم. فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمرَ بن الخطّاب حين أسلم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح المكي، عن أصحابه: عطاء، ومجاهد، أو عمَّن روى ذلك: أنّ إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مُباعداً، وكنت صاحبَ خَمْر في الجاهليَّة. أحبُّها وأُسرّ بها، وكان لنا مجلسٌ يَجتمع فيه رجال من قُرَيشٍ بالحَزْوَرة، عند دُور آل عمر بن عَبْد بن عِمْران المخزومي، قال: فخرجت ليلةً أُريد جُلسائِي أولئك في مَجْلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئتُ الكعبةَ فطُفْت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئتُ المسجدَ أُريد أن أطوفَ بالكعبة، فإذا رسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشامَ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُصلاه بين الرُّكنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين دنوتُ منه أستمع منه لأروِّعنَه؛ فجئت من قِبَل الحجْرِ، فدخلت تحت ثيابها، فجعلتُ أمشي رويداً، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلّي يقرأ القرآن، حتى قمت في قِبلته مستْقبلَه، ما بيني وبينه إلا ثيابُ الكعبة. قال: فلما سمعتُ القرآنَ رقّ له قلبي، فبكيتُ ودخلني الإسلامُ، فلم أزلْ قائماً في مكاني ذلك، حتى قضَى رسول الله ﷺ صلاتَه، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار عبَّاس بن المطّلب، وبين دار ابن أزْهر بن عبد عَوْف الزهري، ثم على دار الأخنس بن شَريق، حتى يدخل بيتَه. وكان مسكنُه ﷺ في الدار الرَّقطاء؛ التي كانت بيدَيْ مُعاويةَ بنِ أبي سفيان. قال عمر رضي الله عنه: فتبعتُه حتى إذا دخل بين دار عبَّاس، ودار ابن أزْهر، أدركتُه؛ فلما سمع رسولُ الله ﷺ حسِّي عَرَفني، فظن رسولُ ﷺ أنّي تَبِعتْه لأُوذيه =

قال عمر: وكان الرجل إذا أسلم استخفى بإسلامه، فقلت: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟

فقال ﷺ: «بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم، وإن

فَنَهمني، ثم قال: ما جاء بك يابن الخطّاب هذه الساعةَ؟ قال: قلت: (جئت) لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ قال: فحَمِد الله رسولُ الله ﷺ، ثم قال: قَد هَداك الله يا عمر، ثم مَسح صَدْري، ودعا لي بالثَّبات، ثم انصرفتُ عن رسولِ الله ﷺ، ودخل رسولُ الله ﷺ بيتَه.
قال ابن إسحاق، والله أعلم أي ذلك كان.

ذكر قوة عمر في الإسلام وجلده:

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن ابن عمر، قال: لما أسلم أبي عمرُ قال: أيّ قريش أنْقَلُ للحديث؟ فقيل له: جَميل بنَ معْمر الجُمحي. قال: فغدا عليه. قال عبد الله بن عُمر: فغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلامٌ أعقِل كلَّ ما رأيتُ، حتى جاءه، فقال له: أعلمتَ يا جميلُ أنّي قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجرّ رداءه واتّبعه عمر، واتبعتُ أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صَرَخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن عمر بن الخطّاب قد صبَا.
قال: (و) يقول عمرُ من خلفه: كَذَب، ولكني قد أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدُه ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يُقاتلهم ويُقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم. قال: وطَلِح، فقَعد وقامُوا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنّا ثلاث مئة رجلٍ (لقد) تركناها لكم، أو تركتموها لنا؛ قال: فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخٌ من قريش، عليه حُلّة حِبْرة، وقميصٌ مُوَشّى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنُكم؟ قالوا: صبَا عمر؛ فقال: فمَه، رجلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عديّ بن كعب يُسلمون لكم صاحبَهم هكذا! خلُّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشِط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجلُ: الذي زجر القومَ عنك بمكة يوم أسْلمت، وهم يُقاتلونك؟ فقال: ذاك، أي بُنيّ، العاصُ بن وائل السهمي.
قال ابن هشام: وحدثني بعضُ أهل العلم، أنه قال: يا أبتِ، مَنِ الرجلُ الذي زَجر القومَ عنك (بمكة) يوم أسلمتَ، وهم يقتلونك، جزاه الله خيراً.

حييتم، قلت: ففيم الخفاء يا رسول الله؟ علام نخفي ديننا؟ نحن على الحق، وهم على الباطل، فقال ﷺ: «يا عمر، إنا قليل وقد رأيت ما لقينا.

فقال عمر: والذي بعثك بالحق نبياً، لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان، فغدا عمر إلى جميل بن حبيب ـ وكان ينقل الحديث ولا يكتم شيئاً ـ فقال له عمر: أعلمت يا جميل؟ أني قد أسلمت، ودخلت في دين محمد. فقام جميل يجر رداءه وتبعه عمر، حتى إذا قام على باب المسجد، صرخ جميل بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة: ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر من خلفه: كذب، ولكن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقام الناس إليه يضربونه ويضربهم، فما زالوا كذلك، حتى قال خاله أبو جهل: من هذا؟ قالوا: ابن الخطاب، فقام على الحجر وأشار بكمه ألا أني أجرت ابن أختي، فانكشف الناس عنه لجلالة خاله عندهم.

ثم ذهب عمر رضي الله عنه إلى داره، فاجتمعت قريش عند داره، فجاء العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو بن العاص، وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير، فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني لأني أسلمت.

قال: لا سبيل إليك بعد أن أمنت فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه، فأنا له جار، فكر الناس، وانصرفوا، ثم رد عمر رضي الله عنه إلى العاص جواره، قال عمر: فما زلت أضرب، وأضرب، حتى أعز الله الإسلام. وكان إسلامه سنة ست من البعثة، وعمره ست وثلاثون سنة، وقد أعز الله الإسلام بإسلامه.

ثم أسلم بدار الأرقم بعد عمر: خالد، وإياس وعامر وعاقل (أبناء البكير) بن عبد ياليل بن ناشب بن مغيرة بن سعد بن ليث، بن بكر، بن

عبد مناة الليثي، حليف بني عدي. وأسلم الحارث بن خالد بن صخر بن عامر القرشي التيمي.

وأسلم الحارث بن سعيد بن عبد قيس بن لقيط الفهري، القرشي.

وأسلم الحارث بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم القرشي السهمي. كان أحد أشراف قريش في الجاهلية، وله كانت الحكومة، والأموال التي كانوا يسمونها لآلهتهم.

وأسلم مع الحارث ابناه: بشير، ومعمر.

وأسلم خالد بن حزام بن خويلد القرشي، الأسدي، أخو حكيم بن حزام.

وأسلم سفيان بن معمر، بن حبيب القرشي الجمحي. وأسلم معه ابناه جابر، وجنادة، وامرأته حسنة، وهي أمهما، وأم شرحبيل بن حسنة. وأسلم هشام بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي القرشي.

وأسلم طليب، بن عمير بن وهب، بن كثير، بن عبد، بن قصي، وأسلمت أمه أروى، بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ. وسبب إسلامها، أنه لم أسلم ابنها طليب بن عمير، دخل على أمه أروى بنت عبد المطلب، فقال لها: قد أسلمت، وتبعت محمداً، وما يمنعك أن تسلمي، وقد أسلم أخوك حمزة؟؟ قالت: انظر ما يصنع أخواي؟ قال: فإني أسألك بالله إلا أتيته فسلمت عليه، فأتته فسلمت عليه، وقالت: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وصارت تعضد النبي ﷺ بلسانها، وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره.

ويعد من مسلمي دار الأرقم، مصعب بن عمير الذي تقدم إسلامه، وأم أبي بكر الصديق التي تقدم إسلامها أيضاً.

خروج النبي ﷺ من دار الأرقم

فما زال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه بعد إسلامه، يراجع النبي ﷺ في الخروج من دار الأرقم، إلى المسجد، حتى وافقه على ذلك، فخرجوا في صفين في أحدهما عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي الآخر حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، حتى دخلوا المسجد، ولهم كديد ككديد الطحين، أي لهم ضجة وغبار، من تكبيرهم، وتهليلهم، ومشيهم، فنظرت قريش إليهم، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها قبل، فسمى رسول الله ﷺ عمر الفاروق، لأن الله سبحانه وتعالى فرق به بين الحق والباطل.

تآمر قريش على قتل النبي ﷺ

لما رأت ذلك قريش من عزة النبي ﷺ بمن معه، وإسلام عمر بن الخطاب، وغيره، ممن أسلم بدار الأرقم من أشرافهم، وعزة من هاجر إلى الحبشة، وفشو الإسلام في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم، وبني المطلب، وأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم[1] ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك، حتى كفارهم، وقد فعلوا ذلك حمية على عادتهم العربية في المناصرة، وانخذل عنهم بنو عمهم عبد شمس، ونوفل، فهجاهم أبو طالب في قصيدته اللامية بقوله:

جزىٰ الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلا غير آجل

(١) شعبهم: أي شعب بني هاشم وهو في شرق الحرم المكي الشريف. وهو الآن حي من أحياء مكة يقال له: شعب علي، أو سوق الليل. وبهذا الحي المكان الذي ولد فيه رسول الله ﷺ. وهو من الآثار الخالدة الباقية على الزمن. ما دام على الأرض مؤمنون برسالة الإسلام.

كتاب الصحيفة

فلما رأت قريش ما صنع أبو طالب، من حماية النبي ﷺ، اجتمعوا، وائتمروا فيما بينهم، وقرروا أن يكتبوا كتاباً، يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، أن لا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، وأن لا يبيعوا منهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوا تلك الصحيفة في جوف الكعبة، والذي كتبها منصور بن عكرمة، بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، بن قصي فشلت أصابعه، وكان ذلك في غرة المحرم سنة سبع من البعثة النبوية، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، إلا أبا لهب، فكان من المشركين، وكان اجتماعهم وتحالفهم ومكاتبتهم في خيف بني كنانة ـ وهو المحصب من منى ـ ولما فارقهم أبو لهب وظاهر عليهم قريشاً، لقي هنداً بنت عتبة، فقال: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقها وظاهر عليها؟ قالت: نعم فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة.

حالتهم في الشعب وشدة المقاطعة

ومضى على ذلك مدة، وهم متقاطعون لا يبايعونهم، ولا يكلمونهم، حتى إنهم جهدوا في الشعب، وكانوا يأكلون الخبط[1] وورق الشجر، من قلة وجود الطعام، وكانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحدهم بالسوق، ليشتري شيئاً من الطعام ليقتاتوا به، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر قريش غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فقد علمتم حالي، ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً مضاعفة، حتى

(١) الخبط: هو ورق الشجر، لا يقع على الأرض إلا بالمخابط.

يرجع الرجل منهم إلى أطفاله وهم يتضورون من الجوع وليس لديهم شيء يعللونهم به.

وكان بعض أفراد قريش يواصلونهم ببعض الطعام سراً، وذلك إما لقرابة أو شهامة، وكان ممن وصلهم في الشعب، هشام بن عمرو العامري بما يقدر من الطعام، فأدخل عليهم في ليلة، ثلاثة أحمال طعاماً، فعلمت قريش بذلك فمشوا إليه حين أصبح، فكلموه، فقال: إني غير عائد لشيء خالفتكم فيه. فانصرفوا عنه، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم حملاً، فغالظته قريش في القول وهموا بقتله، فقال لهم أبو سفيان بن حرب: دعوه رجل وصل أهله ورحمه أما إني أحلف بالله، لو فعلنا مثل ما فعل لكان أحسن بنا.

وكان ممن يصلهم بالطعام أيضاً، حكيم بن حزام، فلقيه أبو جهل مرة، ومع حكيم غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة رضي الله عنها، في الشعب فقال أبو جهل لحكيم: تذهب بالطعام لبني هاشم، والله لا تذهب أنت وطعامك، حتى أفضحك بمكة، فحضرهما أبو البختريّ فقال لأبي جهل: مالك وماله، فقال له أبو جهل: يحمل طعاماً لبني هاشم. فقال له أبو البختريّ: طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها به؟ خل سبيل الرجل. فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من الآخر، فأخذ أبو البختريّ بلحي بعير، فضرب به أبا جهل وشجه، ووطئه وطئاً شديداً، فانكف عن ذلك.

وكان أبو طالب مدة إقامتهم بالشعب، يأمر النبي ﷺ كل ليلة أن يأتي فراشه، حتى يراه كل من أراد به شراً، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو اخوانه، أو بني عمه، أن يضطجع على فراش النبي ﷺ ويأمره هو أن يأتي بعض فراشهم فيرقد عليها، وفي ذلك يقول أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا   لؤيا وخصا من لؤيٍّ بني كعب

ألم تعلمـوا أنـا وجـدنـا محمـداً نبياً، كموسى خط في اللوح، والكتب
وأن عـليـه في الـعـبـاد محـبـة ولا خيـر فيمن خصـه الله بـالخب
وإن الـذي ألصقتم مـن كتـابـكم لكم كائناً نحساً، كراغيـة السقب[1]
أفيقوا، أفيقوا، قبل أن يحفر الثرى ويصبح من لم يجن ذنباً، كذي ذنب
ولا تتبعوا أمـر الـوشـاة وتقـطعـوا أواصـرنـا، بعـد المـودة والقـرب
وتستجلبـوا حـربـاً عـوانـا، وربمـا أمـر على من ذاقـه حلب الحـرب
فلسنـا ورب البيت، نسلم أحمـدا لعـزاء من عض الـزمـان ولا كـرب
ولمـا تبـنِ منـا ومـنكـم سـوالف وأيـد أثـرت بـالقسـاسيـة[2] الشهب
بمعتـرك ضيق، تـرى كسـر القنـا به والنسور الطخُم يعكفن كالشرب
كـأن ضحـال الخيـل في حجـراتـه ومعمعـة الأبـطال معـركـة الحـرب
أليس أبـونـا هـاشم شـد أزره؟ وأوصى بنيـه بالـطعان، وبـالضرب
ولسنـا نمـل الحـرب حتى تملنـا ولا نشتكي ما قد ينـوب من النكب
ولكننـا أهـل الحفـائظ والنـهي إذا طـار أرواح الكمـاة من الـرعب

وقال في قصيدة أخرى:

أطـاعـوا ابن المغيـرة وابن حـرب كـلا الـرجـليـن متـهـم، مـليـم
وقـالـوا: خـطة، حمقـا، وجـورا وبـعض القـول أبـلج مـستـقـيم
لنخـرج هـاشمـاً فيصيـر منهـا بـلاقـع بـطن مكـة والحـطيم

هكذا قضت صروف الدهر، أن يصطدم المصلحون، صدمات تتبع بعضها بعضاً لدى قيامهم في شؤون الإصلاح. ولكن هؤلاء المصلحين وبالأخص الأنبياء لا يصدهم صاد، ولا يثني عـزمهم أحد، ولـذلك لمـا قضت قـريش على بني هاشم، وبني عبـد المـطلب بمـا قضت، لأجـل

(١) السغب: ولد الناقة.
(٢) القساسية بضم القاف: السيوف منسوب إلى معدن الحديد الذي يستخرج من جبل قساس بضم القاف. وهذا الجبل بأرمينية.

تكاتفهم على حماية رسول الله ﷺ فرغماً عن كل ذلك، وما هم فيه من الكرب والشدة والضيق، فإن رسول الله ﷺ قائم بنشر دعوته بين قومه وعشيرته ومن يفدِ من العرب إلى مكة، غير مبال بما حصل، ولا بما سيحصل، لأنه على يقين من الوصول إلى إصلاح قومه وعشيرته والناس أجمعين، حيث إن لكل شيء نهاية، ولكل شر زوالا، ولكل ضيق فرجاً، ولكل هم مخرجا. والصبر هو قدوة الثبات، والثبات قرين النجاح، ومن صبر ظفر، إن ذلك لمن عزم الأمور.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

لما تعاقدت قريش، وتعاهدت على مقاطعة بني هاشم، وبني المطلب، واشتد البلاء على من آمن من المستضعفين، ومن آمن من القبائل الأخرى خرجوا مهاجرين إلى الحبشة، وذلك لما علموا عن معاملة ملكها لمن هاجر إليه من المسلمين. وخرج معهم بعض بني هاشم، وبني المطلب، وهذه أسماء من هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة:

(١) جعفر بن أبي طالب مع امرأته أسماء بنت عميس، فولدت له بالحبشة عبد الله بن جعفر.

(٢) عثمان بن عفان، وامرأته رقية، بنت رسول الله ﷺ.

(٣) عمرو بن سعيد بن العاص، وامرأته فاطمة بنت صفغوان.

(٤) أخوه خالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أمينة بنت خلف بن سعد، فولدت له بالحبشة سعيد بن خالد وأمه بنت خالد. (٥) عبد الله بن جحش بن رئاب. (٦) أخوه عبيذ الله بن جحش، وامرأته أم حبيبة، بنت أبي سفيان بن حرب، فتنصر بالحبشة ومات بها، فتزوج النبي ﷺ بعده أم حبيبة بنت أبي سفيان، وجهزها النجاشي وأرسلها له.

(٧) قيس بن عبد الله بن أسد بن خزيمة، وامرأته بركة بنت يسار.

(٨) معيقيب ابن بي فاطمة من آل العاص. (٩) أبو حذيفة بن عتبة. (١٠) أبو موسى الأشعري، وهو قد وفد على النبي ﷺ بمكة، وآمن به ثم هاجر إلى الحبشة. (١١) عتبة بن غزوان. (١٢) الزبير بن العوام. (١٣) الأسود بن نوفل بن خويلد. (١٤) يزيد بن زمعة. (١٥) عمرو بن أمية. (١٦) طليب بن عمر بن وهب. (١٧) مصعب بن عمير العبدري. (١٨) سويبط بن سعيد بن حرملة العبدري. (١٩) جهم بن قيس العبدري، وزوجته أم حرملة بنت عبد الأسود وأبناه عمرو، وخزيمة. (٢٠) أبو الروم بن عمير العبدري. (٢١) فراس بن النضر بن الحارث العبدري. (٢٢) عبد الرحمن بن عوف. (٢٣) عامر بن أبي وقاص الزهري.

(٢٤) المطلب بن أزهر الزهري، وامرأته رملة بنت أبي عوف بن صبيرة، فولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب. (٢٥) عبد الله بن مسعود. (٢٦) عتبة بن مسعود. (٢٧) المقداد بن الأسود. (٢٨) الحارث بن خالد التيمي، وامرأته ريطة بنت الحارث، فولدت له بالحبشة موسى بن الحارث، وعائشة بنت الحارث وزينب بنت الحارث، وفاطمة بنت الحارث. (٢٩) عمرو بن عثمان التيمي. (٣٠) أبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة، فولدت له بالحبشة زينب بنت أبي سلمة. (٣١) شماس بن عثمان المخزومي. (٣٢) هبار بن سفيان بن عبد الأسود المخزومي. (٣٣) أخوه عبد الله بن سفيان. (٣٤) هشام بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي. (٣٥) سلمة بن هشام بن المغيرة المخزومي. (٣٦) متعب بن عوف بن سلود. (٣٧) عثمان بن مظعون. (٣٨) ابنه السائب بن عثمان. (٣٩) أخوه قدامة بن مظعون. (٤٠) أخوه عبد الله بن مظعون. (٤١) حاطب بن الحارث الجمحي وامرأته فاطمة بنت المجلل وابناه. (٤٢) محمد بن حاطب. (٤٣) الحارث بن حاطب. (٤٤) أخوه حطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار. (٤٥) سفيان بن معمر

الجمحي وابناه. (٤٦) جابر بن سفيان. (٤٧) جنادة بن سفيان وأمهما حسنة. (٤٨) شرحبيل بن حسنة. (٤٩) عثمان بن ربيعة الجمحي. (٥٠) خنيس بن حذافة بن قيس السهمي. (٥١) عبد الله بن الحارث بن قيس السهمي. (٥٢) قيس بن حذافة بن قيس السهمي. (٥٣) أبو قيس بن الحارث بن قيس السهمي. (٥٤) عبد الله بن حذافة السهمي. (٥٥) الحارث بن قيس السهمي. (٥٦) معمر بن الحارث السهمي. (٥٧) بشر بن قيس السهمي. (٥٨) أخوه من أمه سعيد بن عمرو. (٥٩) سعيد بن مهشم بن سعيد السهمي. (٦٠) محمية بن الجزاء حليفهم. (٦١) السائب بن الحارث بن قيس السهمي. (٦٢) عمير بن رئاب بن حذيفة السهمي. (٦٣) معمر بن عبد الله بن نضلة العدوي. (٦٤) عروة بن عبد العزىٰ العدوي. (٦٥) عدي بن نضلة بن عبد العزىٰ العدوي. (٦٦) ابنه النعمان بن عدي. (٦٧) عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب. (٦٨) أبو سبرة ابن أبي رهم العامري، وامرأته أم كلثوم بنت سهل بن عمرو. (٦٩) عبد الله بن مخرمة بن عبد العزىٰ العامري. (٧٠) عبد الله بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس العامري. (٧١) سليط بن عمرو بن عبد شمس العامري. (٧٢) أخوه السكران بن عمرو بن عبد شمس، وامرأته سودة بينت زمعة[1] العامرية. (٧٣) مالك بن زمعة بن قيس العامري، وامرأته عمرة بنت السعدي بن وقدان العامري. (٧٤) أبو[2] حاطب بن عمرو بن عبد شمس العامري. (٧٥) سعد[3] بن خولة من اليمن حليف بني عامر. (٧٦) أبو عبيدة بن الجراح. (٧٧) سهيل بن بيضاء. (٧٨) عمرو بن أبي سرح بن ربيعة بن هلال الفهري. (٧٩) عياض بن زهير بن أبي شداد

---

(١) في الأصل ربيعة وهو تحريف.

(٢) فيه روايتان: «حاطب» أو «أبو حاطب» اليرة ١/٣٢٩ هامش ٣.

(٣) في الأصل: «سعيد» وهو تصحيف. [كتب الهامش. المصحح].

الفهـري (٨٠) عمـرو بن الحـارث بن زهيـر الفهـري. (٨١) عثمـان[1] بن عبـد عنم بن زهير الفهـري. (٨٢) سعد بن عبـد قيس بن لقيط الفهـري. (٨٣) الحارث بن عبد قيس بن لقيط[2] الفهري.

فهؤلاء الذين هاجروا إلى الحبشة، وهم من عموم قبائل قريش، ومن أهل الشرف فيهم، قد تركوا أهلهم، ووطنهم، وديارهم، وكل عزيز وغالٍ عندهم، وهاجروا إلى ديار لا يعرفون من لغتهـا شيئاً، ولا يعلمـون عن عادات أهلها، ولا أخلاقهم، ولا شكل الحياة والمعيشة معهم شيئاً، كل ذلك تحملوه وكابدوا من المشاق، ما لا يطاق، لأجل أن يكونوا آمنين على دينهم، وأن يؤدوا عبادتهم بكمال الحرية. هذا الذي من أجله تركوا الأهل، والوطن، وهذا الأمن هو الذي درسوه عن بلاد الحبشة وعلموه ممن سبقهم إليـه، وهذه هي حـلاوة الإيمـان، وهؤلاء هم الـذين دخـل الإيمـان في قلوبهم، وأصبح مقدساً عندهم عن الآل والعشيرة، والوطن. وهكذا يكون الإيمان الصحيح، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمنون.

إقامة الصحابة بأرض الحبشة

لما وصل أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، واطمأنوا بها، وجدوا من ملكها النجاشي كل حفاوة، وإقبال، وإكرام، وإجلال، وأقاموا صـلاتهم، وأدوا فروضهم، وتـدارسوا القـرآن بكل هـدوء وحريـة. فقال عبـد الله بن الحارث بن قيس السهمي، يصف حـالتهم بها، ومـا منَّ الله تعالى عليهم من النعمة:

يـا راكبـاً بلغـن عـنـي مـغـلـغـلـة   من كـان يـرجـو بـلاغ الله والـدين

---

(١) في الأصل عمرو والتصويب عن السيرة وعن الاستيعاب. [المصحح].

(٢) في الأصل ابن فهر الفهري والتصويب عن السيرة. [المصحح].

كـل امرىء من عبـاد الله مضـطهـد ببــطن مكــة مـقهــور، ومـفتــون
إنـــا وجـــدنـــا بـــلاد الله واسـعـــة تنجي من الذل، والمخزاة، والهون
فلا تقيموا على ذلـك الحياة، وخـز ى الممـات، وعيب غيـر مــأمـون
إنـا تبعنـا رســول الله، واطـرحــوا قـول النبي، وغـالـوا في المـوازين
فاجعل عذابك في القوم الذين بغوا وعــائـذ بــك أن يغلوا فيـطغــوني

رسل قريش إلى النجاشي لإرجاع الصحابة

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنوا على دينهم، وأنفسهم، بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً. ائتمروا بينهم، على أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشي، وأن يهدوا إليه هدايا مما يستظرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتي النجاشي منها الأدم. فجعلوا له أدماً كثيرة، وهيئوا هدية أخرى لبطارقته، ثم بعثوا بهـا عبد الله بن ربيعة، وعمرو بن العاص، ومعهما عمارة بن الوليد بن المغيرة، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

فلما علم أبو طالب بذلك بعث إلى النجاشي بهذه القصيدة يحضه على حسن جوارهم والدفاع عنهم:

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر وعمـرو، وأعـداء العــدو الأقـارب
فهـل نـال أفعـال النجـاشي جعفـر وأصحـابه، أو عـاق ذلـك شـاغب
تعلم أبيت الـلعن أنــك مــاجــد كريم، فلا يشقى لـديك المجـانب
تــعــلـم بــأن الله زادك بـــسـطة وأسبــاب خيــر كلهــا بــك لازب
وأنــك فيض، ذو سجـال غــزيـرة ينـال الأعـادي نفعهــا، والأقـارب

فقـدم عبد الله بن ربيعـة، وعمرو بن العـاص، على النجاشي، فـدفعا إلى البطارقة هداياهم، قبل أن يكلما النجـاشي وقالا لكـل بطريق منهم: إنـه

قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم، لتردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم، فلما قبل منهما البطارقة ذلك، قدما هدايا الملك فقبلها النجاشي منهما.

ثم قالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن، ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عينا، واعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه، فقالت البطارقة حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، وأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم، وقومهم، فغضب النجاشي. ثم قال: لا إله إلا الله إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم. فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل، إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله فسألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دينِ أحد من هذه الملل؟

فتكلم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أيها الملك، كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام وقال: فصدقناه، وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلاه عليهم، فقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

فلما خرج عبد الله بن ربيعة، وعمرو بن العاص، قال عمرو: والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم، فقال له عبد الله بن ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين ـ لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. ثم غدا على النجاشي الغد فقال عمرو، أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً.

فارسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه؟ فأرسل النجاشي إليهم، ليسألهم عنه، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله، ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم النجاشي: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود.

فتناخرت بطارقته حين قال ما قال، فقال النجاشي لبطارقته: وإن نخرتم. ثم قال للصحابة: والله اذهبوا، فأنتم سيوم (آمنون) بأرضي، من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبرا (جبلاً) من ذهب، وإني آذيت رجلاً منكم، ثم قال النجاشي: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه؟ وما أطاع الناس في، فأطيعهم فيه؟ فخرج من عنده عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص، مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقام الصحابة رضي الله عنهم عنده بخير دار، على أحسن جوار.

هذا ما وقع بين رسل قريش، وبين أصحاب رسول الله ﷺ، عند النجاشي، الملك العاقل الرشيد، الذي لا يقبل الفرية من صاحبها، ولا يرتشي في الحق، ولا يؤثر عليه أحداً مهما كان، بطريقاً أو متزلفاً أو وزيراً أو خطيراً. فإنه عندما سمع من رسل قريش ما افتروه على من هاجر إليه من المسلمين، لم يسعه إلا إحضارهم، فأحضر أصحاب رسول الله ﷺ أمام

خصومهم، وسألهم عما قيل في حقهم واستوضح منهم حجتهم؟ فأدلوا بها غير مبالين بما سيكون لأن الحق معهم، والإيمان سلاحهم، وكانت النتيجة ادحاض المفترين، ورد كيد الظالمين، وإعادتهم خائبين. فلم يفد عمراً دهاؤه ولا جرأته، لأن سلاحه كان غياً. والحكم كان عادلاً، وخصومه كانوا أقوى منه بالإيمان، وأفصح منه حجة بالقرآن، فما سمع النجاشي دفاع جعفر عن المسلمين وإفصاحه عن حكمة الدين، وما جاء به سيد المرسلين ﷺ من الهدى ودين الحق والإصلاح والرشاد، حتى طرب من ذلك، وصادق على ما أفصح به جعفر، رغماً عن رضاء البطارقة أو عدمه، وهذا شأن كل ملك عادل عاقل حكيم خبير، عدم الإصغاء إلى فرية المفترين، أو وشاية الواشين، أو تزلف المتزلفين، فإن النجاشي لو تعجل في الأمر، ولم يحضر أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يسمع منهم دفاعهم أمام خصومهم؛ لما سجل له التاريخ هذه المنقبة الكبرى ولا هذه المزية العظمى. طيلة أربعة عشر قرناً، وستبقى إلى أبد الآبدين. أما لو أنه استعجل في الأمر، وأصغى إلى الفرية، وأخذ بقول رسل قريش، وإغراء بطارقته المرتشين لسجل عليه التاريخ ضد ذلك، كما سجل على غيره من الملوك الظالمين.

هجرة أبي بكر الصديق

لما هاجرت الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة، ضاقت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ، ومقاطعتهم لبني هاشم وبني المطلب، استأذن من رسول الله ﷺ في الهجرة، فأذن له، فخرج يريد الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد[1] لقيه ابن الدغنة، أخو بني الحارث بن بكر وهو سيد

---

(١) موضع باليمن وراء مكة بخمس ليال.

الأحابيش[1] فقال لأبي بكر: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليَّ، قال له ابن الدغنة: ولم؟ فوا الله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع وأنت في جواري.

فرجع معه حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة، فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يتعرضن له أحد إلا بخير، فكفوا عنه. وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره، في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن، استبكى، فيقف عليه الصبيان، والعبيد، والنساء يعجبون لما يرون من هيئته، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا: يا ابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى، وقرأ ما جاء به محمد، يرق ويبكي، وكان له هيئة ونحر (يقال نحر الرجل انتصب في الصلاة ونهد صدره، أو وضع يمينه على شماله)، فنحن نتخاوف على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم، فمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء.

فمشى ابن الدغنة إليه فقال له: يا أبا بكر: إني لم أجرك لتؤذي قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت. قال أبو بكر رضي الله عنه: أو أرد عليك جوارك؟ وأرضى بجوار الله تعالى. قال ابن الدغنة: فاردد عليَّ جواري. قال: قد رددته عليك. فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري، فشأنكم بصاحبكم، فلقي سفيه من سفهاء قريش، أبا بكر وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه التراب، فمر بأبي بكر الصديق الوليد بن المغيرة، فقال له أبو بكر: ألا ترى إلى ما يصنع هذا

(١) نفر من قريش يقطنون حبشي، وهو جبل بأسفل مكة تحالفوا أنهم به على غيرهم.

السفيه؟ قال: أنت فعلت ذلك بنفسك. قال أبو بكر: أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك.

هكـذا تكون الشهـامة، وهكـذا يكون الثبـات، كان من أسلم من الصحابة يتمنى أن يجد من يجيره ويحميه من تعديات المشركين، وأبو بكر يجد من يحميه من تعدي المعتدين، ومن تحدي الظالمين، ثم يرفض ذلك لأجل أن لا تكون له عليه منة أو تحكم، ويرضى بقضاء ربه، بما يقضيه عليه، ويحتسب ما يحصل عليه في عبادة ربه لربه. والله إنها لشهامة قل من يقـدم عليها، ولمكن درجـات الإيمان تتفـاوت في شخص الإنسـان بحسب قوته وإرادته.

نقض الصحيفة

مضى على بني هاشم، وبني المطلب، نحو ثلاث سنين في شعبهم بعد أن قاطعتهم قريش، فلا يصلهم أحد بشيء إلا صادروه، ولا واساهم قريب أو بعيد إلا وبخوه، حتى عيل صبرهم، فبينما هم على ذلك، إذ قيض الله تعالى من يسعى لهم في نقض الصحيفة من أعدائهم، فذهب هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، ابن عاتكة بنت عبد المطلب فقال: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام؟ وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون، ولا يبتـاع منهم، ولا ينكحون، ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله، أن لو كانـوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً.

قال زهير: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله إن لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، حتى أنقضها.

قال له هشام: قد وجدت رجلاً.

قال: من هو؟ قال: أنا.

قال زهير: أبغنا رجلًا ثالثاً.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له هشام: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان، من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه، أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنها إليها منكم سراعاً، قال المطعم: ويحك فما أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال هشام: قد وجدت ثانياً. قال: ومن هو؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية.

قال: أبغنا رابعاً، فذهب هشام إلى أبي البختري بن هشام، فقال له: نحوا مما قال المطعم بن عدي. فقال أبو البختري: وهل من أحد يعين علي هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: أبغنا خامساً.

فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود بن المطلب الأسدي، فكلمه، وذكر له قرابتهم، وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى له القوم فاتعّدوا خطَمْ الحجون ليلًا بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، ثم أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام على نقض الصحيفة.

وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام؟ ونلبس الثياب، وبنو هاشم، وبنو المطلب، هلكى لا يباعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تشق، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به قال المطعم: صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها، قال هشام بن عمرو نحو ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تشوور فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم.

وقد قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: «يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان فقال أبو طالب: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم إلى صحيفتكم فإن كانت كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها، وإن كان كاذباً دفعت اليكم ابن أخي. فقال القوم: رضينا، فتعاقد القوم على ذلك، ثم نظروا إلى الصحيفة، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فلم يزدادو إلا شراً حتى قام هشام بنقضها، فلما مزق القوم الصحيفة، بطل ما فيها، قال أبو طالب، يمدح أولئك النفر الذين قاموا بنقضها ـ بقصيدة هذا بعضها ـ وهي بطولها في سيرة ابن هشام:

ألا هل أتى بحريِّنا صنع ربنا ... على نايهم والله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا ... على ملأ يهدى لحزم ويرشد
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد

فكان نقض الصحيفة سنة عشر من البعثة وعادت بنو هاشم وبنو المطلب إلى منازلهم، وصاروا في تجارتهم، ومعايشهم، كما كانوا قبل كتابة الصحيفة.

وفد نجران

قد ذكرنا فيما تقدم، أن رسول الله ﷺ كان يدعو الناس سراً وجهراً إلى الإسلام، حال مقاطعة قريش له ولآله، رغماً عن كل ما تقوم به صناديد قريش من معاكسته ومقاومته ومناضلته بكل ما أوتوا من قوة وصلابة وتعد؛ فكانت الوفود ترد إلى مكة وتبحث عنه ﷺ للإستعلام عن حقيقة ما أشيع عنه في عموم أنحاء الجزيرة.

فورد على رسول الله ﷺ وفد نجران، وهم عشرون نفراً من نصارى نجران، وهي بين اليمن ونجد والحجاز. وذلك أنه بلغهم مبعث النبي ﷺ ممن هاجر إلى الحبشة فوجدوا النبي ﷺ في المسجد فجلسوا إليه وسألوه، وكلموه، وكان رجال من قريش في أنديتهم، حول الكعبة ينظرون إليهم، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ كما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به، وعرفوا منه ما هو موصوف به في كتابهم.

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقال لهم: خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتادون الأخبار لهم، لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، فصدقتموه بما قال، لا نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، فنزل عليه ﷺ قوله تعالى: **﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك**

يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، ويدرءون بالحسنة السيئة، ومما رزقناهم ينفقون، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ ونزل قوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾. هذه قضية إسلام نصارى نجران وإيمانهم بمجرد سماعهم للقرآن، وهو شأن كل باحث عن حقيقة الأديان لأن غرض الباحث عن الشيء الوصول إليه.

فظن أبو جهل ومن على شاكلته من مشركي قريش، أن الناس جميعاً على شاكلتهم، متوغلون في الغباوة والجهل والغطرسة والغي، لا يسمعون ولا يبصرون، وهم عن طريق الهدى حائدون، وللضلال متمسكون. فنصارى نجران أتوا إلى مكة للبحث عن النبي ﷺ والوقوف على حالته هل هي مثلما وضحها الإنجيل لهم؟ أو دعوة مجردة عن الحقيقة، فلما فهموا حقيقته، ووقفوا على طريقه، وسمعوا ما أنزل عليه من ربه، آمنوا به وصدقوه، لأنهم لم يأتوا بقصد المغالطة، ولا المكابرة، ولا لتشويه الحقيقة كما يريد أبو جهل، وغيره لأن أبا جهل لو أراد أن يترك الكفر والعناد، واتبع سبيل الرشاد، لكان من السابقين الأولين إلى الإسلام، ولكن من يضلل الله فلا هادي له.

وفد ضماد الأزدي

وفد ضماد الأزدي من أزد شنوأة على رسول الله ﷺ بمكة، لما وصل مكة، سمع سفهاء قريش، يقولون: إن محمداً مجنون فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي، وكان يرقى على الريح، قال ضماد: فأتيته فقلت: يا محمد إني أرقى من الريح، فإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، أشهد أن

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسولـه»، فقال لـه ضماد: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادها عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. فقال: لقد سمعت الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء هات يدك، أبايعك على الإسلام، فبايعه، وقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك» قال؛ وعلى قومي.

وفد الطفيل بن عمرو الدوسي

قدم مكة الطفيل بن عمرو الدوسي، وكان شريفـاً، شاعـراً، لبيباً، فعارضه رجال من قريش، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك، ما قـد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئاً.

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا (قطناً) فرقا من أن يبلغني شيء من قوله: وأنا لا أريد أن أسمعه، قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة قال: فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله: قال: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكـل أمي، إني رجل لبيب شـاعر، مـا يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي بـه حسناً قبلتـه، وإن كان قبيحـاً تركتـه، قال: فمشيت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيتـه فاتبعتـه، حتى دخل بيتـه فدخلت عليـه فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي: كذا وكـذا، فوالله مـا برحـوا يخـوفونني أمـرك، حتى سددت أذني بكـرسف، لئلا أسمـع قولـك، ثم

أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض علي أمرك، قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ، وتلا القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، قال: «اللهم اجعل له آية». قال: فخرجت إلى قومي فأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، فقلت له: إليك عني يا أبت فلست منك، ولست مني، قال: لم يا بني؟ قلت: أسلمت، وتابعت دين محمد ﷺ، قال: أي بني فديني دينك، قال: فقلت فاذهب فاغتسل، وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما علمت.

فذهب، فاغتسل، وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام، فأسلم، ثم أتته زوجته فقال لها مثل ما قال لأبيه فعرض عليها الإسلام فأسلمت.

قال: فدعوت قومي دوساً إلى الإسلام، فأبطأوا عليَّ ثم جئت إلى رسول الله ﷺ بمكة، فقلت له: يا نبي الله إنّه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم.

فقال: «اللهم أهد دوسا»، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم. قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلت المدينة بنحو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين، ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة.

ثم بعثه رسول الله ﷺ إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حمق، فأحرقه، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فكان معه بالمدينة، حتى قبض

رسول الله ﷺ فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين إلى طليحة، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة حتى استشهد بها رضي الله عنه.

هذه قصة الطفيل بن عمرو الدوسي أوردتها كاملة ليتضح للقارىء حالة هذا الأعرابيّ الجاف في مبدأ أمره، وحالة نصيحة قريش له بالابتعاد عن رسول الله ﷺ، وعدم الإصغاء لحديثه، والتجنب عن سماع القرآن لأنه ساحر، وسحره القرآن، وكان من نتيجة نصحهم له أن جعلوه حريصاً على ما منع، فكأنهم نبهوه على شيء كان بعيداً عن فكره، فاستعمل تلك النصيحة مدة وجيزة حتى سد أذنه بالقطن كي لا يسمع من سحر محمد شيئاً، ولكن مع أسفهم الشديد، لم تدم تلك النصيحة برهة من الزمن حتى لفظها، وأخذ يتتبع أثر النبي ﷺ في المسجد، وفي بيته حتى أسلم وذهب إلى قومه قبل أن يدرس طريقة الإسلام التي هي: الشفقة والألفة والرقة واللطف فاستعمل جفاء البادية مع أعز الناس لديه، وهو والده وزوجته، فاحتملوا غلظته ولكن قومه لم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه.

ولما عاد إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يدعو على قومه، فأرشده النبي ﷺ إلى طريق الدعوة إلى الإسلام، وهي الرفق واللين، ونهاه عن الغلظة والجفاء، فلما عاد واتبع هذه الطريقة المثلى نجح وأطاعه قومه، وفهموا الإسلام على طريقة الإسلام، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى نالوا الشهادة في سبيل الله.

وفاة أبي طالب

لما مرض أبو طالب مرضه الذي توفى فيه، جمع وجوه قريش فقال: يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه، وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، والجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن، وايم والله كأني

أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف، والمستضعفين من الناس من أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودروها خراباً وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه، أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصفت له فؤادها، وأعطته قيادها.

يا معشر قريش كونوا له ولاة ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي.

وقد كان عنده من الأشراف عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا ونكف عنه، وليدعنا ودينا وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب فجاءه رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك؛ فقال رسول الله ﷺ: «يا عم كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات قال: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلّهاً واحداً؟ إن أمرك لعجيب. ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا.

ثم لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو

جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله.

فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا به حتى قال آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. هذه رواية البخاري.

وأما رواية ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أتى رسول الله ﷺ أبا طالب في مرضه، قال له: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أستحل بها لك الشفاعة يوم القيامة». قال: يا ابن أخي، والله لولا مخافة السبة عليك، وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش إني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها، فلما تقارب من أبي طالب الموت، قال: نظر العباس إليه يحرك شفته، قال: فأصغى إليه بأذنه قال: فقال: يا ابن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم أسمع».

ومن شعر أبي طالب في ذلك:

ودعوتني وعلمت أنك صادق ولقد صدقت فكنت قبل أمينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، تبع أبو طالب عبد المطلب في كل أحواله، حتى خرج من الدنيا وهو على ملته، وأوصاني أن أدفنه في قبره - يعني عبد المطلب - فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال: «اذهب فواره». وقال العباس رضي الله عنه للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فوالله كان يحوطك ويغضب لك. قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.

ولما توفى أبو طالب كان عمره خمساً وثمانين سنة، وكانت وفاته سنة

عشر من البعثة النبوية، وقبل الهجرة بثلاث سنين، وبعد الخروج من شعب بني هاشم بشهر واحد، ودفن بالحجون.

قام أبو طاب بكفالة النبي ﷺ، منذ وفاة والده عبد المطلب، وعمر النبي ﷺ ثمان سنين، إلى أن توفى مدة اثنتين وأربعين سنة، أحسن قيام فطيلة الاثنتين والأربعين سنة، والنبي ﷺ تحت رعايته، وإحاطته، وصيانته، وإعزاز جانبه، وتدريبه على طلب المعيشة، بأخذه معه إلى الشام في تجارة، وإرشاده إلى خديجة بنت خويلد، والسفر إلى الشام بتجارتها، وعقد له النكاح عليها، وقاوم قريشاً مدة دعوته ﷺ، حتى احتدت قريش، واحتدت على أبي طالب لأجله، واشتدت. ولما رأى ذلك، جمع بني هاشم، وبني المطلب، وعاعدهم على الدفاع عن النبي ﷺ. فقاطعتهم قريش ثلاث سنين وهم لا يبايعونهم، ولا يواسونهم، ولا يناكحونهم. ولم يكتف أبو طالب حال حياته بذلك، بل أراد أن يواصل رعايته للنبي ﷺ حتى بعد وفاته، ولم يشأ أن يتركه للقضاء والقدر، بل جمع قومه أشراف قريش وساداتها، وقام فيهم خطيباً مرشداً إياهم إلى متابعة النبي ﷺ، وأن يكونوا من حزبه، وبين لهم مزاياه بأفصح عبارة، وأوضح مقالة، وحذرهم من مخالفته، وترك المثابرة على العناد، وإلا ستصبح صناديد قريش أذناباً، ودورها خراباً، وأعظمهم عليه اليوم شدة وشراً، أحوجهم إليه غدا، فلم يصغوا لنصحه، ولم يلتفتوا لإرشاده شأن الطغاة المعاندين، والحمقى المشاكسين. نظر أبو طالب إلى كل ذلك من وراء بصيرته، نظرة الرجل الكبير، الخبير الذي يدرس حقائق الأمور عن بعد، فنظرة واحدة إلى شعره المتشبع بالحكم، والبلاغة، تعرف قدر أبي طالب، وما هو عليه من بعد النظر، ولكن السعادة بيد الله تعالى، يكتبها لمن يشاء.

وفاة خديجة بنت خويلد

توفيت خديجة أم المؤمنين، وسيدة نساء العالمين، وحبيبة سيد المرسلين، بعد وفاة أبي طالب، ببضعة أيام، وذلك في اليوم العاشر من شهر رمضان، سنة عشر من البعثة، وقبل ثلاث سنين من الهجرة، وعمرها خمس وستون سنة، ودفنت بالحجون بشعب بني هاشم، وهي أم أولاد رسول الله ﷺ، ولم يلد له من عموم نسائه غيرها رضي الله عنها، إلا ابنه ابراهيم، من مارية القبطية، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها، وواراها بيده، ولم تكن صلاة الجنائز قد فرضت.

فحزن عليها رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وكان يسمي ذلك العام عام الحزن. ومدة إقامتها معه ﷺ، خمس وعشرون سنة. ولا تكاد تخرج من ذاكرته مدة حياته، وكانت تغار عائشة رضي الله عنها من كثرة ذكر النبي ﷺ لها.

قالت عائشة رضي الله عنها: ذكر رسول الله ﷺ خديجة ذات يوم فتناولتها فقلت: عجوز كذا وكذا، قد أبدلك الله بها خيراً منها. قال: «ما أبدلني الله خيراً منها لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها، وحرمني ولد غيرها». قالت: والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم. وبشرها رسول الله ﷺ بقصر في الجنة، من قصب[1]، لا صخب فيه ولا نصب.

كما يوجد من الرجال عظام، كذلك يوجد من النساء عظيمات. فكانت خديجة رضي الله عنها، أعظم امرأة عقلاً ودراية وحلماً، وحكمة وخبرة وجرأة وإرادة، فكانت لرسول الله ﷺ وزيرة وصديقة، ومشيرة،

---

(١) القصب: اللؤلؤ المجوف. [المصحح].

وأنيسة، فقد واسته بمالها، وعطفت عليه بكليتها وجزئيتها، بأشد من عطفها على أولادها، فكانت تسليه، وترق له، وتدافع عنه، بما تستطيع من قوة ومال وجاه.

وهي أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه، وآزرته على أمره، فكان لا يسمع رسول الله ﷺ من المشركين شيئاً يكرهه من رد عليه، أو تكذيب له، إلا فرج الله عنه بها فتثبته، وتصدقه، وتخفف عنه، وتهون عليه ما يلقى من قومه. ولو أردت أن أسرد فضائها لما وسعه هذا الجزء، ولكن يكفيها فخراً أنها صارت سيدة نساء العالمين؛ فما بعد هذه الرفعة، رفعة، ولا أعلى من هذه المنزلة، منزلة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

زواجه من سودة بنت زمعة

بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، بعدة أيام جاءت إلى رسول الله ﷺ خولة بنت حكمي، فقالت له: أفلا أخطب عليك؟ فقال: «بلى».

قال: «إنكن معشر النساء أرفق بذلك». فخطبت عليه سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرية، رضي الله عنها، كانت من السابقات إلى الإسلام، وقد تزوجت السكران بن عمرو وهاجرت معه الهجرة الثانية إلى الحبشة، ثم رجعت معه إلى مكة، وتوفى بها. فتزوجها رسول الله ﷺ، وهي أول امرأة دخل بها رسول الله ﷺ، بعد خديجة رضي الله عنها.

زواجه من عائشة

عائشة رضي الله عنها، بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، ولدت بعد البعثة بأربع سنين، ولما توفيت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. قالت خولة بنت حكيم امرأة

عثمان بن مظعون رضي الله عنهما، وذلك بمكة. . لـرسول الله ﷺ: ألا تزوج؟ قال: «من»؟ قالت: إن شئت بكراً. وإن شئت ثيبا. قال: «فمن البكر»؟ قالت: بنت أحب خلق الله إليك، عائشة بنت أبي بكر.

قـال: «ومن الثيب»؟ قـالت: سـودة بنت زمعـة. قـال: «فـاذهبي فاذكريهما علي». فجاءت بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فوجدت أم رومان والدة عائشة، فقالت لها: ما أدخل عليكم من الخير والبركة. قالت أم رومان: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة. قالت: وددت، انتظري أبا بكر، فجاء أبو بكر، فذكرت له ذلك، فقال: وهل تصلح له وهي بنت أخيه؟ فرجعت خولة للنبي ﷺ فذكرت له ذلك. قال: «قولي له أنت أخي في الإسلام، وابنتك تحل لي»، فجاءته فأخبرته، فأنكحه وهي يومئذ بنت ست سنين، ودخل بها المدينة، وهي ابنة تسع سنين، في شوال من السنة الأولى من الهجرة.

خروجه إلى الطائف

لما توفي أبو طالب، وتوفيت بعده خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، تتابعت على رسول الله ﷺ المصائب، فكانت خديجة رضي الله عنها كما قدمنا وزيرة صدق على الإسلام، يشكو إليها، فتواسيه، وتسليه، وكان عمه أبو طالب عضداً له، وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه، وبموتهما نالت قريش من رسول الله ﷺ، من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه الشريف تراباً فدخل ﷺ بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل التراب عنه، وهي تبكي، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك».

فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، وهو على بعد خمسين ميلاً من مكة شرقاً، وذلك في شوال من السنة العاشرة من البعثة النبوية، يلتمس النصر من ثقيف، والمنعة بهم، من قومه، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، لأنهم كانوا أخواله، فلما انتهى إلى الطائف، عمد إلى سادة ثقيف يومئذ، وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة، عبد ياليل، ومسعود، وحبيب، أبناء عمرو بن عمير بن عوف بن ثقيف، وعندهما امرأة من قريش، من بني جمح فجلس إليه رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله تعالى، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة، إن كان الله أرسلك. (أي ينتفها ويقطعها).

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً (أي قدراً) من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم، فاكتموا عني»، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه (يعني يخرشهم عليه) فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم يسبونه، ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وحصبوه بالحجارة حتى أدموا قدميه، وابتلت نعلاه بالدماء، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وأخيه شيبة بن ربيعة، وهما فيه وكان الطائف مصيف قريش، ولهم به بساتين وحدائق، ورجع عنه سفاء ثقيف الذين كانوا يؤذونه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفاء أهل الطائف.

فلما اطمأن قال رسول الله ﷺ: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رأى ابنا ربيعة: عتبة، وشيبة، ما لقيه رسول الله ﷺ، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفاً من عنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه.

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: «بسم الله»، ثم أكل، فنظر إليه عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام، ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك»؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال له رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح، يونس بن متى».

فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي. فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه، ويديه، وقدميه.

فلما رأى ذلك ابنا ربيعة قال أحدهما للآخر: وقد أفسد عليك غلامك.

فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل، ويديه، وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، فقالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً من الطائف إلى مكة حين يئس من ثقيف. حتى إذا كان بنخلة، وهي على مرحلة من الطائف شمالاً بغرب، قام من جوف الليل يصلي، فمر به نفر من الجن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته انصرفوا، فأنزل الله تعالى عليه: **﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن، فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشد، فآمنا به ولم نشركْ بربنا أحدا﴾**.

دخوله مكة في جوار المطعم بن عدي

فلما أقبل رسول الله ﷺ على مكة، وتيقن أن قريشاً لا تكف عن أذاه، خصوصاً، وأنه قد نال من ثقيف ما نال، وعاد خائباً، ففكر فيمن يدخل في جواره، فلما بلغ مكة، نزل بحراء، وأرسل إلى الأخنس بن شريق بن عمرو ـ حليف بني زُهرة ليجيره إذا دخل مكة فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير.

ثم أرسل إلى سهيل بن عمرو، وطلب جواره، فقال: إن بني عامر، لا تجير على بني كعب.

ثم أرسل إلى المطعم بن عدي أن يدخل في جواره، فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المطعم بن عدي، وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد فقام المطعم على راحلته، فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمداً فلا يؤذيه أحد منكم.

ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن أدخل، فدخل رسول الله ﷺ المسجد، وطاف بالبيت، وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله، والمطعم بن عدي، وولده مطيفون به ﷺ. فبات عند المطعم تلك الليلة، فلما أصبح خرج المطعم، وقد لبس سلاحه هو وبنوه، وكانوا سبعة، وقالوا لرسول الله ﷺ: طف، واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، مدة طوافه ﷺ. فأقبل أبو سفيان بن حرب، على المطعم، فقال: أمجير، أم تابع؟ فقال: بل مجير. فقال: إذا لا تخفر في جوارك، فقد أجرنا من أجرت.

فجلس حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه ثم دخل المسجد يوماً

والمشركون عند الكعبة، فلما رآه أبو جهل، قال: هذا نبيكم يا بني عبد مناف، قال عتبة بن ربيعة: وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك؟ فأخبر بذلك النبي ﷺ، فأتاهم فقال: «أما أنت يا عتبة بن ربيعة فوالله ما حميت لله ولا لرسوله، ولكن حميت لأنفك، وأما أنت يا أبا جهل بن هشام، فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر، حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش، فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر، حتى تدخلوا فيما تنكرون.

رجوع بعض مهاجري الحبشة إلى مكة

بلغ مهاجري الحبشة، أن قريشاً أسلمت، فرجع منهم تسعة وعشرون رجلاً، وست نسوة، وهذه أسماؤهم: (١) عثمان بن عفان وزوجته رقية، (٢) أبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة، (٣) عبد الله بن جحش، (٤) الزبير بن العوام، (٥) مصعب بن عمير، (٦) سويبط بن سعد، (٧) طليب بن عمير، (٨) عبد الرحمن بن عوف، (٩) المقداد بن عمرو[1]، (١٠) عبد الله بن مسعود، (١١) أبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة، (١٢) شماس بن عثمان، (١٣) سلمة بن هشام، (١٤) عياش بن أبي ربيعة، (١٥) معتّب بن عوف، (١٦) عثمان بن مظعون، (١٧) ابنه السائب بن عثمان، (١٨) خنيس بن حذافة، (١٩) هشام بن العاص، (٢٠) عامر بن ربيعة وامرأته ليلى، (٢١) عبد الله بن مخرمة، (٢٢) عبد الله بن سهيل، (٢٣) أبو سبرة بن أبي رهم وامرأته أم كلثوم، (٢٤) السكران بن عمرو، وامرأته سودة بنت زمعة، وهي التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد وفاته، (٢٥) سعد بن خولة، (٢٦) أبو عبيدة بن الجراح، (٢٧) عمرو بن الحارث، (٢٨) سهيل بن بيضاء، (٢٩) عمرو بن

---

(١) في الأصل المقداد بن الأسود والتصويب عن ابن هشام ٣٢٦/١. [المصحح].

أبي سرح، فلما بلغوا مكة ظهر لهم خلاف ما بلغهم من إسلام قريش، فدخل مكة بعضهم بجوار، وبعضهم دخلها سراً، وبعضهم عرفهم قومهم، فسجنوهم واضطهدوهم.

الإسراء والمعراج

أورد المفسرون، وعلماء الحديث، روايات كثيرة، في كون الإسراء والمعراج، حصل لرسول الله ﷺ بروحه وجسده، أو بروحه، وهل وقع يقظة أو مناماً، ووقع مرة أو مرتين أو أكثر، فتركت البحث في ذلك لأنه يحتاج إلى جزء خاص، وأتيت بما جاء في كتاب الله من سورة الإسراء، وما لخصه الحافظ ابن القيم من الصحيحين من زاد المعاد، وعن غيره مما لا يستغني عنه، قال تعالى: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير﴾**. قال الحافظ ابن القيم: ثم أسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح، من المسجد الحرام، إلى بيت المقدس، راكباً على البراق، صحبة جبرائيل عليهما الصلاة والسلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد، ثم عرج به تلك الليلة، من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبرائيل، ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا، وعيسى بن مريم، فلقيهما، وسلم عليهما، فردا عليه ورحبا به، وأقرا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه فرد عليه، ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه ورحب به وأقر

بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى بن عمران، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاماً بعث من بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. ثم عرج إلى السماء السابعة، فلقي فيها ابراهيم، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع إلى البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى، فقال له: بم أمرت؟ قال: بخمسين صلاة، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار أن نعم إن شئت، فعلا جبرائيل، حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه.

هذا لفظ البخاري، في بعض الطرق، فوضع عنه عشراً، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره فقال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى، وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع، وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم، فلمّا بعد نادى مناد، قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي.

والأنبياء الذين رآهم رسول الله ﷺ، في السموات السبع، رأى أرواحهم، وأما أجسادهم فهي مستقرة في قبورهم، كما أن رسول الله ﷺ روحه في الرفيق الأعلى، وبدنه في ضريحه، غير مفقود، وإذا سلم عليه المسلم رد الله عليه روحه، حتى يرد السلام ولم يفارق الملأ الأعلى، هذا ما قرره ابن القيم.

فلما أصبح رسول الله ﷺ في مكة أخبر أم هانىء بنت أبي طالب عن إسرائه، فقال: «أريد أن أخرج إلى قريش، فأخبرهم، فتعلقت أم هانىء بردائه، وتوسلت إليه أن لا يخرج، ولا يخبر قريشاً بذلك، فأبى وخرج

حتى أتى الحطيم عند الكعبة.

فمر به أبو جهل، فقال - كالمستهزىء -: هل من شيء؟

قال رسول الله ﷺ: «نعم، أسري بي الليلة».

قال أبو جهل: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس».

قال: ثم أصبحت بين أظهرنا. قال: «نعم»، فلم ير أبو جهل أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث.

فقال: أرأيت إن دعوت قومك، أتحدثهم ما حدثتني؟ قال: «نعم»، قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، فانقضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما، فقال: حدث قومك بما حدثتني به، فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، فلما سمعوا ذلك ضجوا، وأعظموا ذلك الإسراء وصار بعضهم يصفق، وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً، وقال المطعم بن عدي: إن أمرك قبل اليوم، كان أمراً يسيراً، غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً، شهراً، ومنحدراً شهرا، ثم تزعم أنك أتيته في ليلة واحدة، واللات والعزى لا أصدقك، وما كان هذا الذي تقول قط.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا مطعم بئسما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته، أنا أشهد أنه صادق.

قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال أبو بكر: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة، وروحة.

فقال المطعم لرسول الله ﷺ: «صف لنا بيت المقدس، أراد بذلك

إظهار كذبه ـ لأنه لم يسبق له أنه رأى القدس ـ وعرف أبو بكر الصديق قصد المطعم من ذلك، فقال أبو بكر: صفه لي يا رسول الله، فإني قد جئته، فجاءه جبرائيل بصورته، ومثلها بين عينيه لأنه ﷺ جاء بيت المقدس ليلاً، ولم يتمكن من رؤيته تماماً، بحيث يأتي على وصفه كما ينبغي فجعل رسول الله ﷺ يصفه، ويقول: باب منه في موضع كذا، وأبو بكر يقول: أشهد أنك رسول الله، حتى أتى على أوصافه التي يعرفونها، فقالوا صدق الوليد بن المغيرة إنه لساحر، فأنزل الله تعالى: ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**﴾[1]، ثم قالوا: هل رأيت في مسراك، ما نستدل به على صدقك؟ قال ﷺ: «إني مررت بعير بني فلان، بوادي كذا، فأنفر عيرهم حسُّ الدابة، فندّ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام.

ثم أقبلت حتى إذا كنت بمحل كذا مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وانتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت من الدابة وبرك منها بعير أحمر، عليه جوالق[2] مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير أم لا؟

وانتهيت إلى عير بني فلان بمكان كذا وكذا، فيها جمل عليه غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذيت العير، نفرت، وصرع ذلك البعير وانكسر، وأضلوا بعيراً لهم، قد جمعه فلان بدلالتي لهم عليه، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد».

---

(١) ألا تدل هذه الآية الكريمة، بأن الإسراء والمعراج، كان بروحه ﷺ؟ ولفظها صريح، بصورة لا تدع الشك بأنها رؤيا، ولم تكن رؤية. . وهذه الآية الكريمة من سورة الإسراء رقم (٦٠)، وورود هذه الآية في سورة الإسراء تؤيد القائلين: بأن الإسراء كان بالروح. أكثر مما تؤيد الذين يقولون بغير ذلك.

(٢) الجوالق جمع جُوالق: وهو العدل من الصوف، ويجمع على جواليق أيضاً.

فلما انتهى رسول الله ﷺ من وصف مسراه أحصته قريش، إلى أن قدم أصحاب العير الذين مر بهم النبي ﷺ، فسألوهم عن ذلك كله، فقالوا: كله صدق. فوقع هذا التصديق منهم موقع الدهشة والاستغراب. فأما أهل الإيمان الكامل الذين قد ثبت الله الإيمان في قلوبهم، مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فازداداوا إيماناً مع إيمانهم، ويقيناً على يقينهم، وأما الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم فارتدوا، وأما أهل الكفر والعناد، فازدادوا كفراً وعناداً.

فهذا ما وقع من حديث الإسراء وتكذيب قريش له، حتى بعد تيقنهم من أصحاب العير التي مر بهم في إسرائه.

وأما حديث المعراج فإن رسول الله ﷺ لم يخبرهم به، ولم يخبر حتى أصحابه بعروجه إلى السموات السبع، وما فوقها لأن الناس كانوا مبتدئين في الإسلام، وقد استعظموا حديث الإسراء، فما بالك بالمعراج، ولم يحدث رسول الله ﷺ أصحابه بقصة المعراج إلا بعد الهجرة، وبعد أن تيقن من تمكن الإيمان في قلوبهم، وتمرنهم على المعجزات وخوارق العادات، بملازمتهم له مدة طويلة.

والذي يوجب الاستغراب هنا، أن بعض أرباب الأقلام، ممن له منشورات في تاريخ الإسلام، والسير يحاولون تأويل الروايات الواردة، في أن الإسراء والمعراج، كان بروحه، أو مناماً، ويريدون بذلك إقناع ملاحدة الإسلام، وسد أفواههم، من جهة وإرضاء المؤمنين من جهة أخرى، ويكلفون أنفسهم ما لا يطيقون، بدون أدنى نتيجة، حيث أن من كان دأبه العناد والمكابرة والسفسطة، لا يمكن إقناعه، ولو أقمت له ألف دليل وبرهان على ذلك، كما وقع من مشركي قريش مع النبي ﷺ في الإسراء وغيره من المكابرة، بعد التيقن من صحة ما حدثهم به رسول الله ﷺ، لأن كثيراً من الناس، لا يصدق إلا بما يلائم عقله ولو كان سخيفاً، أو قاصراً

عن إدراك الحقائق، ويتصلب لفكره بدون أن يتعقل الشيء أو يتدبر أو يسأل عنه من هو أعلى منه علماً وفهماً وإدراكاً.

فالناس هنا، على درجات من جهة الفهم، والإدراك، والتصوير العقلي، فمنهم من يدرك الشيء لأول وهلة، بدون ترد، أو شك، أو تحير. ومنهم من يحتاج إلى التروي والتدبر والتفاهم مع محدثه، ومنهم من يرد الشيء بغير تدبر، ولا تفكر ولا تصور ولا تأمل وهؤلاء على قسمين، فقسم منهم معاند، ومكابر، لا يريد الفهم، ولا التفاهم، أمثال كفار قريش، والقسم الثاني هم الملاحدة الذين يطبقون الأشياء على عقولهم السخيفة، وجعلوا عقولهم معياراً للحقائق، مع أن عقولهم قد خلقها الله قاصرة بليدة مجردة عن إدراك الحقائق، وتصور المخلوقات، فلا يصدقون إلا بالأشياء الظاهرة الملموسة البسيطة، وأما الأشياء الدقيقة التي تحتاج إلى تدبر، وتفكر، وتأمل فلا نصيب لعقولهم فيها البتة.

مع أن في الكون أشياء لم يكتشفها العلم الحديث، الذي هو حجة أولئك الملاحدة، مثل الروح التي هي موجودة في كل ذي نسمة، فقد عجز عن معرفتها أهل العلم الحديث، بل عجزوا عن معرفة ما هو أقل منها شأناً، مع أن وجود الروح في أشخاصهم وملازمتها لهم مدة حياتهم.

فكيف والحالة هذه، إذا ثبت عجزهم عن معرفة ما هو ملازم لأشخاصهم! أيمكنهم أن يصلوا إلى معرفة ما هو بعيد عن شخصيتهم؟ وبعيد عن أبصارهم، وبصائرهم، وبعيد عن عقولهم ومداركهم، وبعيد عن أفهامهم، وتصوراتهم! فإذا كانت عقولهم ومداركهم عجزت عن حقيقة ما هو موجود في شخص كل انسان منهم فكيف لا يعجزون عن معرفة الأشياء البعيدة عن الحس والمشاهدة، فهم جديرون بأن يقفوا مكتوفي الأيدي، أمام معجزات الأنبياء، والرسل، صلوات الله عليهم، وعن إدراك حقيقة الملائكة، والجن، وعن إدراك خوارق العادات.

وأما تصديق الصحابة للنبي ﷺ في كل ما جاء به، فهو مبني على صدق رسول الله ﷺ في المحسوسات، والمعقولات فلما تبين لهم صدقه في الأشياء المحسوسة والملموسة والمعقولة، صدقوه في كلٍّ ما حدث به، عن المغيبات عن أبصارهم، حيث إن الإنسان إذا تأكد صدق الشخص، في عموم ما حدث به، ولم يثبت عليه أنه كذب مرة واحدة في حديثه، لا شك أنه يصدقه في كل ما حدث به على الإطلاق، ولا يدخله الريب في كلمة واحدة من كلامه. والزمن لا يزال يبرهن على صدق ما جاء به النبي ﷺ، وقد ظهر ذلك لكثير من مفكري الغرب وقد اعتنقوا دين الإسلام حينما ظهرت لهم حقيقة الدين الإسلامي.

وكما قلنا: إن العقل النير ليس هو كالعقل المظلم، كما إنّ الفكر الثاقب، لا يشبه الفكر المتحجر، وعليه فكل من أراد الوصول إلى معرفة أسرار النبوة، وصحة ما جاء به الأنبياء، صلوات الله عليهم، فعليه أن يتجرد من العناد ويدرس ما جاءوا به من عند الله تعالى، درساً دقيقاً، بفكر ثاقب، وقلب طاهر.

وأما إذا ارتكن على مجرد النظر السطحي، والعقل الفارغ المجرد من العلوم الصحيحة، فبغير شك لا يصل إلى الغاية المطلوبة أصلاً، حيث إنّ البحث المجرد من الثقافة، والمبني على التصورات الفارغة، لا يوصل إلى إدراك الحقائق. وهذه هي القاعدة الصحيحة، عند علماء البحث والتدقيق.

وقد وقع هذا الإسراء والمعراج، في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب في السنة الثانية عشرة من البعثة، وقبل الهجرة بثمانية أشهر على أشهر الروايات.

عرض نفسه على القبائل

لما دخل رسول الله ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي، بعد رجوعه من الطائف، ويأسه من ثقيف، ورأى من قومه أشد ما كانوا عليه، من مخالفته والتباعد عنه، وعدم الإصغاء إلى ما جاء به، وأصبح التفاهم معهم من المستحيلات. أخذ يعرض نفسه في الموسم على القبائل، يدعوهم إلى الله تعالى ويخبرهم أنّه نبي مرسل، ويسألهم أن يمنعوه حتى يبين ما بعثه الله به.

فكان يقف بمنى، على منازل القبائل من العرب، يقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به».

وكان يمشي خلفه أبو لهب، وعليه حلة عدنانية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله قال أبو لهب: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات، والعزى، من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدع والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه.

فأتى رسول الله ﷺ كندة في منازلهم، وفيهم سيد لهم، يقال له: مليح، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه.

وأتى إلى بني عبد الله (بطن من كلب) فدعاهم إلى الله تعالى، وعرض عليهم نفسه، وقال لهم: «يا بني عبد الله، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم»، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم:

وأتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله تعالى، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب رد عليه بأقبح من ردهم.

وأتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال لهم رجل منهم يقال له بيجرة بن فراس: والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء». فقال له بيجرة: أفنهدف نحورنا للعرب، دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

فلما رجعت بنو عامر إلى ديارهم أخبروا شيخاً لهم، قد هرم، فلا يستطيع أن يحضر معهم الموسم، ومن عاداتهم إذا رجعوا من الموسم أن يذهبوا إليه ويخبروه بما رأوا في ذلك الموسم.

فلما قدموا ذلك العام، سألهم عما كان في موسمهم؟: فقالوا: جاءنا فتى من قريش، من بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟

ثم أتى رسول الله ﷺ سوق عكاظ، وذا المجاز، وكان بهما بنو عبس وغسان وبنو محارب، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو سليم، وبنو النضر بن هوازن، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة، وقيس الحطيم، وغيرهم من قبائل العرب.

فقال لهم: يا أيها الناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وخلفه أبو جهل يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا

عبادة اللات والعزى. ثم أتى رسول الله ﷺ مجلساً آخر ومعه أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، عليهما السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر، فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبي وأمي، هؤلاء أغزر الناس وفيهم مرزوق بن عمرو، وهاني بن قميصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان مرزوق قد غلبهم لساناً وجمالاً، وكانت له غديرتان تسقطان على ثوبه، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مرزوق: إنا لنزيد على ألف، ولن نغلب ألفين قلة فقال أبو بكر: وكيف النعمة فيكم؟ فقال مرزوق: إنّا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد، على الأولاد، والسلاح، على اللقاح، والعز من عند الله، يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى لعلك أخا قريش، فقال أبو بكر: إن كان بلغك أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا.

فقال مرزوق: إلى ما تدعو يا أخا قريش؟ فقال ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤوني، وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد. فقال مرزوق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، أن لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾.[الأنعام ١٥١].

فقال مرزوق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك.

ثم رد الأمر إلى هاني بن قميصة. فقال: هذا هاني شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هاني: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا لديننا واتباعنا دينك، لمجلس جلسته إلينا، لا أول له، ولا آخر، لذل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، إن الذلة مع العجلة، وإنّا نكره أن نعقد على من ورائنا عقداً، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر. ثم أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى شيخنا، وصاحب حربنا، فقال المثنى: ـ وقد أسلم بعد ذلك ـ قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هاني بن قميصة في ترك ديننا، ومتابعتك دينك، وإنما نزلنا بين صريان اليمامة[1] والسماوة. فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذان الصريان»[2] قال: أنهار كسرى، ومياه العرب. فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما أنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، أن لا نحدث حدثاً، ولا نأوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه، يا أخا قريش، مما تكرهه الملوك. فإذا أحببت أن ندنيك[3]، وننصرك، مما يلي مياه العرب، فعلنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وأن دين الله عز وجل لن ينصره، إلا من أحاطه من جميع جوانبه، أرأيتم؟ إن لم تلبثوا إلا قليلاً، حتى يورثكم الله تعالى أرضهم، وديارهم، وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله تعالى، وتقدسونه. فقال النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك. فتلا عليهم رسول الله ﷺ: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا﴾.

---

(١) في الأصل بين حرفين أحدهما اليمامة والآخر اليمامة والتصويب عن الروض الأنف ٢/١٨٢. [المصحح].

(٢) في الأصل «الحرفان». [المصحح].

(٣) في الروض الأنف «نؤويك». [المصحح].

فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله تعالى، وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من عند الله تعالى، (هدى ورحمة لقوم يعقلون). وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف، إلا تصدى له، فدعاه إلى الله تعالى، وعرض عليه ما عنده.

فقدم سويد بن صامت، أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجاً، أو معتمراً، وكان سويد يسميه قومه الكامل، لجلده، وشرفه، ونسبه فيهم، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله تعالى، وإلى الإسلام.

فقال له سويد: فلعل الذي معك، مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «ما الذي معك»؟ قال مجلة لقمان، (يعني حكمة لقمان)، فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضها عليَّ»، فعرضها عليه. فقال له: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليَّ، هو هدى، ونور»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: هذا القول حسن، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فقال رجال من قومه: إنه مات على الإسلام.

وأتى أبو الحيسر، أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له»؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليَّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر

أنس بن رافع حفنة من البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري، لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس، والخزرج، فقتل إياس بن معاذ، وهو يهلل الله تعالى، ويكبره ويحمده ويسبحه، حتى مات.

فكان قومه لا يشكون في إسلامه، وقد استشعر الإسلام في المجلس الذي دعاهم فيه رسول الله ﷺ إليه.

بيعة العقبة الأولى

فلما أراد الله سبحانه، وتعالى، إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده لرسول الله ﷺ، بإظهار دينه، رغماً عن أنف كل معاند، وباغ، وحاسد، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه أبا الحيسر أنس بن رافع ورفاقه، ولم يستجب له، فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج، أراد الله بهم خيراً، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: من موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان الأوس والخزرج أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوا اليهود في بلادهم.

فكان يقول لهم اليهود: إن نبياً مبعوثاً الآن، قد جاء زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد، وارم، فلما كلم رسول الله ﷺ الخزرج، ودعاهم إلى الله تعالى، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبقونكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، وصدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا

قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

وهؤلاء الرهط، هم ستة نفر من الخزرج، وهذه أسماؤهم: (١) أبو أمامة أسعد بن زرارة، (٢) عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء، (٣) رافع بن مالك بن العجلان. (٤) قطبة بن عامر بن حديدة. (٥) عقبة بن عامر بن نابي. (٦) جابر بن عبد الله بن رئاب.

فلما وصلوا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار، إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة من البعثة.

بيعة العقبة الثانية

ولما أتى موسم السنة الثانية عشرة من البعثة، وافى من الأنصار، اثنا عشر رجلاً، فلقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة الأولى، منهم خمسة، من أهل العقبة الأولى، وهم: (١) أبو أمامة أسعد بن زرارة. (٢) عوف بن الحارث، (٣) رافع بن مالك. (٤) قطبة بن عامر. (٥) عقبة بن عامر بن نابي. والسبعة الذين أتوا معهم للبيعة هم: (٦) معاذ بن الحارث بن رفاعة، وهو أيضاًابن عفراء أخو عوف بن الحارث. (٧) ذكوان بن عبد القيس الزرقي. (٨) عبادة بن الصامت بن قيس. (٩) أبو عبد الرحمن، يزيد بن ثعلبة البلوي. (١٠) العباس بن عبادة بن نضلة. وهؤلاء العشرة من الخزرج ثم (١١) أبو الهيثم مالك بن التيهان ـ من بني عبد الأشهل ـ (١٢) عويم بن ساعدة. والاثنان الأخيران من الأوس.

فبايعوا رسول الله ﷺ، على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض

الجهاد. على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم، وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف. وقال لهم رسول الله ﷺ: «فإن وفيتم، فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر، وإن شاء عذب»، ثم خرجوا إلى المدينة.

ولما وصلوا إلى المدينة، أظهر الله بهم الإسلام، وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة، يجتمع بالمدينة بمن أسلم منهم. واجتمع من الأوس، والخزرج أربعون رجلاً، فكتبوا إلى النبي ﷺ: أن ابعث الينا من يقرئنا القرآن. فبعث إليهم مصعب بن عمير العبدري، فنزل في بني غنم، على أسعد بن زرارة فجعل يدعو الناس، ويفشي الإسلام، وهم في ذلك مستخفون بدعائهم، ثم إن أسعد بن زرارة، خرج بمصعب بن عمير، يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، فدخل به حائط بستان، من حوائط بني ظفر، على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، فلما سمع بذلك سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير - وهما يومئذ سيدا قومهما - من بني عبد الأشهل وكلاهما مشرك، قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا - يعني بالرجلين أسعد بن زرارة، ومصعب بن عمير - فازجرهما، وأنههما، عن أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، حيث هو ابن خالتي، فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: إن هذا الذي أتى، سيد قومه، قد جاءك، فأصدق الله فيه، فلما وقف أسيد بن حضير متشتماً يريد الشر بهم، قال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن

كرهته كف عنك ما تكرهه، قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فعرفا في وجهه الإسلام، قبل أن يتكلم.

ثم قال: ما أحسن هذا! وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الذين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثيابك، ثم تتشهد شهادة الحق، ثم تصلي.

فقام ففعل ذلك، وأسلم، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً، إن اتبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، ثم انصرف إلى سعد بن معاذ، وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ، وهو مقبل إليهم، قال: احلف بالله، لقد جاءكم أسيد، بغير الوجه الذي ذهب به. فلما وقف على النادي، قال له سعد بن معاذ: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله، ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت، أن بني حارثة، خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، فقام سعد بن معاذ مغضباً، مبادراً، متخوفاً عى سعد، فأخذ حربته من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين، عرف أن أسيد بن حضير، إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة، ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ فقال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فقال له مصعب: فاسمع، فإن رضيت بما تقوله، وقبلته فيها، وأن كرهته، عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد بن معاذ: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن فعرفا في وجهه الإسلام، قبل أن يتكلم.

فقال سعد: كيف تصنعون إذا أردتم الإسلام؟ قالا له: مثل ما قالا لأسيد بن حضير، ففعل. ثم رجع سعد إلى قومه فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما وقف، قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم، ونسائكم، حرام عليَّ حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ثم رجع مصعب بن عمير، إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبقَ دارٌ من دور الأنصار، إلا وفيها رجال، ونساء مسلمون، فكتب رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير، أن يجمع بهم الصلاة، ثم رجع مصعب بن عمير إلى مكة.

إن من يتأمل في سرعة دخول الأوس والخزرج في الإسلام بسهولة يعجب، يظن أن الأنصار أذكى عقلاً، وأعظم إدراكاً، وأقرب فهماً، وألين جانباً من قريش، مع أن الأمر ليس كذلك، بل عموم العرب هم متساوون في الذكاء والفهم في الغالب، إلا من تقدم عن غيره بالعلم، أو الفن، أو التجارب، أو غير ذلك، من غير طريق الفطرة والطبيعة.

والفرق بين قريش والأنصار، في سهولة دخولهما في الإسلام، وإقبالهما عليه ظاهر ومحسوس، وهو أن قريشاً قد فهمت قول النبي ﷺ، وسمعت منه القرآن، وأدركت معانيه، لأول مرة، ولكن هناك حيلولة عظمى، حالت بين قريش، والإسلام، وهذه الحيلولة ظاهرة متجسمة فيهم، وفي أخلاقهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وهي الحسد، والأنانية، والعظمة، والكبرياء. فهذا الذي حال بينهم، وبين الإسلام، والذين تجردوا من هذه الحيلولة منهم دخلوا في الإسلام بالسهولة التي دخل بها الأنصار، وأما قبول الأنصار الإسلام، ودخولهم فيه بسهولة، سببه أنهم مجردون من

الصفات التي حالت بين قريش، وبين الإسلام، فلما لم يكن هنا غرض يحول بينهم وبين الإسلام، تهافتوا عليه تهافت الشخص على ضالته المنشودة، فهذا هو الفارق بين بعد قريش عن الإسلام والدخول فيه، وقرب الأنصار له وتهافتهم عليه، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

بيعة العقبة الثالثة الكبرى

وإذا قيض الإلـه أناساً لسعيد فإنهم سعداء

فلما قدر الله سبحانه وتعالى، للأنصار هذه السعادة الكبرى، والمزية العظمى، والمنزلة العليا، خرج من الأوس والخزرج، من أسلم منهم إلى مكة مع حجاج قومهم المشركين، لحضور الموسم، وذلك في السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية، وقبل الهجرة بثلاثة أشهر، وكان معهم عبد الله بن عمرو بن حرام ـ أبو جابر بن عبد الله ـ وهو سيد من ساداتهم، وشريف من أشرافهم، فكلموه، وقالوا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار، غداً، فدعوه إلى الإسلام فأسلم، واستبشروا بإسلامه، فلما وصلوا مكة، سألوا عن رسول الله ﷺ، ولم يكونوا رأوه من قبل، فقيل لهم، هو مع العباس في المسجد، فدخلوا إليه، وسلموا عليه، وجلسوا عنده، فقال رسول الله ﷺ للعباس. «تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل»؟ قال: نعم. هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك.

فقال البراء بن معرور: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية من ظهري (يعني الكعبة) فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ فقال: «قد كنت على قبلة لو

صبرت عليها»، فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ إلى الشام وواعده عند العقبة يكون الالتقاء للبيعة، وخرجوا إلى الحج.

فلما كانت الليلة التي وعدوا رسول الله ﷺ الاجتماع فيها، كانوا يكتمون أمرهم عن المشركين من قومهم، فمكثوا مع قومهم إلى أن مضى ثلث الليل، فخرجوا من رحالهم متسللين تسلل القطا، مستخفين إلى الشعب عند العقبة، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين وهما: «أم عمارة بنت كعب إحدى نساء بني مازن، وأسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة، فلما اجتمعوا، جاء رسول الله ﷺ، وجاء معه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس تكلم العباس فقال: إن محمداً منا من حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا، وهو في عز من قومه، ومنعة في بلدة، وقد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وذاك، وإن كنتم ترون أنفسكم مسلميه، وخاذليه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

فقالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك، ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ فدعا إلى الله تعالى، وقرأ القرآن، ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فقال العباس بن عبادة بن نضلة (أخو بني سالم بن عوف): يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعوه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا

نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على ما ذكرت لكم، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على ما قلت، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا، قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فأخذ البراء بن معرور يده فقال: نعم، والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء[1] الحروب، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

وقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالاً، ونحن قاطعوها، فهل عسيت أن نحن فعلنا ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم النبي ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ثم قال رسول الله ﷺ: «اخرجوا إليَّ منكم إثني عشر نقيباً، يكونون على قومهم، بما فيهم، فأخرجوا منهم إثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، فمن الخزرج أسعد بن زرارة (نقيب بني النجار) وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة (نقيبا بني الحارث بن الخزرج) ورافع بن مالك بن عجلان (نقيب بني زريق) والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام (نقيبا بني سلمة) وعبادة بن الصامت (نقيب قباء) والمنذر بن عمرو، وسعد بن عبادة (نقيبا بني ساعدة) ومن الأوس، أسيد بن حضير (نقيب بني عبد الأشهل) وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر (نقيبا بني عمرو بن عوف) فقال رسول الله ﷺ للنقباء: «أنتم كفلاء على قومكم كفالة الحواريين لعيسى بن مريم، قالوا: نعم. فأنزل الله

---

(١) في الأصل «أصحاب» وما أثبت من ابن هشام. [المصحح].

تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ الآية فقال العباس بن نضلة للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال ﷺ: «لم أؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، فرجعوا إلى رحالهم، فناموا على ذلك، فلما أصبحوا جاءتهم قريش في منازلهم فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وأنه والله ما من حي من العرب، أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

فأجابهم من مشركي الخزرج من لم يحضر البيعة، ولم يعلم عنها يحلفون لهم بالله، إنه ما كان من هذا شيء، وما علمنا به، فأتوا عبد الله بن أبي ابن سلول، وسألوه عن ذلك، فقال لهم: إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا، وما علمته.

وكان المشركون من الأوس، والخزرج في ذلك الحج خمسمائة نفر، فانصرفوا إلى المدينة، فخرجت قريش في آثارهم يريدون الأنصار فأدركوا منهم رجلين كانا تخلفا في أمر. وهما المنذر بن عمرو، وسعد بن عبادة، من نقباء الأنصار. فأما المنذر فأعجز قريشاً وتخلص منهم، ونجا، وأما سعد بن عبادة فأخذوه، وربطوا يده إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبوه شعر رأسه، ثم خلصه منهم جبير بن مطعم، والحارث بن أمية، لأنه كان يجير لهما تجارتهما، ويمنعهم أن يظلموا ببلدة، فخلص منهم ولحق بقومه.

فلما وصلت الأنصار المدينة أظهروا الإسلام بعدما تبين لهم الرشد من الغي، وفهموا حقيقته، وظهرت تعاليمه، وإرشاداته واضحة، وعلموا أنه لا وصول إلى سعادة الدنيا، والآخرة، إلا به، وعن طريقه، حيث قد تمكن الإيمان من قلوبهم، وظهر لهم أن عبادة الأصنام، ضرب من الحمق،

والجنون فأصبحوا يسخرون بهـا، وبمن يعبدهـا ولو كـان العابـد لها من ساداتهم، وما وقعوا برجل يعبد صنماً إلا سخروا منه، ومن ذلك أنه كان عمرو بن الجموح من شيوخ بني سلمة، يعبد صنماً من خشب، يقال له: (مناة) على عادة أشراف القوم في الجاهلية، وكان ابنه معاذ بن عمرو قد أسلم، وشهد العقبة الكبرى، فكان معاذ ابنه، ومعاذ بن جبل، وفتية ممن آمن، يدلجون بالليل على صنم عمرو فيأخذونه، ويطرحونه في حفرة بها أقذار، منكس الرأس، فلما أصبح عمرو، ولم يجد الصنم، قال: ويلكم، من دلج على آلهتنا هذه الليلة، فأخذ يبحث عنه، حتى وجده مطروحاً في الإقذار فأخذه، وغسله، وطيبه ووضعه في مكانه، وقال: والله لو أعلم من صنع بك لأخزينه، فتكرر ذلك منهم، ثم إن عمـرو علق سيفه في عنق الصنم، وقال له: أنا لا أعلم من يصنع ذلك بك، فإن كان فيك خير، فامتنع بهذا السيف، فلما أمسىٰ جاء الفتية إليه فأخذوا السيف من عنقه، وأخذوا كلباً ميتاً، وقرنوه به، وطرحوه في بئر مملوءة عذرة، فلمـا أصبح عمرو، بحث عنه حتى وجده على تلك الحالة، فرجع إلى صوابه، وأرشده قومه إلى الإسلام فأسلم، وحسن إسلامه.

ربما يتبادر إلى القارىء أن هذه القصة ضرب من الخـرف، وهي ليست كذلك وإني أجزم له بصحتها، والذي يجعـل الإنسان يعتقـد في بعض الأضاليل، هو التقليد الأعمى الذي تدهور فيه كثير من الناس، وليس ثمة سبب غيره، لأن كثيراً من الناس يقلد في شيء قبـل أن يختبره، أو يفحصه، أو يبحث عنه، وكثير منهم موجود في هذا العصر المنير على قول أهله، تجدهم يقلدون تقليداً أعمى، بمعنى الكلمة في استعمال شيء مضر بعقيدته أو صحته أو بعقله أو بمصلحته، بدون أن يتبصره أو يتدبره، ولا يفطن للضرر إلا بعد الوقوع فيه، فإذا ذاق ألمه تفطن إذا كان عاقلاً، وإلا سبح في لجج غيه إلى الفناء الأبدي.

فعبدة الأصنام هم من هذا النوع، فمنهم من يفطن إلى المضرة بإرشاد المرشدين ونصح الناصحين، فيؤوب إلى رشده، ويترك عبادتها، مثل عمرو بن الجموح، ومنهم من تأخذه النعرة، ويغلب عليه الكبر، فيعاند ويتعاظم عن الإصغاء إلى نصح الناصحين، وإرشاد المرشدين، ويتمادى في غروره وعناده، وغيه إلى الهلاك المبين، مثل أبي جهل، ومن على شاكلته، ممن تمادى في الجهل إلى أن أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وجعلهم عبرة الدهر.

وهذه أسماء من شهد العقبة الكبرى من الأوس، والخزرج، فالذي شهدها من الأوس هم: (١) أسيد بن حضير، (٢) أبو الهيثم بن التيهان، (٣) سلمة بن سلامة، (٤) ظُهير بن رافع، (٥) أبو بردة بن نيار، (٦) نُهير بن الهيثم، (٧) سعد بن خيثمة، (٨) رفاعة بن عبد المنذر، (٩) عبد الله بن جبير، (١٠) معن بن عدي بن الجد، (١١) عويم بن ساعدة.

فهؤلاء أحد عشر رجلاً من الأوس، والذي شهدها من الخزرج: (١٢) أبو أيوب الأنصاري واسمه خالد بن زيد، (١٣) معاذ بن الحارث، (١٤) أخوه عوف بن الحارث، (١٥) عمارة بن حزم، (١٦) أسعد بن زرارة، (١٧) سهل بن عتيك، (١٨) أوس بن ثابت، (١٩) أبو طلحة واسمه زيد بن سهل، (٢٠) قيس بن أبي صعصعة، (٢١) عمرو بن غزية، (٢٢) سعد بن الربيع، (٢٣) خارجة بن زيد، (٢٤) عبد الله بن رواحة، (٢٥) بشير بن سعد بن ثعلبة، (٢٦) عبد الله بن زيد بن ثعلبة، (٢٧) خلاد بن سويد، (٢٨) عقبة بن عمرو بن ثعلبة، (٢٩) زياد بن لبيد، (٣٠) فروة بن عمرو، (٣١) خالد بن قيس بن مالك، (٣٢) رافع بن مالك بن العجلان، (٣٣) ذكوان بن عبد قيس، (٣٤) عباد بن قيس بن عامر، (٣٥) الحارث بن قيس بن خالد، (٣٦) البراء بن معرور، (٣٧) ابنه

بشر بن البراء، (٣٨) سنان بن صيفي، (٣٩) الطفيل بن النعمان، (٤٠) معقل بن المنذر بن سرح، (٤١) يزيد بن المنذر بن سرح، (٤٢) مسعود بن يزيد بن سبيع، (٤٣) الضحاك بن حارثة، (٤٤) يزيد بن حرام، (٤٥) جبار بن صخر، (٤٦) الطفيل بن مالك، (٤٧) كعب بن مالك، (٤٨) سليم بن عمرو بن حديدة، (٤٩) قطبة بن عامر بن حديدة، (٥٠) يزيد بن عامر بن حديدة، (٥١) أبو اليسر واسمه كعب بن عمرو، (٥٢) صيفي بن سواد، (٥٣) ثعلبة بن غنمة، (٥٤) عمرو بن غنمة، (٥٥) عبد الله بن أنيس، (٥٦) خالد بن عمرو بن عدي، (٥٧) عبد الله بن عمرو بن حرام، (٥٨) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، (٥٩) معاذ بن عمرو بن الجموح، (٦٠) ثابت بن الجذع، (٦١) عمير بن الحارث بن ثعلبة، (٦٢) خديج بن سلامة، (٦٣) معاذ بن جبل، (٦٤) أوس بن عبادة بن عدي، (٦٥) عبادة بن الصامت، (٦٦) العباس بن عبادة بن نضلة، (٦٧) أبو عبد الرحمن بن يزيد بن ثعلبة، (٦٨) عمرو بن الحرث بن لبدة، (٦٩) رفاعة بن عمرو بن زيد، (٧٠) عقبة بن وهب بن كلدة، (٧١) سعد بن عبادة بن دليم، (٧٢) المنذر بن عمرو بن خنيس. فهؤلاء اثنان وسبعون رجلاً.

وأما الرجل تكملة الثلاثة والسبعين. فلم يذكر اسمه ابن إسحاق، ولم أعثر عليه في كتب السير، وأما المرأتان فهما: (١) أسماء بنت عمرو بن عدي، (٢) نسيبة بنت كعب أم عمارة، وكانت شهدت الحروب مع رسول الله ﷺ، وشهدت معها أختها، وزوجها زيد بن عاصم، وابناها حبيب، وعبد الله، (ابنا زيد بن عاصم) وابنها حبيب، هو الذي أخذه مسيلمة الكذاب، فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول له مسيلمة: أفتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، وجعل يقطعه عضواً، عضواً، حتى مات في يده، فخرجت أمه مع خالد بن

الوليد، والمسلمين إلى اليمامة، وقاتلت بنفسها مع المسلمين، حتى قتل مسيلمة، فجرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة وضربة، حتى أخذت بثأر ولدها، ورجعت إلى المدينة.

وكانت بيعة النساء بالقبول، ولم تكن مثل الرجال بالمصافحة وقد بايعت أسماء، ونسيبة النبي ﷺ في العقبة، بعد أن أخذ البيعة من الرجال.



هجرة الصحبة إلى المدينة

روى أصحاب السير والتاريخ، أن للمدينة خمسة وتسعين إسماً، منها: اشرب، والبحرة، والبلاط، ونقلة، وخيرة، ويثرب. وسماها النبي ﷺ المدينة، فلما تمت البيعة الكبرى مع الأنصار، وبلغ النبي ﷺ انتشار الإسلام بالمدينة، ورغبة الأنصار في هجرة النبي ﷺ إليهم، أذن لأصحابه الذين كانوا بمكة أن يهاجروا إلى المدينة، وقال لهم رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجلّ قد جعل لكم إخواناً، وداراً تأمنون بها»، فخرجوا أرسالاً إلى المدينة.

فكان أول من خرج إلى المدينة مهاجراً من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد، وكان من مهاجري الحبشة، فلما عاد إلى مكة آذاه المشركون، فهاجر إلى المدينة في السنة الثانية عشرة للبعثة، ومنعه قومه من أخذ زوجته أم سلمة وابنه معه، فهاجر وحده، وترك زوجته وولده، فلحقاه في السنة التي بعدها، بعد أن أعيت قومها بالبكاء، فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، قالت أم سلمة رضي الله عنها: فرحلت بعيري، ووضعت ابني في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما [معي][1]. من أحد من خلق الله فقلتُ اتبلّغ بمن[2] لقيت، حتى إذا كنت بالتنعيم، أتيت عثمان بن طلحة أخا بني عبد الدار، فقال: لي إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة.

---

(١) ما بين المعقوفين عن ابن هشام ولا يتم المعنى إلا به [المصحح].

(٢) في الأصل: «فكنت أبلغ من» ولا معنى لها [المصحح].

فقال: هل معك أحد؟ فقلت: لا والله إلا الله، وابني هذا، فقال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق يقودني، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه، إذا نزل المنزل أناخ بي، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه ورحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت، واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه فقادني، حتى نزلت فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: إن زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة نازلاً بها [فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة][1].

إن هذه القصة تجسم أمام الإنسان، المروءة في أعظم مظاهرها وتجعل صاحبها في أعلى عليين من المجد والسؤدد والفخار، وخصوصاً إذا كان من الطبقة الكبيرة، ذات الأنانية. هذا الرجل الذي قاد بعير أم سلمة هو عثمان بن طلحة، صاحب مفتاح الكعبة، وشيخ السدنة، وصاحب لواء قريش في الحرب، ومن أعظم ساداتهم، ومن أكبر أشرافهم، وهو في ذلك الوقت من المشركين، ومن أعظم وألد الأعداء للإسلام، وكان هو الذي تسبب في إيذاء ابن عمه مصعب بن عمير، حين أسلم. أخذته الأريحية، والشيمة العربية التي لا تكاد توجد في غير شخصه، فقاد بعير أم سلمة، وهو ماشٍ على قدميه من مكة، إلى المدينة اثنتى عشرة مرحلة، مع أن أم سلمة كانت مسلمة وهو مشرك، ولم تكن من أقاربه، ولا من ذويه، وليس لها عليه منة، أو كرامة حتى نقول: إنه كافأها على ذلك، فلا شك أنه أصبح مثالاً للشيمة [العربية]، والمروءة والإحسان والجميل، فهكذا يكون الرجل العظيم، وهكذا تكون المروءة وعلى ذلك فليعمل العاملون، وجزىٰ الله صاحب الشيمة، والمروءة عن نفسه خيراً.

---

(١) الزيادة عن ابن هشام [المصحح].

ثم هاجر عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة.

ثم عبد الله بن جحش، احتمل أهله وأخاه عبد بن جحش، ويكنى أبا أحمد مع امرأته الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب، فنزلوا على مبشر بن عبد المنذر بقباء. ثم هاجر عمر بن الخطاب فلما أتى المدينة، نزل على رفاعة بن عبد المنذر في بني عمرو بن عوف، فلحقه أهله، وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو، وعبد الله (ابنا سراقة بن المعتمر) وخنيس بن حُذافة السهمي، وكان صهره على ابنته حفصة بنت عمر، وسعيد بن زيد، وواقد بن عبد الله التيمي (حليفهم).

خولى بن أبي خولى، ومالك بن أبي خولى (حليفهم) وبنو البكير وهم: أياس وعامر وحامد وخالد وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث فنزلوا معه على رفاعة بن المنذر بقباء، وكذلك عياش بن أبي ربيعة، وتتابع المهاجرون إلى المدينة فنزل طلحة بن عبيد الله، وصهيب بن سنان، على خبيب بن إساف (أخي أبي الحارث بن الخزرج) ثم لما أراد صهيب الهجرة إلى المدينة، أتته قريش وقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك.

فقال صهيب: إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب.

وهاجر حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مرثد، وابنه مرثد الغنوى، حلفاء حمزة وأنسَة، وأبو كبشة موالي رسول الله ﷺ، ونزلوا على كلثوم بن هِدْم، (أخي بني عمرو بن عوف)، وهاجر عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين (ابنا الحارث)، ومسطح بن

أثاثة بن عباد بن المطلب، وسويبط بن سعد مولى حريملة، (أخو بني عبد الدار)، وطليب بن عمير (أخو بني عبد الدار بن قصي).

وخباب مولى عتبة بن غزوان ونزلوا على عبد الله، (أخي أبي الحارث بن الخزرج).

وهاجر الزبير بن العوام، وأبو سبرة بن أبي رُهم، ونزلا على المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة، دار بني جحجبىٰ.

وهاجر مصعب بن عمير العبدري، ونزل على سعد بن معاذ (أخي عبد الأشهل) وهاجر أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حذيفة وعتبة بن غزوان، ونزلوا على عبادة بن بشير في دار عبد الأشهل.

وهاجر عثمان بن عفان، ونزل على أوس بن ثابت، في دار بني النجار.

ونزل العزاب الذين هاجروا إلى المدينة، بغير أهليهم على سعد بن خيثمة، لأنه كان عزبا.

ولم يبقَ بمكة أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ممن يستطيع الهجرة إلى المدينة إلا هاجر إليها، إلا من حبسه أهله، أو كان مستضعفاً، عديم الحيلة غير أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب مع النبي ﷺ.

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة

أقام رسول الله ﷺ بمكة، بعدما هاجر أصحابه، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، حتى أذن له، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أذن للنبي في الهجرة إلى المدينة، بقوله تعالى: ﴿**وقل: رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا**﴾. وكان أبو بكر الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله

ﷺ: «لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً»، فطمع أبو بكر أن يكـون رسول الله ﷺ صاحبه.

معاهدة قريش على قتله

فلما رأت قريش، أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب، من غيرهم في غير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه مهاجرين إليهم، عرفوا أنه نزلوا داراً (يعني بالمدينة) وأصابوا من الأوس والخزرج أنصاراً، وصارت المدينة لهم منعة وقراراً، فتخوفوا من خروج رسول الله ﷺ إليهم، وتيقنوا أنـه إن خرج إلى الأنصـار بالمـدينة، أجمعـوا على حربهم، فقـرروا أن يجتمعوا بدار النـدوة وهي مجلس الشورى التي بنـاها قصي بن كـلاب، فكانت قريش لا تقضي أمراً عظيماً إلا بعد التشاور في دار الندوة، ويقول القاضي ابن ظهيرة في تاريخ مكة: إن محلها الآن حصوة باب الزيادة. فلما اجتمعوا لذلك بدار الندوة، إذا بشيخ عليه بتلة[1]، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على باب دار الندوة، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقـولون، وعسى أن لا يعدمكم رأياً منه ونصحاً، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم.

وقد اجتمع فيها أشراف قريش، من بني عبد شمس، عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، ومن بني نوفل، طعيمة بن عدي، وجبيـر بن مطعم، والحـارث بن عامـر بن نـوفـل، ومن بني عبـد الـدار، النضر بن الحارث بن كلدة. ومن بني أسد بن عبد العزىٰ، أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام. ومن بني مخزوم، أبو جهل بن هشام، ومن بني سهم نُبيه ومنبـه (ابنا الحجـاج)، ومن بني

---

(١) البَتلة: الكساء الغليظ [المصحح].

جُمح، أمية بن خلف، وكان معهم من قريش وغير قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنّا والله ما نأمنه على الوثوب علينا، فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

فقال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً، والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون، ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره. فتشاوروا عليه. فقال آخر: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا، فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فإذا غاب عنا، وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا، وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال، بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله، وحديثه، حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم في بلادكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل ما أراد، فدبروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً لم أركم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً، فتى جليداً نسيباً وسطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم

يعمدوا إليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد، فيقتلونه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل (الدية) فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وأجمعوا عليه.

فأتى جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كانت العتمة من الليل اجتمعوا على بابه يتربصونه متى نام وثبوا عليه، وكان معهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم عى بابه: إن محمداً يزعم أنكم ان تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها.

فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب: نم على فراشي، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذاك.

وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يديه، وأخذ الله على أبصارهم عنه، فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ فما انتهى من تلاوتها إلا وقد وضع التراب على رؤوسهم جميعاً، ثم انصرف إلى حيث أراد، فأتاهم ممن لم

يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا، قالوا: محمداً، قال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا، إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب فدخلوا فوجدوا علياً على الفراش، متسجياً ببرد رسول الله ﷺ. فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائماً فلم يبرحوا حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش، فلما رأوه قالوا: والله لقد صدقنا الذي حدثنا. وأنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك اليوم من القرآن: **﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾**، وقوله عز وجل: **﴿أم يقولون شاعر نتربصّ به ريب المنون، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾**. فذهب النبي إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ عليه وقال لأبي بكر: «أخرج من كان عندك»، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي، فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج، والهجرة».

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: الصحبة. فبكى أبو بكر فرحاً بصحبة رسول الله ﷺ. ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين الراحلتين قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجر عبد الله بن أريقط، من بني الديل وكان مشركاً، ليدلهما على الطريق، فدفعا إليه الراحلتين، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما، ولم يعلم أحد بخروج رسول الله ﷺ، غير علي، وأبي بكر، وآل أبي بكر.

أما علي فلما أخبره رسول الله ﷺ بخروجه، أمره أن يتخلف بعده بمكة، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان الناس كل من عنده شيء يخشى عليه، وضعه عند رسول الله ﷺ لما يعلم

عندهم من صدقه وأمانته.

فخرج رسول الله ﷺ، وأبو بكر من خوخة ظهر بيت أبي بكر، حتى أتيا غاراً في جبل ثور، بأسفل مكة، فدخل أبو بكر الغار، قبل رسول الله ﷺ وفتشه خشية أن يكون به آفة من آفات الجبال، فلما اختبره، دخل رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر كئيباً حزيناً، فرأى أقدام قريش فقال: يا رسول الله لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا، قال رسول الله ﷺ: «أسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما، فأنزل الله تعالى: **﴿ثاني اثنين، إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا﴾**، فاطمأن أبو بكر، وتيقن أن الله قد رتب كلّ ما يلزم لهما بالغار.

فجعل ابنه عبد الله يتحسس خبر قريش فيما يكيدون لهما، وإذا أمسى أتاهما في الغار وأخبرهما بما سمع، وجعلت أسماء بنته تصنع لهما الطعام، وتأتيهما به في المساء. وجعل عامر بن فهيرة مولاه يرعى له الغنم، وإذا أمسى أتاهما بها، فاحتلبا منها، وذبحا ما يريدان، فإذا أصبحا، ذهب من عندهما عبد الله بن أبي بكر الصديق، لأخذ خبر قريش واتبع أثره عامر بن فهيرة بالغنم ليعفي أثره حتى لا ترى قريش الأثر، فيستدلون على مخبأ رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر.

وصاروا على ذلك ثلاثة أيام، حتى سكن الناس عنهما، وقد جعلت قريش حين فقدت النبي ﷺ مائة ناقة، لمن يرده عليهم، فأتاهما عبد الله بن أريقط الذي استأجراه دليلاً ببعيريهما، وبعير ثالث له.

وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بما جهزته لسفرهما، ونسيت أن تأتي بحبل تربط به جهاز السفر، فحلت نطاقها وعلقت به الجهاز، فسماها رسول الله ﷺ: ذات النطاقين، فقرب أبو بكر رضي الله عنه، الراحلتين إلى رسول الله ﷺ، وقدم له أفضلهما، وقال له: اركب، فداك أبي، وأمي فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيراً ليس لي».

فقال أبو بكر: هي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي قال: «لا ولكن ما الثمن[1] الذي ابتعتها به». قال: كذا، وكذا قال: قد أخذتها به، قال أبو بكر: هي لك يا رسول الله، فركبها وانطلقا.

وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عامر بن فهيرة مولاه خلفه، ليخدمهما في الطريق، وأخذ أبو بكر ما بقي من ماله معه، وهو نحو ستة آلاف درهم، فخرج بهما دليلهما عبد الله بن أريقط، وسلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان[2] ثم سلك بهما على أسفل أمج[3] ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق، بعد أن أجاز قديداً، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرّار[4]، ثم سلك بهما ثنية المرة[5] ثم سلك بهما لقْفاً[6] ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج[7] من ذي العضوين، ثم بطن

---

(١) في الأصل بالثمن والتصويب عن ابن هشام. [المصحح].

(٢) عسفان بضم العين وسكون السين المهملتَين: منهل من مناهل الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، ينزل به الحجاج والزوار، وهو قبل رابغ المنهل المعروف في الطريق نفسه. وقيل له عسفان لتعسف السيل فيه أي لتشقيق الأرض وتغويرها.

(٣) أمج بفتح أوله وثانيه: أحد واديين يبدءان بحرة بني سليم، ويفرغان في البحر الأحمر. والوادي الثاني اسمه وغدان بفتح الواو وضم الغين المعجمة.

(٤) الخرار، بفتح الخاء وتشديد الراء: موضع قريب من الجحفة ميقات الحجاج المصريين. وسمي الخرار لخرير المياه فيه.

(٣) ثنية المرة، بفتح الميم والراء: وهي ثنية في نفس الطريق، وكل عقبة مسلوكة في أصل جبل يسير منها الناس مشاة وركبانا يقال لها ثنية.

(٦) لقف: بفح اللام وسكون القاف، ماء عذب في أرض صخرية ولذلك لا يوجد بلقف مزارع ولا نخيل. وربما هو الذي يسميه العامة والبدو (القف) بأل للتعريف وبضم القاف. وهو منهل معروف بهذا الاسم الشائع على الألسنة. في طريق مكة ـ المدينة.

(٧) مجاج: بفتح الميم بعدها جيم مفتوحة وآخره جيم أيضاً، ولكن ياقوت يجعل آخره =

ذي كَشْر[1] ثم سلك بهما مرجح[2]، ثم أخذ بهما على الجداجد[3]، ثم سلك بهما ذا سلمك[4]، ثم على الأجرد[5] من بطن أعداء مدلجة تعهن[6]، ثم على العبابيد[7] ثم أجاز بهما الفاجة (القاحة)[8] ثم هبط بهما العرج[9]، وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهما (وهو البعير أي قصر) فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم، يقال له: أوس بن حُجر، على جمل له، وبعث معه غلاماً له اسمه مسعود بن هُنيدة، ثم خرج بهما الدليل من العرج، فسلك بهما ثنية العائر، عن يمين ركوبه ـ وهي ثنية الغائر ـ حتى هبط بهما بطن ريم، ثم قدم بهما قباء، على بني عمرو بن عوف، حين اشتد الضحى.

فهذا الطريق الذي سلك رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة كما رواه ابن إسحاق، وكان خروج رسول الله ﷺ [من] بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ليلة الخميس غرة ربيع الأول، وخروجه من الغار ليلة الإثنين لخمس خلون من شهر ربيع الأول، ووصوله المدينة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، تمام الثلاث عشرة سنة من مبعثه ثلاث وخمسين سنة من ولادته .

وأما ما اعتراه في طريقه من الحوادث، فهو لما وصل إلى قديد لحق به سراقة بن مالك المدلجي، على فرسه يرده إلى قريش، لأن قريشاً قد جعلت مائة ناقة لمن يأتي برسول الله ﷺ حياً أو ميتاً، وهي أعظم جائزة

= حاء مهملة ويستشهد بقول محمد بن عروة بن الزبير إذ يقول:

لعن الله بطن لقف مسيلا ومجاحا، وما أحب مجاحا

(١) و(٢) و(٣) و(٤) و(٥) و(٦) و(٧) و(٨) و(٩) كل هذه أسماء لطرق وجبال في الطريق بين مكة والمدينة بعضها باق باسمه حتى الآن، وبعضها اختلف اسمه أو وقع فيه تحريف.

عند العرب، يضحي لأجلها الرجل ببنيه وأمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعاً لينالها، فلما أقبل سراقة على رسول الله ﷺ عثرت به فرسه حتى كادت تقضي على حياته، فارتعد لذلك، فأهوى بيده على كنانته فاستخرج منها الأزلام، فاستقسم بها، فخرج الذي يكره، فركب فرسه حتى إذا سمع قراءة رسول الله ﷺ، ساخت يد فرسه حتى بلغت الركبتين، فخرج وزجرها، فنهضت وإذ الأثر بين يديها، عثام ساطع في السماء مثل الدخان.

فناداهم سراقة بالأمان، فوقفوا، فركب فرسه حتى جاءهم، وأخبر رسول الله ﷺ: أن قريشاً جعلت مائة ناقة لمن يأتي به، أو يقتله، وأنه لحقهم لهذا الغرض، وإنه قد اعتبر مما وقع عليه، وتعهد أنه يرد عنهما من يريد اللحاق بهما، وعرض عليهما ما عنده من الزاد، والمتاع، فلم يرزآه. ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الغميم، أدركه بريدة بن الحصيب الأسمى، في سبعين راكباً من أهل بيته من بني أسلم، يريد أخذه ليرده على قريش ليأخذ المائة ناقة، فلما أقبل رسول الله ﷺ، لم يعرفه، فقال له رسول الله ﷺ: «من أنت»؟ قال: أنا بريدة، فالتفت إلى أبي بكر، فقال: يا أبا بكر برد أمرنا، وصلح، ثم قال له: ممن أنت؟ قال: من أسلم، فقال ﷺ لأبي بكر: «سلمنا»، ثم قال له: ممن؟ قال: من بني سهم، قال: خرج سهمك.

فقال بريدة للنبي: من أنت؟

قال: أنا محمد بن عبد الله، رسول الله.

فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده، ورسوله.

فلما أسلم بريدة، أسلم من كان معه من قومه جميعاً فصلى

رسول الله ﷺ العشاء، فصلوا خلفه، فلما أصبح قال بريدة للنبي ﷺ: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحل عمامته، ثم شدها في رمحه، وجعلها لواء فحمله، ومشى بين يدي رسول الله ﷺ.

فلقي رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، في ركب المسلمين، كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا طلحة والزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء، ثم توجه رسول الله ﷺ مقبلاً على المدينة، ولحقه حال قدومه المدينة، علي بن أبي طالب وذلك بعد أن أقام بمكة بعد رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، وأدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده ﷺ لأربابها، فلما فرغ منها لحق برسول الله ﷺ.

ولما سمع المهاجرون والأنصار بالمدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، صاروا يغدون كل غداة إلى الحرة لاستقباله فينتظرونه، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم (وهو الحصن) لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين (أي لابسين الثياب البيض) يزول بهم السراب، فتظهر حركتهم للعين، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم (يعني صاحب دولتكم) الذي تنتظرون.

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم بني عمرو بن عوف، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من يأتي من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمسُ رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى أظله بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ، في بني عمرو بن عوف أربعة عشر يوماً. ونزل ﷺ على كلثوم بن هدم، ونزل معه علي بن أبي طالب.

ونزل أبو بكر الصديق على حبيب بن إساف، أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح[1]، وكان رسول الله ﷺ يجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى.

هذه رواية البخاري والجمهور على أنه مسجد قباء[2]، وفاقاً للبخاري. ولما نزل رسول الله ﷺ بقباء، قال عمار بن ياسر: ما لرسول الله ﷺ بد من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء، فهو أول مسجد صلى رسول الله ﷺ فيه بأصحابه جماعة ظاهرة، أي صلاة علانية، لأنهم كانوا بمكة يصلون سراً جماعة. وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة، هذا ما حققه الحافظ ابن حجر، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أخوال جده عبد المطلب، بني النجار، فجاءوا متقلدين السلاح.

من قباء إلى المدينة

فركب رسول الله ﷺ راحلته، وأردف أبا بكر خلفه، وملأُ من بني النجار حوله، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة، وسار نحو المدينة، فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي (وادي رانوناء)[3]، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة وخطب ﷺ أول خطبة في هذا الموضع، وهي كما رواها ابن جرير في تاريخه.

---

(١) السنح، بضم السين وسكون النون: وهو أحد محال المدينة المنورة.

(٢) قباء، وبعضهم يراه بغير همزة في آخره، وفي الحالتين ينطق بضم القاف وفتح الباء، وهي ضاحية من ضواحي المدينة المنورة. مشهورة.

(٣) رانوناء: يقول ياقوت الحموي في معجمه: وهذا لم أجده في غير كتاب ابن اسحاق الذي لخصه ابن هشام، وكل يقول: صلى بهم في بطن الوادي في بني سالم. ورانوناء على وزن عاشوراء.

«الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره، وأستهديه، وأؤمن به، ولا أكفره، وأعادي من كفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، وفرط، وضل ضلالاً بعيدا، وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكر في عاجل أمره، وذخر فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك، فإنه يقول عز وجل: **﴿ما يبدل القول لدي، وما أنا بظلام للعبيد﴾** فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وأن تقوى الله يوقي مقته، ويوقي عقوبته، ويوقي سخطه، وأن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضي الرب، ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم، وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله، يكفر الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس، ولا يملكون منه،

الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم».

فلما انتهى رسول الله ﷺ من خطبة الجمعة وصلاتها، ركب راحلته ويمم المدينة. فأتاه عتبان بن مالك، وعباس بن عبادة بن نضلة، في رجال من بني سالم بن عوف، فقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدة، والمنعة.

قال: «خلوا سبيلها، فأنها مأمورة»، يعني ناقته فخلوا سبيلها، فانطلق حتى إذا وازت دار بني بياضة، تلقّاه زيادة بن لبيد، وفروة بن عمرو، في رجال من بني بياضة، فقالوا: يا رسول الله، هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة». فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى مرت بدار بني ساعدة، فاعترضه سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى وازت دار بني الحارث بن الخزرج، اعترضه سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة، في رجال من بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى مرت بدار بني عدي بن النجار قالوا: يا رسول الله هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار، بركت على باب مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد (وهو الموضع الذي يجفف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بني النجار، وهما سهل، وسهيل (ابنا رافع بن عمرو) وكانا في

حجر معاذ بن عفراء، فلما بركت ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل، ثم وثبت (أي قامت) فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ، واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت، ثم تحلحلت وزمّت ووضعت جرانها (يعني تمايلت ورغت وتثبتت في مبركها) وكان مبركها الأخير في موضع منبر رسول الله ﷺ الآن في المسجد النبوي، فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيواب الأنصاري واسمه خالد بن زيد، رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله ﷺ، وكان لدخوله المدينة فرح شديد، على عموم المسلمين فكانت ذوات الخدور يصعدن على الأحاجير، يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

والغلمان والولدان يقولون: جاء رسول الله ﷺ، جاء النبي، ولما أقبل رسول الله ﷺ على المدينة، لعبت الحبشة بحرابها فرحاً، وخرجت جواري بني النجار يضربن بالدفوف ويقلن:

نحن جوار بني النجار يا حبذا محمد من جار

وهن كذلك، إلى أن بركت الناقة على دار أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، فلما دخل رسول الله ﷺ دار أبي أيوب، اختار أسفل الدار، وترك علوها لأبي أيوب، فقال أبو أيوب للنبي ﷺ: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره، وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو ونحن فنكون في السفل. فقال: «يا أبا أيوب، أنه أرفق بنا، وبمن يغشانا أن نكون في أسفل البيت، وكان أبو أيوب يصنع العشاء لرسول الله ﷺ ويبعثه إليه، ويتبارك بفضلته هو وزوجته، وكان مسجد رسول الله ﷺ بقرب دار أبي أيوب الأنصاري، وكان قد بناه أسعد بن زرارة قبل قدوم

النبي ﷺ، وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويجمع بهم فيه، ولما جاء رسول الله ﷺ كان يصلي فيه بالناس، ويجمع بهم مدة.

وذكر ابن إسحاق في المبتدأ، وابن هشام في التيجان، أن بيت أبي أيوب الأنصاري، الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مقدمةُ المدينة، بناه تبع الأول، واسمه تبان بن أسعد، وكان معه أربعمائة حبر، فتعاقدوا على أن لا يخرجوا منها، فسألهم تبع عن سر ذلك، فقالوا: إنّا نجد في كتبنا أن نبياً اسمه محمد ﷺ هذه دار هجرته، فنحن نقيم لعلنا نلقاه، فأراد تبع الإقامة معهم ثم بدا له، فعمر لكل واحد من أولئك داراً، واشترى له جارية، وزوجها منها، وأعطاه مالاً جزيلاً، وكتب كتاباً فيه إسلامه ومنه:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيراً له وابن عم

وختمه بالذهب، ودفعه إلى كبيرهم، وسأله أن يدفعه إلى النبي ﷺ إن أدركه، وإلا فمن أدركه من ولده، أو ولد ولده، وبنى للنبي ﷺ داراً إذا قدم المدينة، فقد ولي الدار الملوك إلى أن صارت لأبي أيوب، وهو من ولد ذلك العالم، وأهل المدينة الذين نصروه من أولاد أولئك العلماء، وأن الكتاب الذي فيه الشعر عند أبي أيوب، حتى دفعه إلى رسول الله ﷺ. روى ذلك صاحب السيرة الشامية.

بناء مسجد رسول الله ﷺ

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يزيد في المسجد وأن يجعل له سقفاً، وكان بجوار المسجد مربد لسهل وسهيل (بني رافع بن عمرو) من بني النجار، فأحضر أسعد بن زرارة رضي الله عنه، وقال له: «يا بني النجار ثامنوني بحائطكم، قال: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فأبى ذلك ﷺ وابتاعه بعشرة دنانير، أداها من مال أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان في

موضع المسجد نخل ومخرب ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطعت، ثم أمر باتخاذ اللبن، فاتخذت، ثم جاء رسول الله ﷺ بحجر فوضعه بالأساس، وجاء أبو بكر الصديق بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بن الخطاب بحجر فوضعه، وجاء عثمان بن عفان بحجر فوضعه، فجعل أساسه ثلاثة أذرع بالحجارة، ثم جاءوا باللبن، وعمل فيه المسلمون، وكان عمار بن ياسر ينقل لبنتين، لبنتين، فقال له رسول الله ﷺ: للناس أجر، ولك أجران، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول: هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا أبر ربنا وأطهر، ثم تمثل بشعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

لا هُمَّ أن الأجر أجر الآخرة فلترحم الأنصار والمهاجرة

فأجابه المسلمون وهم يقولون:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وآخرون يقولون:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأْب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

فبنى المسجد وسقف بالجريد، وجعلت أعمدته جذوع النخل، وعمل له ثلاثة أبواب، باب في مؤخره، وباب يقال له باب عاتكة، ويسمى اليوم باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه المسمى باب جبرائيل، وجعل طوله مما يلي القبلة إذا رفع الرجل يده من سقفه، وجعل قبلة للقدس مما يلي الجهة الشمالية.

في منتصف شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، تحولت القبلة إلى الكعبة، حينما كان النبي ﷺ يصلي الظهر في مسجد بني سلمة، ثم صلى العصر في مسجده متجهاً إلى الكعبة.

وكان في المسجد موضع مظلل، يأوي إليه المساكين، يسمى الصفة وكان أهله يسمون أهـل الصفة، وكـان رسول الله ﷺ يـدعوهم بـالليل، ويفرقهم على أصحابه، ويعشي طائفة منهم معه.

بناء دور أهله

لمـا انتهى رسول الله ﷺ من بنـاء المسجد، بنى دوراً إلى جـانبه باللبن، وسقفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء، بنى لعائشة رضي الله عنها في البيت الذي يليه شارعاً إلى المسجد، وجعل سودة بنت زمعة رضي الله عنها في البيت الآخر، الذي يليـه إلى الباب الـذي يلي آل عثمان فأقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه منذ قدومه إلى صفر من السنة الداخلة، حتى تم بناء المسجد، ودوره ثم نزل دوره.

أول خطبة في المدينة

فلما أتم الله نعمته على الأنصار، واستجمع لرسول الله ﷺ إسلام هذا الحي، من الأوس والخزرج، فلم يبقَ دار من دور الأنصار إلا أسلم أهله إلا ما كان من بعض بطون الأوس، وهم: خطمة، وواقف، ووائل، وأمية، فإنهم أقاموا على شركهم، فجمع بهم الجمعة في مسجده ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يخطب على الأرض، وعلى المنبر، وعلى البعير، وعلى الناقة، وكان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش.

وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله، ويتشهد فيها بكلمة الشهادة، ويذكر نفسه فيها باسمه العلم، وكان إذا قام يخطب أخذ عصا فتوكأ عليها وأحياناً يتوكأ على القوس، ولم يصح عنه أنه توكأ على السيف، وكان إذا عرض له عارض في خطبته، اشتغل به، ثم يرجع إلى خطبته، وكان أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ في مسجده بالمدينة، فيما رواه ابن اسحق عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه، ألم يأتك رسولي؟ فبلغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك، فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى

الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم، وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

قال أبو إسحق: ثم خطب رسول الله ﷺ الناس مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا ما أحب الله، أحبوا الله كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقسُ عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي، قد سماه الله خيرته من الأعمال، ومصطفاه من العباد الصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم». هذا ما ورد في أول الخطب التي خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة.

(١) عن ابن هشام.

المعاهدة بين المهاجرين والأنصار واليهود

نزل اليهود المدينة قبل نزول الأوس، والخزرج، وأصل اليهود من بني إسرائيل، روى أبو نعيم، وابن عساكر، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بلغني أن بني إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم، من ظهور بختنصر عليهم، تعرفوا[1] وكانوا يجدون محمداً ﷺ منعوتاً في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية، بين الشام واليمن، يجدون نعتها نعت يثرب فنزل بها طائفة منهم، يرجون أن يلقوا محمداً ﷺ، حتى نزل طائفة من بني هارون، ممن حمل التوراة فمات أولئك الآباء، وهم مؤمنون بمحمد ﷺ وأنهم جاءوا يحثون أبناءهم على اتباعه، فأدركه من أدركه من أبنائهم، فكفروا به وهم يعرفونه، لحسدهم الأنصار، حيث سبقوهم إليه، انتهى.

أما أصل الأوس والخزرج، فهم من قحطان، فلما كان سيل العرم، وتفرقت سبأ نزل الأوس والخزرج المدينة على اليهود، وحالفوهم وأقاموا معهم، فكانت الدار واحدة. ولما هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة، واستقبلهم الأنصار أحسن استقبال، حتى كان الأنصار يقترعون فيما بينهم على إنزال المهاجرين دورهم، وتهافتهم على إكرامهم. ثم هاجر رسول الله ﷺ ورأى من الأنصار ما رأى، من الحفاوة والإجلال، فكتب رسول الله ﷺ عهداً بين المهاجرين والأنصار مع اليهود، وأقر اليهود على دينهم، وأموالهم بشروط اشترطها عليهم، وهذا نص المعاهدة كما رواها ابن إسحاق.

---

(١) كذا في الأصل ولعلها «تفرقوا».

«بسم الله الرحمن الرحيم، هـذا كتاب من محمـد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش، ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهما، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (استقامتهم) يتعاقلون بينهم (أخـذ الديـة وإعطائهـا) وهم يفدون عـانيهم (الأسيـر) بـالمعـروف، والقسط بين المؤمنين. وبنـو عـوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعـروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحـارث على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفـة تفدي عـانيها بـالمعروف والقسط بين المؤمنين. . وبنــو جشم على ربعتهم، يتعـاقلون معــاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وأن المؤمنين لا يتركون مفُرْحَاً (المثقل من الدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[1] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم جميعاً ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينُصرَ كافـر على مؤمن. وإن ذمة الله واحـدة يجيـر عليهم أدنـاهم، وإن المؤمنين بعضهم، مـوالي بعض دون

---

(١) دسيعة، عظيمة.

الناس، وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصرين عليهم. وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا، يعُقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله. وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وإنه لا يجير مشرك ما لا لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن. وإنه من اعتبط[1] مؤمناً قتلاً، عن بينة فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً، ولا يؤويه، وأنه من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله، وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف، أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه - لا يهلك إلا نفسه - وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار، مثل ما ليهود بني عوف. وإن ليهود بني الحارث، مثل ما ليهود بني عوف. وإن ليهود بني ساعدة، مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بين جشم، مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس، مثل ما ليهود بين عوف، وإن ليهود بني ثعلبة، مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن جفنة، بطن من ثعلبة، كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة، مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة، كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ. وإنه لا ينحجز على نار جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من

---

(١) اعتبطه: أي قتله بلا جناية من توجب مثله [المصحح].

ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه النصيحة، وإن الجار كالنفس، غير مضار، ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار، يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش، ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، ويلبسونه، فإنهم يصالحونه، ويلبسونه. وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن، من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم، أو أثم، والله جار لمن بر واتقى، ومحمد ﷺ.

التآخي بين المهاجرين والأنصار

لما رأى رسول الله ﷺ ما بين المهاجرين، والأنصار، من الألفة والصداقة والمحبة، التي أسسها الإيمان بينهم، أراد أن يربطها أيضاً برابطة الإخاء، ويذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، وينسيهم مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزرهم ببعضهم البعض، فقال ﷺ: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول

رب العالمين، الذي ليس له خطير، ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين.

وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله ﷺ، وعم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاع، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد، حين حضره القتال، إن حدث به حادث الموت.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخارجة بن زهير الخزرجي أخوين.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين.

وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وسعد بن معاذ رضي الله عنه أخوين.

وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع الخزرجي رضي الله عنهما أخوين.

والزبير بن العوام وسلامة بن سلام (أخو بني عبد الأشهل) رضي الله عنهما أخوين، وعثمان بن عفان، وأوس بن ثابت (أخو بني النجار) رضي الله عنهما، وطلحة بن عبيد الله، وكعب بن مالك (أخو بني سلمة) رضي الله عنهما أخوين، وسعيد بن زيد، وأبي بن كعب (أخو بني النجار) رضي الله عنهما أخوين، ومصعب بن عمير، وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنهما أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة، وعبادة بن بشير (أخو بني عبد الأشهل) رضي الله عنهما أخوين، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان الأنصاري رضي الله عنهما أخوين، وأبو ذر الغفاري، والمنذر بن عمرو الخزرجي، رضي الله عنهما أخوين، وحاطب بن أبي بلتعة، وعويم بن ساعدة (أخو بني عوف) رضي الله عنهما أخوين، وبلال مولى أبي بكر الصديق، وأبو

رويحة بن عبد الله الخثعمي رضي الله عنهما أخوين، ولما جاء المدينة سلمان الفارسي وأسلم آخىٰ بينه وبين أبي الدرداء الخزرجي رسولُ الله ﷺ، ولما عاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، من هجرة الحبشة إلى المدينة آخى بينه، وبين معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله عنه رسول الله ﷺ.

فهؤلاء الذين أورد أسماءهم ابن إسحق في سيرة ابن هشام، ممن عقد التآخي بينهم رسول الله ﷺ. وتجد بين هؤلاء من صار بسبب الإسلام أخاً لأعظم سيد، وشريف من سادات المهاجرين، وأشراف الأنصار، فهذا تشريع رسول الله ﷺ في رابطة الإخاء بين المسلمين وجعلهم كتلة واحدة، وجسماً واحداً، وأمة واحدة، لا فرق بين العظيم والحقير، والشريف والوضيع، والسيد والمولى، والغني والفقير، والعربي والعجمي، والقوي والضعيف في نظر الإسلام، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لشريف على وضيع، إلا بالتقوىٰ، التي هي أساس السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة، فما أعظم هذه الرابطة الصحيحة، وما أقدس هذا التشريع الفخيم، في نظر الإنسانية، والهيئة الاجتماعية، فهل من مجدد له؟ يربط أواصر الأمم الإسلامية المشتتة في هذا المعمور، المتبعثرة على ظهر الكرة الأرضية، تبعثر المتاع فيلم شعثه، ويجمع شمله، أما آن للزمان أن تنجلي عنه غمته، ويسلك المسلمون الطريق الذي أسسه لهم نبيهم ﷺ والتشريع الذي قد وضعه لهم، حتى يعيدوا مجدهم التليد، وفخرهم المجيد، وعزهم الحميد ويتخلصوا من الانحطاط السحيق، والتمزق الشنيع، أولم ينظروا إلى ثمرة هذا الإخاء؟ الذي شرعه رسول الله ﷺ لتلك الشرذمة القليلة، فحفظ الله تعالى كيانها بذلك الإخاء الصحيح، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من السؤدد والمجد والمنعة والبأس، واهتزت الكرة الأرضية من بأسهم وشوكتهم، وخضعت الممالك لهيبتهم، وعظيم مجدهم، أو لم يتفكروا في أمرهم؟ وما وصلوا إليه بسبب تباعدهم عن تعاليم نبيهم

وحيادهم عن طريق الهدى، أليس فيهم من يسمع ويبصر؟ أليس منهم رجل رشيد؟ أما والله لو فكروا قليلاً، وفهموا أن لا خلاص لهم من هذا الانحطاط إلا بتتبع سيرة نبيهم، والسير على صراطه المستقيم، ونهضوا من سباتهم، واهتدوا بهديه، واستضاءوا بنوره، ولم يمضِ عليهم غير قليل حتى يصبحوا كأنهم أطلقوا من عقال، ولعادوا إلى ما كان عليه سلفهم الطاهر وحازوا كل مجد غابر، انظر إلى ثمرة الإخاء الذي أوجده رسول الله ﷺ بين أصحابه، حتى صار الرجل منهم يوصي بماله لأخيه، ويقدمه على أهله وذويه، وإليك ما فعل الإخاء في نفسية بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ذلك الحبشي. لما دون عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين، في خلافته، كان بلال رضي الله عنه، قد خرج مجاهداً إلى الشام، فقال له عمر: إلى من تجعل ديوانك (يعني عطاؤك) يا بلال؟ فأجابه بلال: أعطه لأبي رويحة الخثعمي، لا أفارقه أبداً، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني، فضم عمر رضي الله عنه لأبي رويحة الخثعمي ديوان بلال وديوان الحبشة، لمكان بلال رضي الله عنه.

ألهم الله المسلمين رشدهم، ونور بصيرتهم.

إسلام عبد الله بن سلام

هو عبد الله بن سلام، بن الحارث الإسرائيلي، الأنصاري، ويكنى أبا يوسف، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، خرج عبد الله بن سلام مع جماعة من أهل المدينة، لما سمعوا بقدوم رسول الله ﷺ المدينة، لينظروا إليه، فنظر عبد الله بن سلام إليه، وتأمل وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، فعاد إلى نخله، وجنى منه الثمار لأهله، وعلم أن رسول الله ﷺ نزل على أبي أيوب الأنصاري، فجاء إلى النبي ﷺ، والثمار معه، فسمع النبي ﷺ يقول: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام،

وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»، فقال: إني أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم، فاسألهم عني، قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن علموا أني قد أسلمت، قالوا في ما ليس في.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم النبي ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وإني جئتكم بحق، فأسلموا»، قالوا: ما نعلم، قال: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام»؟ قالوا: ذاك سيدنا، وابن سيدنا، وأعلمنا، وابن أعلمنا قال: «أفرأيتم إن أسلم»؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال رسول الله ﷺ: «يا ابن سلام، أخرج عليهم»، فخرج، فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق، فقالوا له: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ من عنده. فمن هذا الوقت، أخذ اليهود يظهرون ما تكنه صدورهم من الحسد، والبغضاء، ووضع العراقيل، لعدم نمو الإسلام.

إحضار آله ﷺ من مكة

لما هاجر النبي ﷺ ترك آله بمكة، هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلما استقر به المنزل بالمدينة، أرسل زيد بن حارثة، وأبا رافع مولاه، إلى مكة ليقدما بآله، وجعل معهما عبد الله بن أريقط دليلاً، فقدما بفاطمة، وأم كلثوم بنتيه، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد مولاه، وأم أيمن والدة أسامة، وأما زينب بنت رسول الله ﷺ فمنعها من الهجرة زوجها.

وخرج عبد الله بن أبي بكر الصديق، ومعه أم رومان بنت عامر الكنانية، امرأة أبي بكر الصديق، وأم المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ،

وأسماء بنت أبي بكر، زوج الزبير بن العوام، وكانت حاملاً بابنه عبد الله بن الزبير حتى أتوا المدينة.

عطفه ﷺ على من حبس من أصحابه

فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، تذكر عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص، وهما محبوسان بمكة، فقال ﷺ: «من لي بعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص»؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما.

فخرج إلى مكة، فقدمها مستخفياً، فلقى امرأة تحمل طعاماً، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين، تعنيهما، فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور عليهما، ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما، ثم ضربها بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه: ذو المروة، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما، وهو يمشي تحتهما على قدميه، حتى قدم بهما المدينة على رسول الله ﷺ.

دخوله ﷺ بعائشة

بنى رسول الله ﷺ، بعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما على رأس ثمانية أشهر من مقدمه المدينة، وذلك في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة، وكان سنها تسع سنين، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها، وأنزلها في الدار التي بناها لها بجوار المسجد، وجعل لها شارعاً إلى المسجد، وتكنى أم عبد الله، والصحيح أنها لم تلد لرسول الله ﷺ قط، وكانت أحب نسائه إليه، ويقال لها: حبيبة رسول الله ﷺ.

مشروعية الأذان

قد سبق ذكر الصلاة ومشروعيتها، وصلاة النبي ﷺ بخديجة وصلاته مع علي بن أبي طالب في الشعب، وضم أبي طالب ابنه جعفر وصلاته في دار الأرقم بأصحابه، وصلاته في المسجد الحرام، ووجوبها خمس صلوات لليلة الإسراء، فمررنا على ذلك كله، ولم نبحث في شيء عن مشروعيتها ولا عن كيفيتها، وسيتبع ذلك الزكاة، والصيام، والحج، وباقي ما افترضه الله على عباده، والسبب في عدم البحث في ذلك، هو أن قسم العقائد والعبادات والمعاملات، له كتب مختصة بهذا العلم، وقد دون في ذلك جهابذة العلماء والفقهاء والمحدثين من متون، وشروح، وحواشٍ، وبينوا الأصول، والفروع وما ورد في ذلك من روايات متعددة، ومذاهب متنوعة، وآراء مختلفة، ومن المعلوم أن كل ذلك له تعلق بالسيرة النبوية، لأن مصدر التشريع منه ﷺ، ولكن من حيث إن بحثنا مقتصر في هذا الكتاب على القسم الاجتماعي، والسياسي، والتاريخي، من سيرته ﷺ فقط، فلذلك لم ندخل في بحثنا من العقائد، والعبادات، والمعاملات، وما في معنى ذلك. ولم نتعرض في كتابنا للأذان، إلا لكونه فيه الإعلان بالصلاة وبالإجماع، والجماعة على رؤوس الأشهاد وفيه الظهور من الخفاء، حيث قد مضى على النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة بمكة مستخفياً هو وأصحابه، وقد آن أوان الإعلان بالإسلام، وظهور أهل الإيمان بعد صرف جهود عظيمة، وتحمل مشاق كبيرة، كما سبق بيانه.

فلما أطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه أصحابه المهاجرون

والأنصـار، واستحكم أمر الإسـلام، أقام الصـلاة جماعـة، وجماعـات، وفرضت الزكاة والصيام، وإقامة الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبـوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان، فقد كان رسول الله ﷺ، حين قدم المدينة، يجتمع الناس إليه للصلاة حين مواقيتها، بغير دعوة، فأراد رسـول الله ﷺ أن يجعل بـوقاً، كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس، فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة، فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه (أخو بلحارث الخزرجي) النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هـذا الناقوس؟ قال: ما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسـول الله، أشهد أن محمـداً رسول الله، حي على الصـلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال، فألقها عليه، فليؤذن بها فإنه أندى صوتـاً منك، فلمـا أذن بها بلال، سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: «فللّه الحمد على ذلك» هذه رواية ابن هشام، عن ابن إسحاق، وقد أثبتها الحافظ ابن حجر في الفتح.

إسلام صرمة بن أبي أنس

هو أبو قيس صرمة بن أبي [أنس ين صرمة بن مالك] (أخو بني عدي بن النجار)، كان رجلاً قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وتطهر من الحائض من النساء، وهم بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له، فاتخذه مسجداً، لا تدخل عليه فيه طامث، ولا جنب، وقال: أعبد رب ابراهيم، حين فارق الأوثان وكرهها، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم، وحسن إسلامه، وهو شيخ كبير، وكان قوالاً بالحق، معظماً لله عز وجل، في جاهليته، ووصف حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قول صرمة في شعر له، منه هذه الأبيات:

يقول أبو قيس وأصبح غادياً ... ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
فأوصيكم بالله، والبر، والتقى ... وأعراضكم، والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا، فلا تحسدنُهَم ... وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا

ومنها:

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه، وكل هلال
عالم السر، والبيان، لدينا ... ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستريد وتأوى ... في وكور من آمنات الجبال

وقال أبو قيس صرمة، يذكر ما أكرمهم الله تعالى به من الإسلام، وما خصهم الله به من نزول رسول الله ﷺ:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم يرَ من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيا

وألفى صديقاً واطمأنت به النوى وكان له عوناً من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

والقصيدة، ذكرها ابن هشام، عن ابن إسحاق، بطولها مع ما قاله حسان من شعره، وقد اقتصرنا على ذلك خشية الإطالة، وكان بلغ من العمر مائة وعشرين سنة.

معاداة اليهود له ﷺ

فلما اطمأنت برسول الله ﷺ داره، وأظهر الله بها دينه، وسره بما جمع الله إليه من المهاجرين والأنصار، من أهل ولايته، نصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً، لما خصَّ الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج، ممن كان تصلب على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك، والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة من القتل، ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود، لتكذيبهم النبي ﷺ وجحودهم في الإسلام، وكانت أحبار يهود، هم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويعنتونه، ويأتونه باللبس، ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم، وفيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام، وكان المسلمون يسألون عنها، وكان من أشد اليهود حسداً، وجحوداً، حيي بن أخطب، وأخوه أبو ياسر بن أخطب، وجدُيَ[1] بن أخطب، وسلاَّم بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن أبي الحقيق، وأبو رافع الأعور،

---

(١) في الأصل «جد» والتصويب عن ابن هشام [المصحح].

والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جحاش، وكعب بن الأشرف، وهو من طيء، وأمه من بني النضير، والحجاج بن عمرو، حليف كعب بن الأشرف، وكَرْدَمَ بن قيس حليف بني كعب بن الأشرف، فهؤلاء من بني النضير.

ومن بني ثعلبة بن الفطيون، عبد الله بن صوريا الأعور ولم يكن بالحجاز في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه، وابن صلوبا ومخيريق، وكان حبرهم. ومن بني قينقاع: زيد بن اللصيت، وسعد بن حُنيف، ومحمود بن سيَحْان، وعزيز بن أبي عزيز، وعبد الله بن صيف، وسويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفنحاص، وأشيع، ونعمان بن أضا، وبحري بن عمرو، وشأسْ بن عدي، وشأسْ بن قيس، وزيد بن الحارث، ونعمان بن عمرو، وسكين بن أبي سكين، وعدي بن زيد، ونعمان بن أبي أوفى أبو أنس، ومحمود بن دحية، ومالك بن صيف، وكعب بن راشد، وعازر، ورافع بن أبي رافع، وخالد، وآزار بن أبي آزار، ورافع بن حريملة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، والحصين بن سلام، وكان حبرهم، وأعلمهم، ولما أسلم سماه النبي عبد الله، فهؤلاء من بني قينقاع.

ومن بني قريظة: الزبير بن باطا بن وهب، وعزال بن شمويل[1]، وكعب بن أسد، وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب، وشمويل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينة، والنحّام بن زيد، وقردم بن كعب، ووهب بن زيد، ونافع بن أبي نافع، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، وكردم بن زيد، وأسامة بن حبيب، ورافع بن زميلة، وجبل بن أبي قشير، ووهب بن يهوذا، فهؤلاء من بني قريظة.

---

(١) في الأصل «سموأل» والتصويب عن السيرة لابن هشام.

ومن يهود بني زرُيق: لبيد بن أعصم؛ وهو الساحر عند اليهود.

ومن يهود بني حارثة: كنانة بن صوريا.

ومن يهود بني عمرو بن عوف: قردم بن عمرو.

ومن يهود بين النجار: سلسلة بن برهام.

فهؤلاء اليهود هم الأحبار فيهم، وهم الذين تصدوا لعداوة رسول الله ﷺ وأصحابه، وهم أصحاب المسألة، والنصب للإسلام، ومقصدهم الوحيد، هو صد الإسلام، ورد جماحه من السرعة التي انتشر بها، في كافة أنحاء المدينة، بالصفة التي أدهشت عقولهم، وحيرت أفكارهم، وشتت آراءهم، ومنشأ كل ذلك الحسد، حيث إنّهم قضوا القرون الطوال من الزمن ولم يستطيعوا أن ينشروا اليهودية في المدينة، وضواحيها بالصفة التي انتشر فيها الإسلام في بضعة أشهر، ولم يدركوا أن الدين الصحيح هو غير الدين المحرف، وأن الدعوة الخالصة لله، هي غير الدعوة المبنية على الهوى، وحب الذات؛ والدليل على ذلك واضح، حيث إن اليهود لما انطوت نفوسهم على المكر والخديعة، لم يتوفقوا كل حياتهم، حتى اليوم، ولن يتوفقوا خصوصاً في مسألة الدين، لأن الدعوة إذا لم تكن خالصة لله تعالى، فلا نصيب لها غير الفشل.

ولما كانت دعوة رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام، هي من الله، وإلى الله ظاهرة لا غبار عليها، قبلتها القلوب الطاهرة من الغي، السليمة من المرض، **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾**[الصف ٨]**﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون﴾**[التوبة ٣٢].

ومن هؤلاء اليهود، ممن تهود من الأوس، والخزرج، وسبب تهودهم كان في نساء الأوس والخزرج، من تنذر أن ولدت ولداً فعاش تهوده، لأن اليهود عندهم كانوا أهل علم وكتاب، وفي هؤلاء الأبناء، نزل قوله تعالى:

﴿لا إكراه في الدين﴾[1] حين أراد آباؤهم إكراههم على الإسلام بعد أن تهودوا، وجاءهم النبي ﷺ ورأوا أن دين الإسلام حق، وأدلته ظاهرة كالشمس، وأما اليهود الذين ينتمون إلى إسرائيل، فهم بنو قريظة، والنضير، وبنو قينقاع، ومنازلهم بالمدينة وخيبر.

المنافقون من الأوس والخزرج

وكان ممن انضم إلى اليهود من المنافقين، من الأوس والخزرج، جماعة فمن الأوس: زوُي بن الحارث، وحلاس بن سويد بن الصامت، وأخوه الحارث بن سويد، وجلاس هو ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقال: لئن كان الرجل صادقاً، لنحن شر من الحمر، فسمع ذلك عمير بن سعيد، وكان في حجر جلاس زوج أمه بعد أبيه، فقال له عمير: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي، وأحسنهم عندي يداً، وأعزهم على رسول الله ﷺ، ولا أحب[2] أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني، ولأحدهما أيسر علي من الأخرى.

ثم مشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال جلاس، فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ لقد كذب على عمير، وما قلت ما قال عمير، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهموا بما لم ينالوا، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله، فإن يتوبوا يك خيراً لهم، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليما في

---

(١) الآية رقم ٢٥٦ من سورة البقرة وهي: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم﴾.

(٢) كذا في الأصل، وفي ابن هشام «وأعزهم عليّ أن يصيبه شيء يكرهه».

الدنيا والآخرة، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾[1] فتاب جلاس، وحسنت توبته ولم يترك عميراً، من الخير الذي كان يصنعه له.

ومن بني ضُبيعة: بجاد بن عثمان بن عامر، ونبتل[2] بن الحارث، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نبتل بن الحارث» وكان رجلاً جسيماً، أذلم[3]، ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع الخدين، وكان يأتي رسول الله ﷺ ويتحدث إليه، فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وقال: إنما محمد أذن، من حدثه شيئاً صدقه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي، ويقولون: هو أذنُ، قل: أذن خير لكم يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين، ورحمة للذين آمنوا منكم، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب شديد﴾[4]، ومن بني ضبيعة: أبو حبيبة بن الأزعر، وكان ممن بنى مسجد الضرار، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن القشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن آتانا الله من فضله لنصدقن، ولنكونن من الصالحين، فنزلت فيهم الآية: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾[5] إلى آخر الآية، ومعتّب بن القشير، هو الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾[6] إلى آخر الآية والقصة، وهو الذي قال يوم الأحزاب: كان

---

(١) الآية رقم ٧٤، من سورة التوبة.

(٢) ونبتل، من بني لوذان بن عمرو بن عوف وليس من بني ضبيعة، انظر ابن هشام ١/٥٢١ [المصحح].

(٣) الأذلم: هو الأسود الطويل، ويقال هو المسترخي الشفتين [المصحح].

(٤) الآية رقم ٦١ من سورة التوبة.

(٥) الآية رقم ٧٥ من سورة التوبة.

(٦) الآية رقم ١٥٤ من سورة آل عمران، وهي من أولها: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا، يغشى طائفة منكم، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون: هل لنا في الأمر من شيء، قل: إن الأمر كله لله،

محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى، وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا**﴾[1]، وقد حصل بالفعل ما وعد به ﷺ أصحابه، ونالوا كنوز كسرى وقيصر، وربما يكون قد عاش معتبٌ، وشاهد كنوز كسرى وقيصر، وهي تقسم على الذين جاهدوا في الله حق جهاده، ونصحوا لله ولرسوله، ومنهم عمرو بن خذام، وعبد الله بن نبتل، وجارية بن عامر بن العطاف وابناه: زيد، ومجمعٌ، وهم ممن اتخذ مسجد الضرار، وعباد بن حنيف (أخو سهل بن حنيف) وبَحْزَج وهم ممن بنى مسجد الضرار، وكان مجمع بن جارية يحفظ كثيراً من القرآن، وكان يصلي بهم في مسجد الضرار، ثم أحرق المسجد، فلما كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلم في مجمع أن يؤم قومه، فقال: لا، أوليس بإمام المنافقين في مسجد الضرار، فقال مجمع: والله الذي لا إله إلا هو، ما علمت بشيء من أمرهم، ولكني كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا لا يقرءون، فقدموني أصلي بهم، فتركه عمر فصلى بهم. ووديعة بن ثابت، وهو ممن بنى مسجد الضرار، وهو الذي قال: إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**﴾؟[2] إلى آخر القصة. وخذام بن خالد، وهو الذي أخرج مسجد الضرار من داره. وبشر، ورافع ابنا زيد، ومربع بن قيَظي[3]، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين مروره من حائطه

يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، وليبتلي الله ما في صدوركم، وليمحص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور﴾.

(١) الآية رقم ١٢ من سورة الأحزاب. (٢) الآية رقم ٦٥ من سورة التوبة.

(٣) في الأصل «يُعَظى» وهو تحريف. انظر ابن هشام ١/ ٥٢٣. [المصحح].

وهو قاصد أحد، لا أحل لك يا محمد إن كنت نبياً أن تمر في حائطي وأخذ حفنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أن لا أصيب غيرك بهذا التراب لرميتك به، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر، فضربه سعيد بن زيد (أخو بني عبد الأشهل) بالقوس، فشجه؛ وأخوه أوس بن قَيْظِي[1]، وهو الذي قال[2] لرسول الله ﷺ يوم الخندق: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فائذن لنا، فلنرجع إليها، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: ﴿يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا﴾[3] فهؤلاء من أتينا على ذكرهم، من منافقي الأوس، وأما منافقو الخزرج فهم حاطب بن أمية بن رافع، كان شيخاً جسيماً قد عسا في جاهليته[4]، وكان له ابن من خيار المسلمين، ويقال له: يزيد بن حاطب، أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات، فحمل إلى دار بني ظفر، فاجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم، وهو محتضر، فجعلوا يقولون له: أبشر يا ابن حاطب بالجنة، فأظهر حاطب أبوه نفاقه، فقال: أجل جنة من حرمل، غررتم والله هذا المسكين من نفسه. والحرمل الذي قصده حاطب، هو أرض المجاعة، التي تموت فيها الكلاب من عدم وجود أي شيء فيها تأكله، فشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين بأرض المجاعة، التي تموت فيها الكلاب، من شدة الجوع، ومنهم بشير بن أبيرق وهو أبو طعمة سارق الدرعين، الذي أنزل الله تعالى

---

(١) في الأصل «يقظى» وهو تحريف. انظر ابن هشام ٥٢٣/١ [المصحح].

(٢) في الأصل «يقول» ولا يستقيم السياق. وانظر المرجع السابق. [المصحح].

(٣) الآية رقم ١٣ من سورة الأحزاب.

(٤) في الأصل «عد عسىٰ في جاهلية» ولا معنى لها وما أثبت عن المرجع السابق [المصحح].

فيه: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما﴾[1].

وقزمان حليف لهم، كان يقول [فيه] رسول الله ﷺ: «إنه من أهل النار»، فلما كان يوم أحد، قاتل قتالاً شديداً حتى قتل بضعة نفر من المشركين، فأثبتته الجراح، فحمل إلى دار بني ظفر فقال له رجال من المسلمين: أبشر يا قزمان، فقد أبليت اليوم، وقد أصابك ما ترى في الله. قال: بماذا أبشر، فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي، فلما اشتدت به جراحه، وآذته، أخذ سهماً من كنانته، فقطع به رواهش يده، فقتل نفسه، وكان الضحاك بن ثابت يتهم بالنفاق، وحب اليهود، وكان جلاس قبل توبته ومعتبّ بن قشير، ورافع بن زيد، وبشر، يدعون بالإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: نتحاكم إلى حكام أهل الجاهلية، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ألم ترَ إلا الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا﴾[2]، إلى آخر القصة، ومن الخزرج: رافع بن وديعة، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو بن سهل، والجد بن قيس، الذي يقول: ائذن لي، ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني إلا في

---

(١) الآية رقم ١٠٧ من سورة النساء.

(٢) الآية رقم ٦٠ من سورة النساء، والآيات التي بعدها.

﴿وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً، أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم، وعظهم، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾.

الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾[1]، ومن الخزرج: عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان رأس المنافقين، وإليه يجتمعون، وهو الذي قال: لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، في غزوة بني المصطلق، وفي قوله ذلك نزلت سورة المنافقين بأسرها، وفيه وفي وديعة رجل من بني عوف، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس وهم من رهط عبد الله بن أبي ابن سلول، وهؤلاء القوم كانوا يدسون إلى بني النضير، حين حاصرهم رسول الله ﷺ، أن أثبتوا فوالله لئن أخرجتم، لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحداً أبدا، وإن قوتلتم لننصرنكم، فأنزل الله تعالى: **﴿ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنَخَرْجن معكم، ولا نطيع فيكمم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾**[2]، ثم القصة من السورة حتى منتهى قوله: **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾**[3].

هذا ما كان من أمر المنافقين من الأوس والخزرج، ولا شك أنه يوجد في كل أمة أو قبيلة أو عائلة المصلح والمفسد والطيب والخبيث، والشجاع، والجبان، وينجم النفاق في الشخص لأسباب كثيرة: أما لحسد

---

(١) الآية رقم ٤٩ من سورة التوبة.

(٢) الآية رقم ١١ من سورة الحشر، والآيات التي بعدها هي: **﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون. لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة، أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون، كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم، كمثل الشيطان، إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها، وذلك جزاء الظالمين﴾**.

أو بغض، أو للؤم انغرس في طبعه من أصل خلقته، فمهما اجتهد في اخفائه لا بد وأن يظهر عليه، إماً في قوله، أو عمله كما قال زهير بن أبي سلمى.

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وإلا فقد برهن الأنصار من الأوس والخزرج، على صدق إيمانهم، وقوة نصرهم، وشدة بأسهم، على من عادى رسول الله ﷺ، ولو كان من أعز الناس عندهم، وسيأتي بعد ذلك ما أحرزه الأنصار من المجد، والرفعة والبسالة والشهامة والشجاعة والسؤدد، في حروبهم مع رسول الله ﷺ ومواقفهم العظيمة، في عموم المواطن، حتى نالوا خيرى الدنيا والآخرة، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المنافقون من اليهود

كان ممن تعوذ بالإسلام ودخل فيه نفاقاً، من أحبار اليهود من بني قينقاع: سعد بن حنيف، وزيد بن اللُّصيت، والنعمان بن أوفى، وعثمان بن أوفى. وزيد بن اللصيت هو الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق بني قينقاع، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ: يزعم محمد أنه يأتيه خبر من السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن قائلاً قال: يزعم محمد أن يأتيه خبر من السماء، ولا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، فهي في هذا الشعب، قد حبستها شجرة بزمامها»، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ، وكما وصف، ورافع بن حرملة، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين». ورفاعة بن زيد، بن التابوت وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ، وهو قافل من

غزوة بني المصطلق، حين هبت ريح فاشتدت عليه، حتى أشفق المسلمون منها: لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار، فلما قدم المدينة، وجد رفاعة بن زيد بن التابوت، مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح. وسلسلة بن برهام، وكنانة بن صوريا، وكان هؤلاء المنافقون، يحضرون المسجد، فيسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً.

فقام أبو أيوب الأنصاري، إلى عمرو بن قيس، وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية، فأخذ برجله فسحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟ ثم أقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وديعة، فلببه بردائه ثم نتره نتراً شديداً، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد، وقال له أبو أيوب، أف لك منافقاً خبيثاً أدراجك (أي عد من حيث أتيت)، وقام عمارة بن حزم الأنصاري، إلى زيد بن عمرو، وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته فقاده بها قوداً عنيفاً، حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه، فلكمه في صدره فخرج يقول: خدشتني يا عمارة، قال له: أبعدك الله يا منافق، فما أعده الله لك من العذاب، أشد من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ.

وقام أبو محمد مسعود بن أوس الأنصاري، إلى قيس بن عمرو، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد.

وقام عبد الله بن الحارث الأنصاري، إلى الحارث بن عمرو وكان ذا جمة (والجمة مجتمع شعر الرأس) فأخذه بجمته، فسحبه بها سحباً عنيفاً على الأرض حتى أخرجه من المسجد، وقال له: أي عدو الله فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف، إلى أخيه زوي بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً، وأنزل الله تعالى في هؤلاء المنافقين من اليهود، صدراً من سورة البقرة. هذا ما رواه ابن إسحاق ملخصاً.

هذه صور من صور الحالات التي كان عليها المسلمون، والمنافقون، في المدينة المنورة، وهي تمثل المؤمن الصادق في إيمانه، وما هو عليه من الرفعة والسؤدد والبأس، وتمثل المنافق، الذي لا مبدأ له في الدين والدنيا، غير التملق في الحياة، وأمثال هؤلاء كثيرون في الماضي، والحال أنهم قضوا، ويقضون حياتهم في الدنيا بلا مبدأ ولا شرف، ويظنون أنهم هم الناس، وأنهم أصحاب الرأي الثاقب، وأنهم هم الذين يعرفون كيف يعيشون، وكيف يتمشون مع الزمن، وفي نظرهم أن لا حياة إلا بالتملق، والتزلف، ولهم في ذلك أمثلة يضربونها، لإثبات نظريتهم، فمنها: كيفما دارت الزجاجة درنا، كما أنه في نظرهم، كل إنسان متمسك بدينه أو بمبدئه متعصب، وهذا شيء طبيعي، فكل إنسان يرى مخالفه على غير الحق، فلو أن الله خلق الناس كافةً على شاكلتهم، لما كان ثمة شرف، ولا مبدأ، وقد سجل التاريخ صفة المنافقين، وأبداها في صور واضحة كما بين لأصحاب الشرف مكانهم في الهيئة الاجتماعية، أمثال أولئك الأنصار الذين خذلوا المنافقين، وأرهقوهم على ملأ من الناس، مع أن هؤلاء المنافقين هم من أكابر قومهم، ولكن هذه سنة الله في خلقه، أن جعل المنافقين والمتملقين أذلاء، حقيرين لأنهم لا يعرفون للشرف طعماً، ولا للمبدأ قيمة، فليختر المرء لنفسه ما يحلو.

حالات اليهود ومكرهم

حدثت أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما[1] إلا أخذاني دونه[2]، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل بقباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينىٰ، قالت: فهششت إليهما، كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب، أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه، وتثبته؟ قال: نعم، [فما في نفسك منه قال] عداوته والله ما بقيت.

وكان مما نزل فيه القرآن خاصة من أحبار اليهود الذين كانوا يسألونه ويتعنتونه، ليلبسوا الحق بالباطل، حيي بن أخطب، ورفاقه، وذلك أن أبا ياسر بن أخطب، مر برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة البقرة ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ فأتى أخاه حيي بن أخطب، في رجال من يهود فقال: تعلموا، والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه: ﴿ألم ذلك الكتاب﴾ فقالوا أأنت سمعته؟ فقال: نعم، فمشى حيي بن أخطب، في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له: يا محمد ألم يذكر لنا، أنك تتلو فيما أنزل إليك ﴿ألم ذلك الكتاب﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى»، قالوا: أجاءك بها جبريل من عند الله؟ فقال: «نعم»، وقالوا: لقد بعث الله قبلك

---

(١) في الأصل «وولداهما... دونهما» وما أثبتٌ عن ابن هشام ١/٥١٩. [المصحح].

(٢) عن ابن هشام ١/٥١٩.

أنبياء تعلمهم ما بين لنبي منهم، ما مدة ملكه وأكل أمته، غيرك، فأقبل حيي بن أخطب على من معه، وقال لهم: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين إنما مدة ملكه، وأكل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: «نعم»، قال حيي: ماذا؟ قال: ﴿المص﴾ قال حيي والله هذه أثقل وأطول الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم﴿الر﴾» قال حيي: هذه أثقل وأطول الألف واحد، واللام ثلاثون، والراء مائتان؛ فهذه إحدى وثلاثون ومائتان، هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: «نعم ﴿المر﴾» قال حيي: هذه أثقل، وأطول، الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري، أقليلاً أعطيت أم كثيراً؟ ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيي ولمن معه من الأحبار، ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فأنزل الله تعالى: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات، هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾**[1].

وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج، برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

---

(١) الآية رقم ٧ من سورة آل عمران، وتتمة الآية: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: آمنا به، كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء الأنصاري: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم من بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم، فأنزل الله تعالى في ذلك: **﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾**[1] وقال مالك بن الصيف، حين بعث رسول الله ﷺ، وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق، وما عهد الله إليهم فيه: والله ما عهد إلينا في محمد عهداً، وما أخذ له علينا من ميثاق، فأنزل الله تعالى فيه: **﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾**[2]، وقال ابن صلوبا الفطيوني لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها. فأنزل الله تعالى: **﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾**[3]، وقال رافع بن حرملة، ووهب بن زيد، لرسول الله ﷺ: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك، فأنزل الله تعالى: **﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالإيمان، فقد ضل سواء السبيل﴾**[4]، وكان حيي بن أخطب، وأخوه ياسر، من أشد يهود حسداً للعرب، إذ خصهم الله تعالى برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعوا فأنزل الله تعالى فيهما: **﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، من بعدما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا، حتى يأتي الله**

---

(١) الآية رقم ٨٩ من سورة البقرة.
(٢) الآية رقم ١٠٠ من سورة البقرة.
(٣) الآية رقم ٩٩ من سورة البقرة.
(٤) الآية رقم ١٠٨ من سورة البقرة.

بأمره، إن الله على كل شيء قدير﴾[1]. وقال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولاً من عند الله، كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾[2]، وقال عبد الله بن صوريا الأعور الفطيوني، لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد، تهتد، فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل: بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[3] الآية.

ولما تحولت القبلة من الشام إلى مكة أتى رسولَ الله ﷺ، رفاعة بن قيس، وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو، حليف كعب بن الأشرف، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فقالوا: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم، ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك، ونصدقك وأرادوا بذلك فتنتهُ عن دينه، والمكر به، والخديعة، والتلاعب، فأنزل الله فيهم: ﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل: لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله، وما كان الله ليضيع إيمانكم، إن الله بالناس

---

(١) الآية رقم ١٠٩ من سورة البقرة.
(٢) الآية رقم ١١٨ من سورة البقرة.
(٣) الآية رقم ١٣٥ من سورة البقرة.

لرءوف رحيم﴾[1]، وقوله تعالى: **﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾**[3].

وسأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن الحارث، نفراً من أحبار يهود، عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إياه، وأبوا أن يخبروهم عنه، فأنزل الله تعالى فيهم: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى، من بعدما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾**[4].

ودعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب، إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف، بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم، وخيراً منا. فأنزل الله تعالى في ذلك: **﴿وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾**[5]. ودخل ﷺ بيت المدارس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله تعالى، فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: وعلى أي دين أنت يا محمد؟ قال: «على ملة ابراهيم، ودينه»، قالا: فإن ابراهيم كان يهودياً، فقال لهما رسول الله ﷺ: «فهلم إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه فأنزل الله تعالى فيهما: **﴿ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً**

---

(١) الآيتان رقم ١٤٢ و ١٤٣ من سورة البقرة.
(٢) الآية رقم ١٤٥ من سورة البقرة.
(٣) الآية رقم ١٤٧ من سورة البقرة.
(٤) الآية رقم ١٥٩ من سورة البقرة.
(٥) الآية رقم ١٧٠ من سورة البقرة.

من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون، ذلك بأنهم قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾[1]، واجتمع أحبار اليهود مع من أتى من نصارى نجران، عند النبي ﷺ، فتنازعوا فقال أحبار اليهود: ما كان ابراهيم إلا يهودياً، وقال نصارى نجران: ما كان ابراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى فيهم: **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون؟ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان ابراهيم يهودياً، ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين، إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين﴾**[2]، وقال عبد الله بن صيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد، وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه، فأنزل الله تعالى فيهم: **﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون، وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل: إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل: إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾**[3].

ودخل أبو بكر رضي الله عنه، بيت المراس، على يهود، فوجدهم أناساً كثيراً، وقد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له: فنحاص، وكان من

(١) الأيتان رقم ٢٣، ٢٤ من سورة آل عمران.
(٢) الآيات رقم ٦٥ و٦٦ و٦٧ و٦٨ من سورة آل عمران.
(٣) الآيات رقم ٧١ و٧٢ و٧٣ من سورة آل عمران.

علمائهم، ومعه حبر من اليهود، يقال له: أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله أنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، وينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك، لضربت رأسك، أي عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، إنه زعم أن الله فقير، وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه، فجحد فنحاص، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص، رداً عليه، وتصديقاً لأبي بكر: **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾**[1] ونزل في حق أبي بكر: **﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾**[2]، وكان كردم بن قيس، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحيي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت، يأتون رجالاً من الأنصار يخالطونهم، كانوا يتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة،

---

(١) الآية رقم ١٨١ من سورة آل عمران.
(٢) الآية رقم ١٨٦ من سورة آل عمران.

فإنكم لا تدرون علام يكون؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾[1] أي التوراة التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ.

وكلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، منهم عبد الله بن صوريا الأعور، وكعب بن أسد، فقال: يا معشر يهود، اتقوا الله، وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق، قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، فجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم، من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا**﴾[2]، وقال سكين، وعدي بن زيد: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسىٰ، فأنزل الله تعالى: ﴿**إنّا أوحينا إليك، كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى ابراهيم، وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون، وسليمان، وآتينا داود زبورا، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيما**﴾[3].

ودعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم غضب الله وعقوبته، فأبوا عليه وكفروا بما جاءهم به، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب الأنصاري: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حرملة، ووهب بن يهود: ما قلنا

---

(١) الآية رقم ٣٧ من سورة النساء، وآخر الآية: ﴿ **واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾.

(٢) الآية رقم ٤٧ من سورة النساء.

(٣) الآيات رقم ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ من سورة النساء.

لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيراً، ولا نذيراً، بعده، فأنزل الله تعالى في ذلك: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير، والله على كل شيء قدير﴾**[1] وقص القرآن عليهم خبر موسى، وما لقي منهم، وانتقاضهم عليه، وما ردوا عليه من أمر الله، حتى تاهوا في الأرض أربعين سنة، واجتمع أحبار يهود في بيت المدارس، حين قدم رسول الله ﷺ المدينة وقد زنى رجل منهم بعد إحصانه بامرأة من يهود قد أحصنت، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل، وهذه المرأة إلى محمد، فسلوه كيف الحكم فيهما؟ وولوه الحكم عليهما، فإن عمل فيهما بعملكم من التجبية فاتبعوه، فإنما هو ملك، وصدقوه وإن هو حكم فيهما بالرجم فإنه نبي فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه. (والتجبية الجلد بحبل من ليف مطلي بزفت، ثم تسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين، وتجعل وجوههما من قبل أدبار الحمارين)٭.

فأتوه فقالوا: يا محمد، هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت، فاحكم فيهما فقد وليناك الحكم فيهما، فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم في بيت مدراس، فقال: يا معشر يهود أخرجوا إليَّ علماءكم، فأخرجوا له عبد الله بن صوريا، وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهودا، فقالوا: هؤلاء علماؤنا، فسألهم رسول الله ﷺ، ثم حصل أمرهم إلى أن قالوا لعبد الله بن صوريا: هذا أعلم من بقي بالتوراة، فخلا به رسول الله ﷺ وكان غلاماً شاباً، من أحدثهم سناً، فألظ به (أي اشتد عليه) رسول الله ﷺ المسألة يقول: «يا ابن صوريا أنشدك الله، وأذكرك بأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في

---

(١) الآية رقم ١٩ من سورة المائدة. وما نصه القرآن الكريم من خبر موسى في الآيات التالية من سورة المائدة إلى الآية رقم (٢٦).

التوراة»؟ قال: اللهم نعم، والله يا أبا القاسم، إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل ولكنهم يحسدونك، ثم جحد بعد ذلك ابن صوريا نبوة رسول الله ﷺ، ثم دعا رسول الله ﷺ اليهود بالتوراة، وجلس حبر منهم يتلوها، وقد وضع يده على آية الرجم، فضرب عبد الله بن سلام يد الحبر ثم قال: هذه يا نبي الله آية الرجم، يأبى أن يتلوها عليك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ويحكم يا معشر يهود، ما دعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم»؟ فقالوا: أما إنه قد كان فينا من يعمل به حتى زنى رجل منا بعد إحصانه من بيوت الملوك، وأهل الشرف فمنعه الملك من الرجم، ثم زنى رجل بعده فأراد أن يرجمه، فقالوا: لا والله لا ترجم فلاناً، فلما قالوا له ذلك، اجتمعوا، فأصلحوا أمرهم على التجبية، وأماتوا ذكر الرجم، والعمل به.

فقال رسول الله ﷺ: «فأنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به، ثم أمر بهما فرجما عند باب المسجد، فلما وجد اليهودي مس الحجارة قام إلى صاحبته فحنا عليها يقيها من الحجارة، حتى قتلا جميعاً، وأتى رسول الله ﷺ نفر من يهود، منهم أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر، وخالد، وزيد، وآزار بن أبي آزار، وأشيع فسألوه: عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال ﷺ: «نؤمن بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى ابراهيم، واسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون». فلما ذكر عيسى بن مريم جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى بن مريم، ولا بمن آمن به، فأنزل الله تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل من قبل، وإن أكثركم فاسقون﴾**[1]. وأتى رسول الله ﷺ رافع بن حارثة، وسلام بن

(١) الآية رقم ٥٩ من سورة المائدة.

مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حريملة فقالوا: يـا محمد، ألست تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد إنها من الله حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم، وجحدتم ما فيها، مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منهما ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من أحداثكم، قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قل: يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنـزل إليكم من ربكم، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، فلا تأس على القوم الكافرين﴾[1]. وأتى رسول الله ﷺ النجام بن زيد، وقردم بن كعب، وبحري بن عمرو فقالوا: يـا محمد أمـا تعلم مع الله إلهـاً غيره؟ فقـال رسـول الله ﷺ: «والله لا إله إلا هـو بذلـك بعثت، وإلى ذلـك أدعـو، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قل: أي شيء أكبـر شهادة، قـل الله شهيد بيني وبينكم، وأوحى إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل: لا أشهد، قل: إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون، الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾[2].

وكان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسـويد بن الحـارث، قد أظهـرا الإسلام، ونافقا، فكان رجال من المسلمين يوادونهمـا، فأنـزل الله تعالى فيهما: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾[3]

---

(١) الآية رقم ٦٨ من سورة المائدة.

(٢) الآيتان رقم ١٩ و ٢٠ من سورة الأنعام.

(٣) الآية رقم ٥٧ من سورة المائدة، وما بعدهـا من السورة نفسهـا حتى الآية رقم (٦١).

إلى قوله تعالى: ﴿وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾.

وقال جبل بن قشير، وشمويل بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول؟ فأنزل الله تعالى فيهما: **﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟ قل: إنما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا وهو، ثقلت في السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل: إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[1].

وأتى رسول الله ﷺ محمود بن سبحان، ونعمان بن أضا، وبحري بن عمرو، وعُزيز بن أبي عُزيز، وسلام بن مشكم فقالوا: أحق يا محمد؟ إن هذا الذي جئت به لحق من عند الله، فإنا لا نراه متّسقاً كما تسق التوراة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به.

فقالوا عند ذلك، وهم جميع: فنحاص، وعبد الله بن صوريا، وابن صلوبا، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وأشيع وكعب بن أسد، وشمويل بن زيد، وجبل بن عمرو بن سكينة: يا محمد ما يعلمك هذا إنس ولا جن؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإني رسول الله، تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة.

فقالوا: يا محمد فإن الله يصنع لرسوله، إذا بعثه ما يشاء، ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه، ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله تعالى فيهم: **﴿قل: لئن اجتمعت الإنس والجن**

---

(٤) الآية رقم ١٨٧ من سورة الأعراف.

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتـون بمثله ولو كـان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[1].

وأتى رهط من يهود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رســول الله ﷺ حتى انتُقع لـوْنـه[2] ثم ساورهم (أي وثب عليهم) غضباً لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، فقال: خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه عنه: **﴿قل: هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾**[3] فلما تلاها رسول الله ﷺ عليهم، قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعه، كيف عضده، فغضب لذلك رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من عند الله تعالى بجواب ما سألوه: **﴿وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسمـوات مطويـات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**[4].

فهذا ملخص ما رواه ابن إسحق، ووافقه عليه بعض المفســرين، وهي أيضاً صورة من صور حالات اليهود مع رسول الله ﷺ من يوم دخوله المدينة، إلى أن أبادهم الله تعالى وسحقهم، وذلك الذي ذكرته هو بعض ما وقع من اليهود من ضروب الحيل والمكر والمغالطة، واختلاق الكذب لعلهم يتوصلون إلى صد ما جاء به رسول الله ﷺ من الهدى، ودين الحق كما أنهم تسلحوا بالإنكار الـذي هو سـلاح العاجـز عن إقامـة الحجج،

---

(١) الآية رقم ٨٨ من سورة الإسراء.
(٢) في الأصل: «امتقع» بدون كلمة «لون» وما أثبتّ عن ابن هشام ١/٥٧١.
(٣) سورة الإخلاص. [المصحح].
(٤) الآية ٦٧ من سورة الزمر. [المصحح].

والبراهين الصحيحة القاطعة، لرد دعوى الخصم، لكون الأفكار هي سلاح هين قريب التناول، حيث كان من المستحيل عليهم، رد ما جاء به رسول الله ﷺ بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة المبينة لما أخفوه، مما ورد في التوراة من الآيات الصحيحة الدالة على ثبوت رسالته ﷺ، فلو كان عندهم شيء من الإنصاف لما كابد النبي ﷺ ما كابده في التفاهم معهم.

فمن مطالعة ما ذكر من محاورتهم له، يتضح لكل منصف، وضوحاً جلياً الحق من الباطل، والمصيب من المخطىء، والمكابر من الباحث، ويظهر له ظهوراً بيناً أن اليهود كان موقفهم موقف الشرور من الاعتراف له ﷺ بالنبوة والرسالة، فلو كان عندهم شيء من الإنصاف، لتركوا الجدل، ونبذوا المكابرة، وتجنبوا المراوغة، وتسلحوا بالحقيقة، وباحثوه ﷺ مباحثة من يريد الوصول إلى تحقيق ما جاء به من ربه، وتفاهموا معه فيما استشكل عليهم فهمه، لأن في البحث إظهار النتيجة، وإنما لعلمهم أن ما جاء به ﷺ من ربه هو عين الحق ومطابق لأصل التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام، فما وسعهم إلا إنكاره لأن التوراة التي بأيديهم محرفة عن أصل التوراة التي جاء بها موسى، والقرآن جاءهم بأصل التوراة، ومصحح للأغلاط التي تعمد وضعها بعض أحبارهم وهم على يقين من ذلك، وكان الاعتراف منهم بذلك يضيع المصلحة التي هم أسسوها في عقول بسطائهم من اليهود، ويزيل تلك الغطرسة التي يتحكمون بها باسم الدين على قومهم، كما قال تعالى في ذلك: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾**[1].

يقول بعض المستشرقين والمبشرين من العصريين: إن القرآن مقتبس

---

(١) الآية رقم ١٥ من سورة المائدة.

من التوراة والإنجيل، فلو كان ذلك صحيحاً لما خفي على أولئك اليهود الذين بذلوا كل ما في وسعهم، من محاورة النبي ﷺ ومكابرته، وجحود ما جاء به من ربه، ولو كان الأمر كذلك، لكان هو السلاح الوحيد الذي يستطيعون به رد تيار الإسلام، وكفاح القرآن، حيث هو أوسع علماً بالتوراة، وأشد تمسكاً بها من المبشرين والمستشرقين، بل إن قول المبشرين والمستشرقين هذا لم يخطر ببال أحد أولئك اليهود، ولو خطر ببالهم لحدثنا به التاريخ، والحقيقة أن هذا القول بأن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل هو قول مختلق، من ضمن الاختلاقات التي يختلقونها كل عشية وضحاها، والمفتريات التي يفترونها على الإسلام، ونبي الإسلام، وكتاب الإسلام.

والحقيقة التي لا غبار عليها أن الذي ألجأ اليهود إلى إنكار ما جاء به رسول الله ﷺ من الله تعالى، وإنكار نبوته، وجحود رسالته، مع يقينهم أنه النبي المرسل من ربه، الذي بشر به موسى وعيسى، عليهما الصلاة والسلام، هو لكونه بعث من أصل عربي، ولم يبعث من بني إسرائيل، كما كانوا يؤملون وصرح به كثير منهم، فلو كانت نزعتهم نزعة دينية محضة، لما تعصبوا للجنسية بعد أن كانوا يستبشرون بقرب مبعثه، يهددون الأوس والخزرج به، بأنه متى بعث آمنوا به، وصدقوه، فيما جاء به من ربه، وكانوا من حزبه وأنصاره، ويكون لهم النصر به على الأوس والخزرج، فقضى ربك الذي لا مرد لقضائه، بأن يكون ذلك من حظ الأنصار، لا من حظ اليهود، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فجعل السعادة من قسم الأوس والخزرج، والشقاء من قسم اليهود، فشتت شملهم، وفرق جمعهم، وجعل دائرة السوء عليهم.

كتابه ﷺ ليهود خيبر

لم تتوقف دعوة رسول الله ﷺ على يهود المدينة إلى الإسلام فحسب، بل إنه ﷺ بعد أن بذل جهوداً عظيمة في الوصول إلى التفاهم مع يهود المدينة، كتب أيضاً إلى يهود خيبر، يدعوهم إلى الإسلام، وإلى التفاهم معهم بموجب ما أنزل على موسى عليه السلام، وهذا نص ما كتبه لهم:

بسم الله الرحمن ارحيم، من محمد رسول الله، صاحب موسى وأخيه، والمصدق لما جاء به موسى، ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم: **﴿محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل، كزرع أخرج شطأه فآزره، فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا، وعملوا الصالحات منهم، مغفرة وأجراً عظيماً﴾**[1] وإني أنشدكم بالله، وأنشدكم بالذي أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله، ألا أخبرتموني؟ هل تجدون فيما أنزل الله عليكم؟ أن تؤمنوا بمحمد، فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم، قد تبين الرشد من الغي، فأدعوكم إلى الله، وإلى نبيه.

هذا ما رواه ابن إسحاق، ولم يذكر أنه ورد له منهم الجواب في هذا الموضع، والظاهر أنهم لم يجيبوه بشيء، لأن مذهب اليهود واحد، سواء كانوا بالمدينة أو بخيبر، هو النكران والجحود والمكر والخدعة.

---

(١) الآية رقم ٢٩ من سورة الفتح، وهي آخر آياتها.

إثارة اليهود الفتنة بين الأنصار

لما فشل اليهود في محاورتهم مع رسول الله ﷺ، وجدالهم له، وقنعوا من فشلهم في ذلك، وأن لا سبيل إلى مغالطته، عمدوا إلى طريقة أخرى لعلهم يصلون إلى بغيتهم عن طريقها، وهي إثارة الفتن بين الأنصار من الأوس والخزرج، حتى إذا نجحوا في ذلك، أصبح في نظرهم رسول الله ﷺ ومن هاجر معه ضعفاء، لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فيتسنى لهم بعد ذلك قتله، وقتل من معه من المهاجرين، وقد ترشح لهذه المكيدة أشقاهم، وهو شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسا وتصلب، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، فمر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم، وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة والبغضاء في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال له: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، وهو أبو أسيد بن حضير الأنصاري، رضي الله عنه، وعلى الخزرج، عمرو بن النعمان البياضي ففعل الشاب اليهودي ما أمره به رأس الفساد، شاس بن قيس اليهودي، وبث بينهم الفتنة، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، وهما: أوس بن قيظي من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن

جذعة[1]، وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة (الحرة) السلاح السلاح، فخرجوا إليها، فبلغ رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألف بين قلوبكم، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شاس وصنعه: ﴿**قل: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله، والله شهيد على ما تعملون، قل: يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً، وأنتم شهداء، وما الله بغافل عما تعملون**﴾[2] وأنزل الله تعالى في الأوس والخزرج، الذين أدخل بينهم شاس ما أدخل من الفتنة، وحرضهم على عمل الجاهلية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب، يردوكم بعد إيمانكم كافرين، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله، وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾[3]، وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار، والحلف في الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم، ينهاهم عن مباطنتهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، لا يألونكم خبالا، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي**

---

(١) أي رددنا الحرب كما كانت. والجذع هو الفتيّ. [المصحح].

(٢) الآيتان رقم ٩٨ و ٩٩ من سورة آل عمران.

(٣) الآيات رقم ١٠٠ و١٠١ و١٠٢ و١٠٣ و١٠٤ و١٠٥ من سورة آل عمران.

صدورهم أكبر، قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون، ها أنتم تحبونهم، ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل: موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾(١) إلى آخر القصة.

فهذه بعض ما دونه التاريخ، وسجلته السير، من أعمال اليهود ضد الإسلام، وهي صورة أيضاً من صور حالاتهم مع رسول الله ﷺ، وأصحابه، ولكن الله تعالى قد نور قلوب الأنصار بنور الإيمان، حتى أصبحوا لا يبالون بشيء من أباطيل اليهود، ولا نفثاتهم السحرية التي ينفثونها بينهم، من إثارة الفتن، وتفريق الكلمة، وتشتيت الشمل، وصاروا يؤوبون إلى رشدهم في لمحة البصر.

وفد نصارى نجران

قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، وهم ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، ومن هؤلاء الأشراف، ثلاثة أولو الأمر فيهم:

أحدهم: العاقب، وهو أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح.

والثاني: الأيهم، وهو صاحب رحالهم، ومجتمعهم.

والثالث: أبو حارثة بن علقمة (أحد بني بكر بن وائل) أسقفهم، وحبرهم، وإمامهم، وصاحب مدراسهم، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم قد شرفوه، ومولوه وأخدموه [وَبَنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم من

---

(١) الآيتان رقم ١١٨ و ١١٩ من سورة آل عمران.

علمه واجتهاده][1] في دينهم، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ من نجران، كان أبو حارثة راكباً بغلة له موجهاً، [إلى رسول الله ﷺ][1]، وإلى جنبه أخ له اسمه كوز بن علقمة، فعثرت بغلة أبي حارثة فقال كوز: تعس الأبعد، يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال: ولم يا أخي؟ قال: والله أنه للنبيّ الذي كنا ننتظر، فقال له كوز: وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم (يريد ملوك الروم) شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة، حتى أسلم بعد ذلك، فهو كان يحدث عنه هذا الحديث.

وكان رؤساء نجران يتوارثون كتباً عندهم، فكلما مات رئيس منهم، فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتماً من الخواتم التي كانت قبله، ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي فعثر فقال ابنه: تعس الأبعد، يريد النبي ﷺ فقال له أبوه: لا تفعل، فإنه نبي، واسمه في الوضائع (يعني الكتب) فلما مات لم تكن لابنه همة، إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد فيها ذكر النبي ﷺ وحسن اسلامه، وحج، وهو الذي يقول:

إليك تغدو قلقاً وضينها　　　معترضاً في بطنها جنينها
مخالفاً دين النصارى دينها

فلما دخلوا على رسول الله ﷺ في مسجده، حين صلى العصر، كان عليهم ثياب الحبرات، جبب وأردية، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم، فصلوا إلى المشرق»، وهؤلاء الأشراف الأربعة عشر الذين يؤول إليهم أمر نجران هم:

---

(١) ما بين المعقوفين عن ابن هشام ١/٥٧٣.

(١) العاقب وهو عبد المسيح، (٢) السيد وهو الأيهم، (٣) أبو حارثة، (٤) أوس، (٥) الحارث، (٦) زيد، (٧) قيس، (٨) يزيد، (٩) نبيه، (١٠) خويلد، (١١) عمرو، (١٢) خالد، (١٣) عبد الله، (١٤) يحنس، فكلم رسول الله ﷺ العاقب عبد المسيح، والسيد الأيهم، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف في أمرهم، يقولون في المسيح عيسى عليه السلام: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانية.

فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى، ويبرىء الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً، وذلك كله بأمر الله تبارك وتعالى، ولنجعله آية للناس. ويحتجون في قولهم أنه ولد الله، بأنهم يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله.

ويحتجون في قولهم أنه ثالث ثلاثة، يقول الله فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال: إلا فعلت، وقضيت، وأمرت، وخلقت، ولكنه هو، وعيسى، ومريم، ففي كل ذلك من قولهم نزل القرآن، فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما»، قالا: قد أسلمنا، قال: «إنكما لم تسلما»، قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام، دعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير.

قالا: إن لم يكن عيسى ولد الله، فمن أبوه؟ وخاصموهُ جميعاً في عيسى، فقال النبي ﷺ: «تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه»، قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الموت؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء، يحفظه، ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً»؟

قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون في الله لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء»؟ قالوا: بلى، قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم»؟ قالوا: لا، قال: «ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب»، قالوا: بلى، قال: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم، ويشرب، ويحدث»؟ قالوا: بلى، قال: «فكيف يكون إلهاً كما زعمتم»؟ فسكتوا، فأنزل الله تعالى في ذلك: **﴿ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ إلى بضع** وثمانين آية من سورة آل عمران، وبين فيها كل ما اختلف النصارى في عيسى وأمه وولادته، ودعواهم أن اليهود قتلوه، ونفى ذلك، وكيف يحيي الموتى وكيف يبرىء الأكمه والأبرص وغير ذلك، فلما تلا رسول الله ﷺ كل ذلك عليهم، قالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه.

فانصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب عبد المسيح، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لا عن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم الا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم.

فأتَوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا، فقال رسول الله ﷺ: «ائتوني العشية، أبعث معكم القوي، الأمين». فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أحببت الإمارة قطُ، حبي إياها يومئذ، رجاء إن أكون صاحبها فرحت إلى الظهر مهجّراً(١)، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ثم نظر عن يمينه ويساره، فجعلت أتطاول ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: اخرج معهم، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه. قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة. رواه ابن هشام عن ابن إسحاق.

فهذا ما جرى من البحث بين رسول الله ﷺ، وبين نصارى نجران في حق عيسى عليه السلام، وعلم من ذلك أن نصارى نجران لم يجدوا لديهم ما يردون به حجج رسول الله ﷺ في نفي ألوهية عيسى، أو كونه ابن الله، أو التثليث، فوقفوا مكتوفي الأيدي حيارى، لا يدرون ما يقولون في ذلك، ولا ما يجيبون به، ولما استقلوا بأنفسهم، وخلوا مع العاقب عبد المسيح كبيرهم صرح لهما بما يعلمه ويعلمونه من كتبهم، عن نبوة محمد ﷺ، وأنه لا مناص من اتباعه، وقد نصحهم، ولكن لا ينفع النصح لمن كان مصراً على رأيه. غير أنهم لم يستعملوا المكابرة، ولا المغالطة، ولم يتسلحوا بالمكر، والخديعة التي تحصن بها اليهود في بحثهم، ومجادلتهم مع رسول الله ﷺ، بل إنهم اكتفوا بموادعته والعودة إلى بلادهم، والظاهر أن الذي منعهم من الإسلام بعد اعترافهم بنبوته، هو خوفهم من ملوك الروم، من أن ينزعوا عنهم ما أولوهم به من النعم،

---

(١) في الأصل «إلى ظهر مهجر» وما أثبت عن ابن هشام ١/٥٨٤. [المصحح].

والمفاخر التي نالوها منهم، ولم يظهر سبب آخر غيره من سياق الرواية، ولم يكن ذلك من الأسباب الجوهرية التي لأجلها يترك الإنسان سعادة الدنيا والآخرة، ولكن الناس في كل زمان ومكان على درجات، فمنهم من يبيع عاجله بآجله، ومنهم من يضحي بأهله، وماله، وولده، وكل عزيز وغال لديه، لأجل دينه مثل المهاجرين والأنصار، ومنهم الذين لا مبدأ لهم، ولا يعبؤون بالأديان، ولا يقيمون لها وزناً، أمثال الماديين والملحدين فهم الذين ينظرون للأديان، وأهلها، نظر سخرية واستهزاء، ويعتقدون أنها حديث خرافة، وغير ذلك من أصناف البشر، مع أن الرجل البصير متى ظهر له الحق اتبعه. ألهمنا الله الصواب، وهدانا إلى سبيل الرشاد.

نفاق عبد الله بن أبي بن سلول

عبد الله بن أبي سلول العوفي، كان أشرف رجل من الأوس والخزرج، وكان رئيسهم، في كل عمل قبل الإسلام، حتى تقرر بينهم أن يتوجوه ملكاً عليهم، وقد نظموا الخرز الذي عملوه تاجاً على قاعدة اليمن، كما علم مما سبق، أن أصل الأوس والخزرج، من قحطان، ليتوجوه به، فجاءهم الله تعالى برسول الله ﷺ، فدخلوا في الإسلام، وعدلوا عن تتويج عبد الله بن أبي بن سلول، فوقع إسلام الأوس والخزرج، والتفافهم حول النبي ﷺ ورفضهم تتويج عبد الله بن أبي بن سلول، ضربة قاضية على اماله بالملك المزعوم، الذي كان غاية آماله، ومنتهى رجائه، فأوجب ذلك في قلبه العداوة والبغضاء لرسول الله ﷺ، وكان لا يترك أي عمل يكون فيه تثبيط الناس عن دخول الإسلام، وكان هذا ظاهراً في أعماله، وأقواله، غير أن الأنصار رضي الله عنهم كانوا يحبون أن يدخل معهم في الإسلام، ولعله يكون له وجاهة عند رسول الله ﷺ ولكنه لا يستطيع ذلك، لشدة ما وقع في قلبه من الحقد، والحسد، والضغينة، ورسول الله ﷺ يعامله بالرفق، والملاطفة، حسب عادته في دعوة الناس إلى دين الإسلام.

حدث ابن إسحاق، عن زيد بن حارثة، رضي الله عنه، قال: ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة، يعوده من شكوى أصابته، على حمار عليه إكاف[1] فوقه قطيفة فدكية، مُخَتَطِمة[2] بحبل من ليف، وأردفني رسول الله ﷺ خلفه. قال: فمر بعبد الله بن أبي، وهو في ظل مزاحم (اسم حصن) وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله ﷺ تذمم (استنكف) من أن يجاوزه، حتى ينزل، فنزل، فسلم، ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، وذكر بالله وحذر، وبشر، وأنذر، وقال: وهو زام (متكبر لا يتكلّم، يعني ابن أبي، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقاله، قال: (يعني عبد الله بن أبي) لرسول الله ﷺ: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقاً، فاجلس في بيتك، فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغتّه[3] به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه.

فقال عبد الله بن رواحة، في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى فاغشنا به، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نحب، ومما أكرمنا الله به، وهدانا له.

وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة، وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه، فقال: أجل، ثم أخبره بما قال ابن أبي، فقال سعد: يا رسول الله، ارفق به، فوالله جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لتتويجه، وإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً. ثم بقي ابن أبي بن سلول متردداً، حتى غلب عليه الإسلام، فدخله نفاقاً، وله في النفاق والمكر

---

(١) إكاف: برذعة.
(٢) الاختطام: أن يُجعل على رأس الدابة وأنفها حبلٌ تُمسك به. [المصحح].
(٣) لا تغته: أي لا تثقل عليه ولا تكده. [المصحح].

والأذى والخذلان، ما يوازي عمل اليهود في مكرهم وحسدهم وأذاهم ونفاقهم، وسيأتي تفصيل ذلك في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

حمى المدينة

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابَه منها بلاءٌ وسقمٌ[1]، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ، وحفظه، فكان أبو بكر الصديق، وعامر بن فهيرة، وبلال رضي الله عنهم، في بيت واحد، مع أبي بكر، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم عائشة رضي الله عنها، قبل أن يضرب الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنت من أبيها أبي بكر وقالت له: كيف تجدك يا أبت؟ فقال:

كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

فقالت عائشة رضي الله عنها: والله ما يدري أبي ما يقول، قالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة، فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه

قالت: فقلت والله ما يدري عامر ما يقول، قالت: وكان بلال إذا تركته الحمى، اضطجع بفناء البيت، ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة بفج وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل[2]

---

(١) في الأصل «فأصاب منها بلاءً وسقماً» والتصويب عن ابن هشام ١/٥٨٨.

(٢) فج: هو فج الروحاء، بين مكة والمدينة المنورة، والإذخر: نبت معروف بالحجاز له رائحة عطرية وهو لا ينبت إلا في تهامة، وجليل نبت أيضاً من نبات تهامة، وجاء في رواية أخرى: فخ بالخاء لا بالجيم وأظنها هي الصحيحة لأن بلالا حن إلى مكة، وفخ بالخاء المعجمة من ضواحي مكة، وهو الذي نطلق عليه اليوم =

فقالت عائشة رضي الله عنها: فذكرت لرسول ﷺ ما سمعت منهم، فقلت: أنهم يهذون، وما يعقلون، من شدة الحمى، قالت: فقال رسول الله ﷺ: اللهم حبب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة، أو أشد، وبارك لنا في مدها، وصاعها، وانقل وباءها إلى مَهْيَعَة (ومهيعة هي الجحفة)، وكان أصحاب رسول الله ﷺ، مما أجهدتهم الحمى، يصلون وهم قعود، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم يصلون قعوداً، فقال لهم: اعلموا أن صلاة القاعد على النصف، من صلاة القائم، فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم، التماسا للفضل.

حديث مخيريق

كان مخيريق حبرا عالماً، وكان غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته، وما يجده في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد يوم السبت قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم، يوم السبت، قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج، حتى أتى رسول الله ﷺ بأحدوعهد إلى من وراءه من قومه، إن قتلت هذا اليوم، فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس، قاتل حتى قتل، فكان رسول الله ﷺ يقول: مخيريق خير يهود، وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها رواه ابن هشام عن ابن اسحاق.

يقول بعض العصريين الملحدين: إن المؤرخين من المسلمين

= الزاهر، والشهداء، ويؤكد ذلك قوله: وهل أردن يوماً مياه مجنة، ومجنة بمر الظهران، وفخ في الطريق إلى مر الظهران. وشامة وطفيل: جبلان يشرفان على مجنة.

تحاملوا على اليهود في تاريخهم، ونسبوهم إلى كل رذيلة، لأنهم لم يتفقوا مع النبي ﷺ، ولذلك صار عندهم شك في كل ما يدونه تاريخ الإسلام، ومن تصفح التاريخ الإسلامي، يظهر لـه مفتريـات هؤلاء الذين يقيسـون الـوقائـع الصحيحة على عقـولهم السخيفة، ويحكمـون عليهـا بجهلهم، حسبمـا يمليه عليهم ضميـرهم الملوث بجراثيم التبشيـر الأجنبي، فهـذا حديث مخيريق اليهودي أمامنا، فانـظر ما سجله لـه التاريـخ من المزايـا الشريفة، ولغيره ممن تقدم من اليهود، مثل عبد الله بن سلام، ولمن يأتي بعد ذلك ذكره من اليهود الذين كتبت لهم السعادة، وفهموا حقيقة الدين الإسلامي، وما يدعو إليه من شرف الدنيا، وسعادة الآخرة، فلو لم يكن عند مؤرخي الإسلام انصاف، لما ذكروا لهؤلاء شيئا من المجد والشرف، ولأهملوا ذكرهم على الأقل، ولكن من حيث إن هؤلاء القائلين بهذا القول هم مجردون من الإنصاف، فظنوا أن المؤرخين المسلمين مثلهم.

مصادر الكتاب

لا أريد هنا أن أدون فهرسة للكتب التي طالعتها وراجعتها، فيما يتعلق بهذا الكتاب، حرصا على الوصول إلى كل ما روي عن حياة رسول الله ﷺ، وما ترجم لأصحابه، رضي الله عنهم، من المزايا الشريفة، والتاريخ المجيد، لأني قد راجعت في ذلك أكثر من مائة مؤلف، مما دبجه يراع جهابذة الإسلام، رحمهم الله تعالى، وإنما اقتصرت على بيان أسماء الكتب التي نقلت منها جملا كثيرة، نافعة ومفيدة، والعمدة في عموم كتب السير، ومتون الأحاديث، والتاريخ، فيما يتعلق بالغزوات، هو راجع إلى رواية محمد بن اسحاق المطلبي، فهو المصدر، وعنه المرجع في ذلك، كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من أراد أن يتبحر في المغازي، فهو عيال على بن اسحاق، وأكثر من جمع رواية بن اسحاق، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، الحميري البصري، المتوفي بمصر، سنة مائتين وثلاث عشرة من الهجرة . وهذه أسماء الكتب التي أخذت عنها:

١ القرآن الكريم

٢ ـ تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

٣ ـ تفسير القرآن، لعماد الدين الحافظ ابن كثير

٤ ـ تفسير القرآن، لعلاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم الخازن

٥ ـ صحيح البخاري، لمحمد بن اسماعيل البخاري

٦ ـ صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج
٧ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني
٨ ـ شرح صحيح مسلم، لمحي الدين يحيى بن شرف النووي
٩ ـ سيرة ابن اسحاق، رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري
١٠ ـ الشفاء، للقاضي عياض
١١ ـ زاد المعاد، للحافظ أبي عبد الله بن قيم الجوزية.
١٢ ـ المواهب اللدنية، للحافظ أحمد بن محمد القسطلاني
١٣ ـ السيرة سبل الهدى والرشاد (خط) في أربعة أجزاء ضخام، لأبي عبد الله محمد الشامي، نزيل برقوقية الصحراء تلميذ القسطلاني، والسيوطي
١٤ ـ السيرة الحلبية، للعلامة علي بن برهان الدين الحلبي
١٥ ـ بهجة المحافل، لعماد الدين يحيى بن أبي بكر العامري وشرحها
١٦ ـ الإستيعاب في أسماء الأصحاب، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر الطبقات.
١٧ ـ للإمام ابن سعد
١٨ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ ابن حجر العسقلاني
١٩ ـ تاريخ ابن جرير الطبري
٢٠ ـ تاريخ ابن الأثير، لأبي الحسن على بن محمد الشيباني الجزري
٢١ ـ تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، للإمام عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي
٢٢ ـ تاريخ وفاء الوفاء، للعلامة نور الدين على بن جمال الدين السمهودي
٢٣ ـ طبقات الأمم، لابن صاعد الأندلسي، نقلت عنه ما يتعلق بالعرب

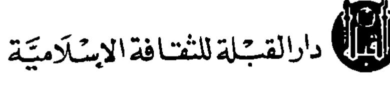
٢٤ ـ النهاية في غريب لغة الحديث، لابن الأثير
٢٥ ـ القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروز ابادي
٢٦ ـ أنساب العرب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الله القلقشندي المصري
٢٧ ـ سبائك الذهب في أنساب العرب، لمحمد أمين البغدادي السويدي

الفهـــرس

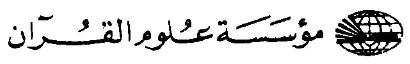

حياة
سيد العرب صلى الله عليه وسلم
وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ-١٩٩٢م



المملكة العربية السعودية - جدة - ص ب : ١٠٩٣٢ - الرمز : ٢١٤٤٣ - ت : ٦٦٥٢٤٠٦ / ٦٦٥٩٩٥١ / فاكس : ٦٦٥٩٤٧٦



دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص ب : ٤٦٢٠ - ت : ٢٢٤٩ - بيروت - ص ب : ١١٣/٥٢٨١